نظرية علم الإجتماع

تأليف

دكتور

أحمد النكـــلاوى

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب

جامعة القاهرة

نظرية علم الاجتماع

تأليف

دكتور

أحمد النكلاوى

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب

جامعة القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى كل من يعمل من أجل ...

أن يبدأ المستقبل في مجتمعنا الآن وليس غدا

مقدمة

عندما فكرت فى الكتابة حول النظرية فى علم الاجتماع ، أو بمعنى أدق النظرية الاجتماعية سعيت إلى التعرف على ما كتب حولها بالعربية وما كتب حولها باللغات الأجنبية . والحقيقة أننى وجدت نفسى وسط كم هائل من الكتابات الأمر الذى اعتبرته مؤشرا ساطعا وفعليا على مدى ما تحظى به الكتابة حول النظرية من أهمية بالغة حيث تكون الكتابة فى هذا الإطار تأصيلا وتجذيرا للعلم موضوع التخصص من ناحية، وإرساء وتكوينا للعمل وإجلاءا لتياراته واستيعابا لتوجهاته .

ولقد راعنى وسط هذا الكم من الكتابات العربية على وجه الخصوص أن جانبا كبيرا منها انفصل عن أى شريحة من شرائح الجمهور التى يجب أن تسعى إليها الكتابة أصلا فى أى مبحث من المباحث، وبخاصة إذا كان مبحثا علميا يرتكز عليه بناء العلم بوجه عام .

ومؤدى ذلك : أن مثل هذه الكتابات لم توضع أصلا للدارس المبتدئ أو حتى للباحث المتخصص ، إنما وضعت لتحقيق ميلا ذاتيا يرى من خلاله الكاتب اقترابا من طموحاته الذاتية ، أو وضعت من أجل إضفاء صفة الموسوعية التى يسعى البعض إلى الارتباط بها تحقيقا لمزيد من البريق أو الالتفات إليهم ، أو جاءت من أجل الحصول على درجة علمية أو التقدم لترقية أو لاستيعاب مساحة ما من مساحات التسوق أو سد الفراغ.

وتعد الكتابة فى النظرية بعيدا عن جمهور بعينه تتجه إليه ، يسعى

الكاتب إلى التعرف على حاجاتـه ومستهدفاته من الاتصال بالنظرية وبمستواه التعليمى والثقافى ، إحدى أزمات الكتابة فى موضوع النظرية الاجتماعية ، وهى الأزمة التى تصنع العديد من العوائق أمام هضم وفهم ما تقدمه الكتابات من طرح .

وتسعى هذه المحاولة من جانبنا إلى التخاطب مباشرة مع الطالب المبتدئ الذى يطلع لأول مرة على موضوع النظرية الاجتماعية ، وهو الطالب الذى يتعين أن يتلقى جرعات هذه المادة على نحو يسهل له استيعابها وتأتى لغتها منسجمة وملتقية مع مستوى وعيه ونضجه المعرفى والفكرى ، ومن ثم مع اهتماماته والأفق المطلوب منه الوصول إليه .

وإنجازا لذلك التوجه حرص هذا العمل على عرض موضوع النظرية الاجتماعية وطرحه على النحو الذى يحقق هدف تنمية وعى الطالب بأهمية هذا المبحث باعتباره عجلة القيادة الأساسية التى تمكن الإنسان من فهم واستيضاح الكثير من المسائل التى تشكل العالم الاجتماعى المحيط به .

وتتدرج موضوعات هذا الكتاب من بيان لإطار النظرية الاجتماعية من حيث تعريفها وبيان الحاجة إليها والوقوف على العناصر الداخلة فى بنائها ، والتعرف على النظرية فى سياق البحث العلمى من حيث خصائصها وأنماطها والعلاقة بينها وبين التفكير العلمى من ناحية والبحث العلمى من ناحية أخرى ، وصولا إلى التنظير فى علم الاجتماع ، فنعرض لأهمية التنظير فى علم الاجتماع والمحاولات المبكرة للتنظير فى هذا العلم وأنماط الخرائط النظرية فى علم الاجتماع . ويقودنا ذلك إلى التعرف على الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع وبخاصة الاتجاه الوضعى والاتجاه

البنائى الوظيفى واتجاه الصراع ثـم الاتجـاه السـلوكى والاتجـاه النقـدى وصولا للاتجاه الإنسانى .

ولا تقف موضوعات الكتاب فى تدرجها عند هذا الحـد بـل تسـعى فى النهاية إلى مساعدة الطالب على تكوين رؤية أو موقـف تقييمـى قـدر الإمكان فنعرض لأسس تقييم النظرية فـى علـم الاجتمـاع ، فـى ضـوء منظومة التحولات العالمية المعاصرة.

والعمل الذى بين أيدينا إذ يسعى إلى تقديم هذا الجـهد لأبنـائى مـن طلاب الدراسات الاجتماعية والإنسـانية بالجامعـات والكليـات المختلفـة ، أرجو أن أكون قد اقتربت من اهتماماتهم المعرفية ومطالبهم الأساسـية مـن دراسة النظرية الاجتماعية ، كما أرجو أن يتقبل كل من شحذ طـاقتى علـى إتمامه كل الشكر والاحترام والتقدير .

أحمد النكلاوى

القرية السياحية الأولى

مدينة السادس من أكتوبر

القاهرة ٢٠٠٣

الفصل الأول

التعريف بالنظرية الاجتماعية

الفصل الأول

التعريف بالنظرية الاجتماعية

يعرض هذا الفصل لثلاثة عناصر متكاملة تشكل مدخلا أوليا للتعريف بالنظرية الاجتماعية . ونقصد من قولنا ذلك أن تعريف النظرية الاجتماعية قضية كبرى ، بحيث يمكن القول أن مباحثها ومسائلها التى تطرحها أو ترتبط بها تقدم فى ثناياها بيانا أو تحديدا لاهتماماتها وقضاياها ونظراتها للمجتمع ورؤياها التفسيرية والتحليلية لمسائلة ومشكلاته . ولا غرو أن ذلك كله يعد وقفات أساسية لاستكمال طريق أو مهمة الإلمام بها من كل جوانبها وأبعادها. إن مسألة التعريف بالنظرية الاجتماعية هى بعينها التعريف بمبلغ ما حققه العقل البشرى من تقدم وارتقاء فى فهم المسألة الاجتماعية والإمساك بالأطراف الفعلية التى نسجتها .. أو بمعنى أدق أن التعريف بالنظرية الاجتماعية هو بعينه تعريف بكيفية فهم المستقبل والتخاطب مع مستجداته فى مجتمع من المجتمعات .

ونقصد من محاولتنا التمهيدية فى هذا الفصل مساعدة الدارس الذى يتلقى (لأول مرة) درسا فى النظرية الاجتماعية ليستبين نطاقها وأهميتها وعناصرها وأنماطها ودورها فى بناء المعرفة وتوجيهها وقيادة الطريق للإجابة على مشكلات المجتمع فى حاضره ومستقبله .

وتتبدى العناصر التى تشكل دائرة اهتمامنا فى هذا الفصل فى تساؤلات ثلاثة ، وهى بالقدر الذى يمكن أن يطرحها الدارس المبتدئ ، ويهتم بالتوصل إلى إجابة عليها ، بالقدر الذى تفرض فيها نفسها على كل

من يسعى إلى الكتابة عن النظرية الاجتماعية ونطرح تساؤلاتنا الثلاثة على النحو التالى :

- **ماذا نقصد بالنظرية الاجتماعية ؟ أو بمعنى آخر ما معنى النظرية الاجتماعية ؟**

- **هل هناك حاجة إلى النظرية الاجتماعية ؟ أو بمعنى آخر ما يعود علينا من دراسة النظرية الاجتماعية ؟**

- **ما هى العناصر التي يتكون منها بناء النظرية (الاجتماعية) ؟ أو بمعنى آخر ما هى القواعد أو العمد الأساسية التى تقوم عليها النظرية الاجتماعية ؟**

ونتناول فيما يلى الإجابة على تلك التساؤلات :

أولا : ماذا نقصد بالنظرية (الاجتماعية) : معنى النظرية الاجتماعية :

قبل أن نبين المقصود بالنظرية الاجتماعية يتعين أن ندرك منذ **البداية أن مفهوم النظرية سواء وظف أو استخدام فى مجال العلوم الطبيعية أو فى مجال العلوم** الاجتماعية ، **لا اختلاف فيه من حيث مدلوله كما سنبين بعد قليل. وكل ما نود تأكيده فى هذا المجال أن الفارق بين النظرية (الاجتماعية) و**النظرية **(الطبيعية) ، فارق فى المجال أو الميدان الذى تعنى أو ترتبط به كل منهما .فعلى حين أن النظرية (الاجتماعية تنشغل بمسائل الظاهرة الاجتماعية ، فإن النظرية (الطبيعية) تنشغل بمسائل الظاهرة الطبيعية من ناحيتها .**

وإذا كان البعض يرى أن الفارق بين كل من النظرية (الاجتماعية)

، النظرية (الطبيعية) لا يقف عند مجرد اختلاف مجال الاهتمام لكل منـــهما، بما يمتد إلى اختلاف " طبيعة كـــل مـــن الظواهـــر الطبيعيـــة والظواهـــر الاجتماعية سواء من حيث درجة عموميـــة كـــل مـــن الظـــاهرة الطبيعيـــة والظاهرة الاجتماعية ، أو من حيث درجة ثبات كل منها أو تعقيدهـــا ، فـــإن تسليمنا بما يذهب إليه هؤلاء ، لا يعنى أن هذا الاختـــلاف بيـــن كـــل مـــن نمطى النظرية الاجتماعية والطبيعية - اختـــلاف فـــى جوهـــر أو ماهيـــة مصطلح نظرية فى حد ذاته ، إنما هو اختلاف فى مجـــرد مـــدى عموميـــة ودرجة ثبات النظرية وهو ما يرجع فى الأساس إلى طبيعة الظـــاهرة التـــى تعنى بها كل نظرية من هذه النظريات. فالظاهرة الطبيعية تتسم بالعموميـــة، ولكونها كونية فإنها تخضع لقوانين ونظريات موحـــدة فـــى جميـــع أرجـــاء المعمورة ومن ثم تكون درجة ثبات نظرياتها وقوانينـــها عاليـــة . وتختلـــف الظاهرة الاجتماعية ، من ناحيتها ، من مجتمع إلى آخـــر ، كمـــا تتعـــرض للتغير بصورة سريعة لارتباطها بأهواء وإرادة البشر ومستوى وعيـــهم ممـــا يجعل النظرية الاجتماعية ليست على درجة عمومية وثبـــات النظريـــة فـــى العلوم الطبيعية والحيوية (١) .

وإذا كانت النظرية الاجتماعية تتفق مع غيرها من النظريـــات فـــى العلوم الطبيعية من حيث بنائها ووظائفها فى العلم بوجه عام ، فإنها تختلـــف عنها من حيث المضمون فالنظرية الاجتماعية تهدف إلـــى تقديـــم تفســـيرات وتصورات للحياة الاجتماعية من حيث تطروها ونشأتها وتغيرهـــا ، أو مـــن حيث علاقة كل جانب من جوانب هذه الحياة بغيرها من الجوانـــب ، تمامـــا مثلما تهدف النظرية " البيولوجية " إلى تقديم صورة موضوعية عـــن نشـــأة

---

(١) انظر : محمد عبد النبى : " النظريـــة الاجتماعيـــة والوعـــى الاجتمـــاعى " ، دار الثقافة العربية ، حرم جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٨٨ ، صفحات ١٣ـ١٤ .

الحياة وتطورها وعناصرها ومكوناتها والعلاقات بين جوانبها المختلفة.

وقد حدد " رايت ميلز " وظيفة النظرية الاجتماعية في " التصوير الموضوعي للعلاقات المتبادلة بين جوانب النشاط الاجتماعي للناس بوصفهم جماعات اجتماعية تتفاعل مع بعضها البعض داخل تكوينات اجتماعية أكبر وأشمل ، وللتطور التاريخي لهذه التكوينات والقوانين التي تحكم الحياة الاجتماعية في بنائها وظيفتها وتطورها وتلك التي تحكم كل جانب من جوانبها على حدة [1] .

ومن الثابت أن مفهوم النظرية الاجتماعية ارتبط بمعان عديدة فاقت نظيراتها التى عرفتها العلوم الطبيعية . وقد أشار إلى هذه الحقيقة "روبرت ميرتون " فى كتابه " النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى " عندما أشار إلى استخدام علماء الاجتماع لكلمة نظرية كمرادف لعديد من المصطلحات وما تشير إليه كمصطلح المنهج، القضية، التصور، الاستنباط، التقنين .. الخ.

وجدير الإشارة إلى أن مفهوم النظرية يقصد به مجموعة القضايا التي تشكل فيما بينها نسقا معرفيا يقودنا إلى بناء عدد من الاستنتاجات تدعمها معطيات الملاحظة والمشاهدة . ويتضح من هذا التحديد لمفهوم النظرية اشتماله على بعدين أساسين هما:

البعد الأول : ويتجلى فى القضايا المعرفية المترابطة التى تطرحها أو تقدمها النظرية .

البعد الثانى : ويتمثل فى المسالك أى الطرق التى يتعين توظيفها فى تحليل

---

(١) سمير نعيم أحمد : " النظرية فى علم الاجتماع " ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩، صفحات ٣٨ـ٤٠ .

تلك القضايا أو الحقيقة الاجتماعية التى تتناولها النظرية [١] .

ومؤدى هذا التحديد لمفهوم النظرية أن لكل نظرية بناء يتكون من مجموعة من القضايا يتعين أن يتوفر فيها عددا من الشروط كما ذهب "تيماشيف" فى مؤلفه " النظرية فى علم الاجتماع " : طبيعتها وتطورها الصادر عام ١٩٥٥ . وتتمثل هذه الشروط فى :

١- **تبلور المفهومات التى تشكل جسد القضايا التى تتكون منها النظرية** ووضوحها وتحددها.

٢- تساند القضايا أو ترابطها واتساقها فيما بينها .

٣- تدرج القضايا على نحو يسمح بالتوصل **إلى تكوين بعض التعميمات أو الخروج ببعض الاستنباطات .**

٤- مساعدة الباحث على التوصل إلى ما هو أعم وأعمق وإثراء للمعرفة المتاحة .

٥- **أن تكون القضايا صادقة وقابله للتحقق منها ، وهى تعد صادقة إذا لم تظهر معطيات تناقضها** [٢] .

ويتبين من مجمل هذه الشروط أن النظرية باعتبارها مجموعة من القضايا تنتظم فى نسق استنباطى ، **تحتاج إلى ما يؤيدها من جانب** المعطيات المشاهدة أو القائمة **كما أن ما تقدمه لا يعد أمرا غير قابل**

---

(١) بودون و ف . بوريكو : " المعجم النقدى لعلم الاجتماع " ، ترجمة سليم حداد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٦ ، صفحة ٥٧٣ .

(٢) محمد عبد النبى ، مصدر سابق ، صفحات ١١-١٢ .

للمناقشة أولا رجعة فيه إذ هى بناء قابل للمراجعة باستمرار [١] .

ثانيا : الحاجة إلى النظرية الاجتماعية :

تستمد النظرية الاجتماعية أهميتها وتتبلور الحاجة إليها من طبيعة الدور الإثرائى الذى تمارسه فى بناء العلم والفكر والعقل البشرى ومن ثم فى بلورة الوعى بطبيعة المهمة التى تلقى على عاتق المنظرين الاجتماعيين فى توجيه مسالك العمل والعطاء الذى هو أساس منظومة الحضارة الإنسانية بوجه عام فى شقيها المادى والقيمى الإنسانى .

ومن ثم فإن الحاجة إلى النظرية الاجتماعية تمثل الحاجة إلى ما يجلى الرؤية والاستبصار بالطريق والمتغيرات التى تمارس دورها فى تشكيل الواقع القائم بكل أبعاده بل وتشكيل المستقبل الذى تصنعه فى أغلب الأحيان متغيرات الواقع .

وإذا كانت النظرية ذات وجهين متماسكين معرفى ومنهجى فإنها تعنى أن الحاجة إليها هى حاجة إلى العلم فى الأساس ولما كان العلم مرادفا لإنجاز الاستنارة والوصول إلى اليقين فإن النظرية هى المجداف الذى يوصل الإنسان إلى اليقين .

ولا يتحقق اليقين إلا من خلال الفهم والتفسير وهو ما تسعى إليه النظرية بكل عناصرها من قضايا ومسالك منهجية ومن ثم يرتهن عطاء الإنسان فى صناعة الحياة ، أى الحضارة بقدر ما يتحقق له من مساحة للفهم والتفسير والتعليل ومن ثم القدرة على الاستنباط والاستنتاج وهو ما

---

(١) على جلبى : " قضايا علم الاجتماع المعاصر " ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤، صفحات ٩٨ـ١٠٣ .

يمثل قوام النظرية الاجتماعية بالإجمال.

ولقد ربط العديد من الباحثين بين الحاجة إلى النظرية والحاجة إلى العلم ، كما رأى البعض الآخر ، أن النظرية تعد بالنسبة للعلم " العقل الموجه " و"البوصلة" التى تهدى الباحثين عند محاولتهم دراسة الواقع الاجتماعي المعقد والمتداخل . ومعنى ذلك النظرية هى التى تحدد أدوار العلم وهويته واختياراته الاجتماعية ومن ذلك :

أ ــ مع أى القوى الاجتماعية يقف الباحث؟

ب ــ من أجل من تكون البحوث ؟

جـ ــ من أجل ماذا يكون المنهج العلمى؟

ويمكن أن تتبلور الحاجة إلى النظرية فى الاعتبارات التالية :

١- توجيه الباحث فى انتقاء موضوع بحثه .

٢- توجيه مسارات البحث الذى يتصدى له الباحث .

٣- المساعدة على تفسير النتائج التى ينتهى إليها الباحث من بحثه .

٤- المساعدة على رؤية واستشراف مستقبل الظواهر والوقائع الاجتماعية.

٥- المساعدة على بلورة النقد الاجتماعى وبلورة وعى الأفراد بأوضاعهم[1] .

٦- المساعدة على وصف الظواهر وتصنيفها وتحليلها وتفسيرها.

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى وآخرون : فى " النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع " ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ ، صفحة ٥ .

٧- المساعدة على إعادة صوغ ورؤية الواقع رؤية عقلية [١] .

ثالثا : عناصر بناء النظرية الاجتماعية :

حتى يمكن قراءة النظرية الاجتماعية ، واستيعابها ، يتعين على المرء أن يتعلم رؤية العناصر الأساسية التى تكونها ، وأن تعى فضلا عن ذلك ما الذى يشير إليه كل عنصر منها . وتتمثل العناصر التى تكون بناء خرائط النظرية الاجتماعية فى المفاهيم Concepts والقضايا propositions والافتراضات assumptions . وحتى يتسنى الإلمام بكل عنصر من العناصر التى تضمها النظرية الاجتماعية ومحتواه يتعين الوقوف على مكونات كل عنصر من عناصرها [٢] .

المفاهيم Concepts :

تعد المفاهيم رموز لفظية تشير إلى مجموعة من الحقائق ، ومعنى ذلك أن المفهوم يجرد الواقع تحت رمز معين ، أى أنه يعزل الظاهرة موضع الاهتمام أو يفصلها عن العناصر الأخرى للمركب الكلى للظاهرة . وعليه تلعب المفاهيم دورا فى تحديد ما ينبغى ملاحظته ، أى دورا فى توجيه الباحث نحو المعطيات التى يجب أن يتناولها وينتبه إليها وتحليلها[٣].

ومن الثابت أننا نسلم فى الحياة اليومية بالكثير من المفاهيم

---

(١) على جلبى ، مصدر سابق ، صفحة ١٠٤ .

(٢) David Michael Qrenstein : The Sociological quest : Principles of sociology, West Publishing Co., N. Y., 1985, P. 48.

(٣) على ليلة : " النظرية الاجتماعية المعاصرة " ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ ، صفحات ٣٠-٣١ .

ونستخدمها ، ونفترض أن كل فرد يدرك ويعى الحقيقة أو الواقـع بالطريقـة التى نفهمها نحن . ومعنى ذلك أننى أفترض عندما أقول لشـخص مـا مـن فضلك اجلس على الكرسى ، فإننى أتصور أن كلمـة أو مصطلـح كرسـى يشير أو يعنى بالنسبة إليه ، باعتباره جانبا أو شيئا من الواقـع ، مـا يعنيـه بالنسبة لى .

وعليه فإن المفاهيم تعد بمثابة كلمات تحمل فى ثناياهـا مضمونـا أو فكرة لشئ ملموس أو غير ملموس يعى الأفراد معناها من خـلال التحـادث أو الأفعال . ويعد الفرق بين المصطلحات أو المفـاهيم التـى تشـكل بنـاء النظرية ، أى المستخدمة فى النظرية الاجتماعية وتلك التـى تسـتخدم فـى إطار الحياة اليومية فارقا فى الدرجة فقط وليس فى النوع . ويعزى الفـارق بين المفاهيم التنظيرية وتلك التى تستخدم فى الحياة اليومية إلـى أن الأولـى اصطلاحات لها معان محددة ودقيقة عكس تلـك التـى تشـير إليـها اللغـة الدارجة المتواترة فى حياتنا اليومية .

وتعد الدقة والتحديدية فى التعريف والاستخدام لمصطلـح التنظـير من أبلغ خصائص هذه المصطلحات ، وهى التى تصنع خطـا فـاصلا بيـن الخلط الذي قد يقع من حيث ما يقصده أو يشير إليه المصطلـح وبيـن مـا ليس له معنى من استخدامه فى إطار النظرية الاجتماعية .

ولما كانت المفاهيم النظرية تتناول بـالتحديد جانبـا مـن جوانـب الحقيقة الاجتماعية ، فإنها قد تشـير إلـى أنمـاط الأشـخاص أو الأنسـاق الاجتماعية أو العمليات أو الجماعات .

وتساعد النظريات الجيدة ، بتحديدها لمفاهيمـها علـى نحـو دقيـق

وتقديمها لنماذج توضيحية لها ، الباحثين على رؤية وفهم ما يعنيه المنظرون أو يشيرون إليه. ويأخذ الباحثون فى الإقبال على استخدام مفهوم من المفهومات عندما يصبح من المفهومات المحورية أو ذات الوزن العلمى ، أى عندما يغدو مصطلحا من المصطلحات الأساسية المتعارف عليها فى ميدان التخصص العلمى للباحث s tandard concepts . وإذا كان المصطلح من المصطلحات الغامضة التى لا تساعد الباحث على استيعاب أو فهم ما ينشغل به فى بحثه ، فإنه ينظر إليه باعتباره من قبيل الكلمات غير المفهومة أو المضطربة المعنى ومن ثم تفقد وزنها واستخدامها فى البحث العلمى (١) .

ويتعين التأكيد فى هذا المجال بشأن المفاهيم على أمرين حيويين هما :

* **الأمر الأول :** لا يشكل المفهوم – فى حد ذاته – الوحدة التحليلية الأساسية للنظرية .

* **الأمر الثانى :** يخضع المفهوم للتغير تبعا لتغير الأوضاع والمتغيرات الخاصة والعامة فى المجتمع ، وتبعا للتحولات الفكرية والثقافية وتوجهاتها التى تتدخل فى التأثير عليه (٢) .

القضايا propositions :

من الثابت أن أى خريطة من الخرائط الجغرافية ليست مجرد

---

(١) David Michael Qrenstein, op. cit., P. 48.

(٢) على ليلة ، مصدر سابق ، صفحة ٣٢ .

سلسلة أو مجموعة من الخطوط الموضوعة على نحو عشوائى أو المركبة فوق بعضها البعض دون ضابط أو معنى أو هدف .

حيث إننا إذا دققنا النظر فى خطوط الخريطة ، ومنذ الوهلة الأولى، لوجدنا أنها تسير فى اتجاهات محددة لها وتتداخل بعضها أحيانا مع بعض فى علاقات متوازية ومتوازنة تعكس فى النهاية جانبا من جوانب الحقيقة أو الواقع .

وإذا ماثلنا بين الخرائط الجغرافية والطبيعية .. الخ وخرائط التنظير (النظريات) فى علم الاجتماع أمكننا القول أن خرائط التنظير التى قدمها علماء الاجتماع ليست بمجرد قوائم مفهرسة من المفاهيم ، إنما هى بناء من المفاهيم المرتبطة بعضها ببعض ويحوى هذا الارتباط مضمونا أو رسالة تقول شيئا كأن توضح أو تبين كيف أن العالم الاجتماعى يستند إلى التنظيم ويتصف بالفاعلية . ويطلق على المصطلح الذى يربط بين عدد من المفاهيم مسمى القضية (١) .

وقد ذهب " جوهان بالتنج J. Galtung " فى مؤلفه النظرية وطرق البحث الاجتماعى إلى اعتبار " القضية " ترجمة أو لسان حال لواقع يكشف عن وجود علاقة بين مصطلحين أو أكثر أحيانا وتتسم هذه العلاقة بالاحتمالية مما يجعلها من قبيل الفروض التى يتعين إخضاعها للتحقق منها أو إقامة البرهان الأمبريقى على مدى توفر صحة الصدق فيها فنقبلها أو نسبة الخطأ فنرفضها (٢) .

---

(١) David Michael Qrenstein, op. cit., p. 49.

(٢) Johan Galtung Theory and Methods of Social Research, George Allen Co London, 1989, P 364

ومن قبيل القضايا ما توضحه الأمثلة التالية : " كلما كانت الروابط الاجتماعية داخل الجماعة قوية ، كلما انخفض معدل الانتحار بها . يؤدى ازدياد البطالة إلى ازدياد معدل الجريمة " ، يتسم الصراع السياسى الذى يرجع إلى قيم دينية بدرجة أعلى من العنف بالنظر لصور الصراع السياسى الأخرى . وترتبط القضية الأولى من الأمثلة المتقدمة بين مفهوم الرابطة والروابط الاجتماعية " ومفهوم " الانتحار وتربط القضية الثانية بين مفهوم " البطالة " ومفهوم " معدل الجريمة " وتربط القضية الثالثة بين مفهوم" القيم الدينية " ومفهوم " العنف " .

أنماط النظرية :

يعتمد استخدام القضايا النظرية فى البحث السسيولوجى على مدى وضوح المفاهيم التى ترتبط بتلك القضايا أو تطرحها . وإذا كانت سائر القضايا تحتاج مفاهيم معرفة ومحددة بشكل جلى ودقيق ، فإن القضايا تتباين فيما بينها من حيث الأسلوب أو الطريقة التى تتناول بها المفاهيم . ومن بين الأنماط العديدة القضايا : القضايا السببية ، والقضايا الوظيفية ، والقضايا الدياليكتيكية . ونتناول كل منها فيما يلى :

القضايا السببية Causal Propositions :

يقوم منطق القضية السببية على أن وقوع تغير ما فى مفهوم (أو متغير) يتبعه بالضرورة وقوع تغير فى مفهوم (متغير) آخر . ومؤدى ذلك أن القضية السببية تشير إلى وجود علاقة تتغير بمقتضاها أو فى إطارها المفاهيم (المتغيرات) على نحو أو نسق معين . ومن ثم إذا قلنا أن انخفاض معدل البطالة سوف يؤدى إلى انخفاض معدل الجريمة معناه أننا

نشير إلى قضية سببية تربط بين التغير فى " معدل البطالة " والتغير فى "معدل الجريمة " وتؤكد هذه القضية أن هناك علاقة بين معدل البطالة ومعدل الجريمة إذ أن التغير الذى يشهده معدل البطالة يفضى إلى وقوع تغير مقابل فى معدل الجريمة .

القضايا الوظيفية functional propositions :

إذا كانت القضايا السببية تربط بين المفاهيم لتبين كيف تنشأ الظاهرة أو تقع أو تتبدل ، فإن القضايا الوظيفية تربط بين المفاهيم لتبين كيف تعمل الظاهرة أو تعبر عن نفسها .

فعلى سبيل المثال تذهب القضية الوظيفية إلى " أن الطقوس الدينية الجماعية تساعد على ظهور أو تحقق التماسك والتوحد بين أفراد الجماعة خلال أوقات الأزمات الاجتماعية . وتربط تلك القضية بين مفاهيم "الطقوس الدينية " و " التوحد والتماسك " فتبين كيف أن الجماعة التى تقوى داخلها الروابط الدينية من خلال الطقوس الجماعية تكون أقدر بالتالى على البقاء والتماسك .

وتعد القضايا الوظيفية من بين أنماط القضايا التى تتمتع بوزن كبير فى العديد من البحوث العلمية الاجتماعية ، وبخاصة تلك التى تعنى ببيان كيف تستمر الجماعات أو النظم أو المجتمعات فى الوجود . ولا يقف البحث العلمى الاجتماعى عند هذا المستوى من الاهتمام فحسب إذ يتخطاه حيث يهتم ببيان كيف تظل النظم الاجتماعية مستمرة وقادرة على القيام بأدوارها رغم ما يحفل به العالم الاجتماعى من حولنا من صور شتى للمشكلات والصراعات والضغوط والرفض وعدم التقبل .

القضايا الدياليكتيكية Dialectical Propositions :

إذا كانت القضايا الوظيفية يشغلها أمر كيف وجدت الجماعات أو أثبتت وجودها وذلك من خلال ما تقوم به من أدوار أو تتجزء من مهام ومسؤوليات ، فإن القضايا الدياليكتيكية توجه الانتباه إلى بيان كيف تتغير الجماعات أو تنمو من داخلها.

ويتجلى نموذج القضية الدياليكتيكية فى المثال التالى : تنشئ المجتمعات الإقطاعية ضغوطا داخلية تؤدى إلى انهيار نمط التنظيم الإقطاعى الذى تقوم عليه وتسهم بالتالى فى ظهور نمط التنظيم الرأسمالى، ومن الواضح أن هذه القضية تربط بين مفهومى " المجتمع الإقطاعى " ، "النظم الرأسمالية " وتسعى إلى بيان كيف ينمو أو يقوم شكلا من أشكال الواقع الاجتماعى الجديد من رحم شكل آخر من أشكال الواقع الاجتماعى . وترى القضايا الدياليكتيكيه أن الحياة الاجتماعية من خصائصها الأساسية الدينامية ومن ثم تميل بحكم طبيعتها إلى أن تتغير وتتبدل وتتحول لتأخذ أشكالا وصورا مغايرة جديدة .

النظرية كبناء مترابط من القضايا :

إذا كانت النظرية الاجتماعية لا تتكون من مجرد طائفة من المفهومات جمعت على نحو عشوائى ، بل من مفهومات تنتظمها وتوظفها قضايا بعينها ، فإن النظرية الاجتماعية لا تتكون بدورها من مجرد مجموعة من القضايا المتناثرة بل من قضايا ترتبط بعضها ببعض وعلى نحو نظامى متدرج حيث تأتى القضايا العامة من حيث الترتيب فى المقدمة وتليها بعد ذلك القضايا الأقل عمومية ، والتى تكون مشتقة أحيانا من

القضايا العليا. ومؤدى تلك النسقية أن كل نظرية اجتماعية تحتوى داخلها على مجموعة من القضايا المترابطة تكون بمثابة خريطة تشير إلى كيف تترابط جوانب الواقع الاجتماعى وأبعاده فيما بينها وكيف تعمل وتستمر .

ويمكن للمرء أن يجد داخل نظرية من النظريات الاجتماعية نمطا بعينه من أنماط القضايا التى أشرنا إليها أو يجد كل الأنماط فى وقت واحد. فقد ضمت نظرية لويس كوزر عن الصراع نمط القضايا السببية حين ذهبت إلى أنه كلما كثرت صور التباين الاجتماعى الطبقى فى المجتمع ، كلما كثرت صور الصراع داخله. كما ضمت نظرية كوزر نمط القضايا الوظيفية عندما ذهبت إلى أن الصراعات المحدودة النطاق تسهم فى تخفيف صور التوتر وتتيح الفرصة أمام تحقيق صور من التكيف والتلاؤم تمكن المجتمع من تحقيق ذاته. وضمت نظرية كوزر أيضا نمط القضايا الدياليكتيكية التى تمثلت لديه فيما ذهب إليه من أن المجتمعات تولد الصراعات التى تؤدى إلى ظهور أشكال جديدة من أشكال المجتمعات تكون أكثر توافقا وتلاؤما مع بيئاتها وأوضاعها .

وتتداخل أنماط القضايا فيما بينها لتنسج صورة أو خريطة متماسكة للمجتمع . ويتعين أن ننبه إلى أن ما يجعل قضايا نظرية من النظريات الاجتماعية تبدو أكثر التحاما وترابطا فيما بينها وجود بعض الأفكار الرئيسية تربط بينها (أى بين القضايا) يشار إليها باسم التصورات المستبطنة داخل كل قضية underlying assumptions .

التصورات Assumptions :

يتحدد رسم خريطة من الخرائط بالتصورات الأساسية الحاكمة

لرؤية الإنسان لبناء الكرة الأرضية وتكوينها . فلو كانت الرؤية لـهذا العـالم أنه مستدير فسوف نقوم برسم خريطة تختلف عما إذا كانت الرؤية تـرى أن العالم مسطحا أى غير مستدير . وعليه يمكـن القـول أنـه بـدون وجـود تصورات لشكل الكرة الأرضية يتعذر وضع خريطة على الإطلاق .

أنماط التصورات :

ويفرض وضع خرائط تنظيرية للمجتمع وجـود تصـورات حـول الوقائع الاجتماعية التى يعنى المنظـرون الاجتمـاعيون بدراسـتها .ومـن الثابت وجود بعض التصورات الأساسية خلف كل قضيـة نظريـة توضـح كيف تشكلت أو تكونت الواقعـة الاجتماعيـة social reality.. وتتنـاول النظريات المختلفة مجموعة مختلفة من التصورات تقدم رؤى مختلفة لكيـف أصبح العالم الاجتماعى على النحو والطابع الـذى هـو عليـه الآن ، كمـا توضح الكيفية التى يتعين أن نتناول بها مسألة من المسائل الاجتماعيـة فـى ضوء نظرية من النظريات تسـتبطن قضاياهـا تصـورات يعنـى البحـث السسيولوجى بالإجابة عليها .

وغنى عن البيان أن علماء الاجتماع لم يظـهر وإجماعـا أو قبـولا كاملا للتصورات الأساسية التى دارت حولها النظريات الاجتماعيـة . فقـد ذهب البعض إلى أن هناك بعض التصورات يمكن قبولها ويتعيـن أن تـدور حولها النظريات ، كما رأى البعض الآخر أن الخرائط النظرية تقـوم علـى تصورات تتباين من حيث مدى نفعها واستخدامها.واستنادا إلى هذا الأسـاس يمكن القول أنه يتعذر تقرير ــ بصورة حاسمة ــ مـدى دقـة التصـورات النظرية أو مدى أهميتها أو مكانتها .

وتدور معظم النظريات الاجتماعية حول تصورين مختلفين ، الأول يسمى بالتصورات المثالية ويسمى الثانى بالتصورات المادية. وترتبط النظريات المثالية بتصورات ترى أن الجماعات الاجتماعية ارتهن وجودها بالبنية العقلية لأبنائها ، أو بمعنى آخر أن الجماعات الاجتماعية ينتظم وجودها حول تلك البنية أساسا . ومعنى ذلك أن أى جماعة تتأثر إلى حد بعيد بأفكار ومعتقدات وقيم أفرادها أو غيرها من صور الحالة العقلية الخاصة بهم .

ويقدم " أوجيست كونت " مثلا خالصا للتصورات المثالية. فقد رأى كونت أن نمو مجتمع من المجتمعات يتوقف على درجة النمو العقلى لأبنائه . وقد استشهد كونت على ذلك حين أكد أن المجتمع الصناعى يمكنه أن يتطور إذا ما استطاعت القدرات العقلية لأفراده أن توظف المنطق العقلى بصوره علمية موضوعية .

وتؤكد التصورات المادية ، على العكس من النظريات التى تحكمها التصورات المثالية ، أن الحالات العقلية للأفراد تعد نتاجا، وليست أسبابا، لأشكال التطور الاقتصادى والتكنولوجى والصناعى . ولقد كتابات " كارل ماركس " مثلا جيدا للتصورات المادية.

فقد ذهب " ماركس " إلى أن الأفكار السائدة فى مجتمع من المجتمعات مردها الوضع الطبقى الاجتماعى ، وهو الوضع الناشئ أساسا عن مستوى النمو الاقتصادى والتكنولوجى فى المجتمع وعليه ، وتبعا للتصور الماركسى. تنشئ المجتمعات التى تقوم على القنص وجمع الثمار، وكذا المجتمعات الزراعية والصناعية صورا مختلفة من التقسيم الطبقى الاجتماعى وأنساق الفكر . ويتسنى القول إذا وظف المرء الخريطة

النظرية التى وضعها " كارل ماركس " معناه أن يقيم فهمـــة للأيديولوجيــات السياسية والقيم الدينية والمثل الأخلاقية للمجتمع فى ضـــوء مسـتوى النمـــو الاقتصادى والتكنولوجى للمجتمع المدروس (١) .

مداخل بناء أو تشكيل النظرية فى علم الاجتماع :

يكمن التمييز بين مدخلين أساسيين لبناء أو تشكيل النظرية فى علـــم الاجتماع هما :

١ــ المدخل الاستقرائى .

٢ــ المدخل الاستنباطى .

ونتناول كل من المدخلين فيما يلى :

أولا : المدخل الاستقرائى لبناء النظرية فى علم الاجتماع :

وينطلق هذا المدخل من الملاحظة المباشرة للوقائع أو الظواهر كمـــا تحدث فى المجتمع، ويتم التعبير عن هذه الملاحظات فى شكل أفكـــار وآراء تشبه المعارف التى توجد لدى الناس العاديين .

ومع تنظيم عملية الملاحظة وضبطها ، ومتابعـــة الوقـــائع الفرديـــة بصورة أشمل فى أماكن متعددة وأوقـــات مختلفـــة ، وتصنيـــف أنماطـــها، والوقوف على انتظام حدوثها ، يصل الباحث إلى تعميم مبدئى (أو ميدانـــى) حول الظاهرة . ثم يحاول التحقق من هذا التعميم للتأكد من مدى انطباقـــه أو صدقه فى أماكن متعددة وأوقات مختلفة ، ولدى جماعات أخرى من البشـــر .

---

(١) David Michael Qrenstein, op. cit., PP. 50-56.

وعلى ضوء ذلك يستطيع صياغة قاعدة أو قانون يكشف عن ظروف حدوث الظاهرة ، والعوامل المؤثرة فيها يساعد فى الوصول على تفسير لها .

ومن خلال تجميع هذه القواعد أو القوانين فى الميادين المختلفة ، وربطها معا ، والوقوف على السمات المشتركة فيها يستطيع الباحث أن يصل إلى درجة أعلى فى سلم التعميم والتجريد النظرى ، ويتمكن من صياغة القضايا الخاصة بها التى تشكل فى ترابطها معالم نظريته الاجتماعية .

وهكذا يسير تشكيل البناء النظرى فى إطار هذا المدخل من الخاص إلى العام ، ومن الفردى إلى الكلى ، ومن العيانى أو الملموس إلى المجرد وفقا لقواعد المنطق الاستقرائى.

ثانيا : المدخل الاستنباطى لبناء النظرية فى علم الاجتماع :

ويبدأ هذا المدخل - على العكس من المدخل السابق - من العام إلى الخاص ، ومن الكلى إلى الجزئى ، ومن المجرد إلى العيانى . حيث ينطلق المفكر فى طرح نموذجه النظرى من مسلمات عامة يؤمن بها ويعتقد فى صحتها ويعتبرها قضايا مسلم بها . ولا تتولد قناعة المفكر وإيمانه بهذه المسلمات من فراغ ، إنما من خلال قراءته الواسعة ، ومراجعته الفاحصة للتراث ، ومحاوراته وتقييمه لأعمال المفكرين ، ورؤيته لأوجه القوة والقصور فيها . حيث تتشكل على ضوء ذلك كله قناعته بصحة وصدق هذه المسلمات العامة ، التى تعد بمثابة قضايا كلية، يقوم باشتقاق أو استنتاج مجموعة من القضايا الجزئية التى تتفرع عنها

والتى تعد بدورها بمثابة افتراضات عامة تتضمن قواعـــد وقوانيـن تحــدد طبيعة العلاقات بين الظواهر التى يتناولها .

وفى إطار هذه الافتراضات يقوم بوضـــع التحديـدات الإجرائيــة ، واختيار وإعداد الوسائل والأســاليب الخاصــة بتنظيـم ملاحظــة الوقــائع موضوع دراسته فى مجتمع معين أو زمان ومكان معينين لكى يتثبـت مـن مدى صحة افتراضاته ومفاهيمــه ومقولاتــه النظريــة ، والوقــوف علــى الشواهد التى تؤيدها أو تنفيها وتتعارض معها ، ومــن خــلال تكــرار هــذا الاختبار أو التطبيق يستطيع الباحث تحديد مدى كفـــاءة إطــاره النظــري ، وصدقه الأمبريقى (أو الميدانى). ومدى تحقيق نظريته التى يطرحها .

ورغم اختلاف نقطة الانطلاق فى كل من هذين المدخليــن ، فإنــهما يتلقيان فى الرجوع والاحتكام إلى الواقع كأساس لتقييــم أى بنــاء نظــرى . وكذلك فى تأكيد أهمية ضبط الملاحظة ، وطرق ووســـائل وأســاليب هــذا الضبط ، والتى لا بد أن تخضع لأساس علمى هو المنهج العلمى ، وقواعــد المنطق سواء فى عمليات الاستقراء ، أو الاستنباط [1] .

---

(١) محمد عبد النبى ، مصدر سابق ، صفحات ١٥ـ١٧ .

الفصل الثانى

النظرية فى سياق البحث العلمى

الفصل الثانى

النظرية فى سياق البحث العلمى

استمرارا لإرساء الأركان الأساسية لمعنى النظرية ومكوناتها ، نواصل فى إطار هذا الفصل إنجاز هذا الهدف ، والذى رأيناه يمكن أن يتحقق من خلال تسليط الضوء على موقع النظرية فى سياق البحث العلمى وعلاقتها به . ونسعى من وراء ذلك التناول التعريف بالنظرية ودورها فى نسيج العمل العلمى البحثى ، التأكيد للطالب المبتدئ على أهمية أن تتكون لدينا أطرا نظرية تساعدنا على تفهم واقعنا المعاش ومشكلاته وتبدلاته ، وتمكننا فى نفس الوقت من الوعى بتوجهات هذا الواقع ومساراته وتطوراته ووزن وتقييم ما يقدم لنا من تفسيرات وتبريرات لما يسم هذا الواقع من تحديات وأزمات ، تقييما علميا قائما على مرتكزات لنظريات اكتسبت قضاياها قدرا كبيرا من الصدق والاتفاق حول ما تطرحه من تصورات وتفسيرات .

ويعرض الفصل لثلاثة قضايا تكون فيما بينها رؤية متكاملة للنظرية فى سياق البحث العلمى وهى :

١ــ العلاقة بين النظرية والمعرفة العلمية .

٢ــ العلاقة بين النظرية والبحث .

٣ــ العلاقة بين النظرية والبحث فى علم الاجتماع .

أولا : العلاقة بين النظرية والمعرفة العلمية :

من الثابت أن النظرية تحتل موقعا خاصا رائدا فى عملية البحث العلمى فى شتى الميادين . ولقد أدى هذا الدور الجوهرى الذى تسهم به النظرية فى عملية البحث إلى تصورها الأساس الذى يكسب العلم - أيا كان موضوعه - هويته وصفته كعلم . وعليه ، اعتبرها البعض أكثر أهمية بالنسبة للعلم من المنهج العلمى .

وغير خاف أن هذا التصور المتقدم مستمد بالطبيعة من ريادة المعرفة الإنسانية وقيادتها لأنماط السلوك المختلفة ، بل والمنشئة لسائر الآليات والأساليب والطرق التى من شأنها أن تحقق السلوك على النحو الذى يتسق مع طبيعة تلك المعرفة وقضاياها وأهدافها .

ولما كانت النظرية العلمية أسمى وأرقى صور المعرفة العلمية ، كان من الضرورى أن يتصدر دورها دور الأساليب والمسالك (المنهج) التى تفرض وجودها طبيعة النظرية وتكوينها .

فالمنهج العلمى " شئ مشاع بين كل العلوم ، أما نظرية أى علم من العلوم هى التى تحدد موضوع العلم وتنظم عمله وأدواره بل ومساره فى العديد من الأحيان . ويبدو ذلك الخلاف بين النظرية والمنهج العلمى من حيث أن هذا الأخير يعد أساسا واحدا لكل العلوم وإن اختلفت تفصيلاته وأساليبه باختلاف طابع أو نمط الظاهرة المدروسة .

ونظرا لما يرتبط بالنظرية من دور محورى فى إثراء البحث العلمى وقيادته ، جاء الاهتمام بتحديد معانيها ومضموناتها ، وبيان مكوناتها وأدوارها سواء من قبل المهتمين بفلسفة العلم ومنطقه أو من قبل

المشتغلين بالمنهج العلمى وأساليبه فى ميادين المعرفة الإنسانية المختلفة. وأيا كانت التصورات التى أحاطت بمفهوم النظرية ومعناها ، فإنها ، أى النظرية ، تعد نقطة البدء الأولى التى توفر للباحث الإطار الذى يساعده على تحديد الأبعاد والعلاقات التى يتعين عليه دراستها . وتمهد النظرية الطريق أمام الباحثين لجمع معطياته وتنظيمها وبيان العلاقات التى تربط فيما بينها . ومجمل القول : تعد النظرية بمثابة الموجه الذى يوفر للباحث السياق العلمى الذى سيجرى بحثه من خلاله .

ومن الثابت أن جمع بيانات بلا نظرية من شأنه أن يسلمنا إلى بيانات صماء فاقدة المعنى والوظيفة . وإذا كان ذلك كذلك ، فإن النظرية التى تعد بلا معطيات وبيانات عملا خاويا ، وتصبح محض مصطلحات مجردة . ومن هذا المنطلق يؤكد سائر المشتغلين بالبحث العلمى على أهمية العلاقة الجدلية التبادلية أو التفاعلية بين النظرية والبحث العلمى [١] .

وغنى عن البيان أن أى باحث ، فى أى علم من العلوم ، لا غنى له عن نظرية توجهه فى جمعه للوقائع المتعلقة بالظاهرة التى يريد دراستها، وفى اختياره للفروض التى يريد أن يختبر صدقها ، وفى اختياره للمنهج وللأدوات التى سيستخدمها فى دراسته . وعليه ، يتخبط الباحث فى جمعه لمعطياته فى غياب النظرية ، ويصعب عليه أن يحقق مستوى الفهم الدقيق للظاهرة ، أو يستطيع تفسيرها بما يضفى عليها معنى ودلالة ذات قيمة[٢] .

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، مصدر سابق ، صفحات ١٣ــ١٥ .

(٢) أحمد النكلاوى : " علم الاجتماع وقضايا التخلف " ، الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

وإذا كانت النظرية تعد أرقى صور المعرفة العلمية ، فإنها تشتق طبيعتها من العلم كنسق إدراكى . ويعد العلم هو المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التى تم التوصل إليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج بعينه . ومن ثم فإن المعرفة تعد ذات طبيعة تراكمية تمكن الإنسان من التعامل بكفاءة مع الكون الذى يحيط به .

وتتميز المعرفة العلمية بالخصائص التالية :

١ـ **نسبية المعرفة** : فالعلم لا يعرف ما يسمى بالحقيقة المطلقة ، لأن القضايا التى تجرد عن واقع معين لا تصلح لواقع آخر ، ومعنى ذلك أنها ذات ارتباط مباشر بالواقع باعتباره هدفها . وتعد المعرفة من هذا المنطلق نسقا مفتوحا على عكس الأنساق المنطقية المغلقة ، كما أنها تعد وحدها القادرة على استيعاب متغيرات الواقع المتنوعة والمتجددة .

٢ـ **موضوعية المعرفة** : أى اعتمادها على التحديد والقياس الذى يوفر لها فرصة البعد عن التحيز الذاتى .

٣ـ **تراكمية المعرفة** : إذ تعد أكثر الأنساق الفكرية إتاحة للتراكم بما تقدمه من جديد باستمرار لمتابعة متغيرات الواقع المتنوعة .

٤ـ **حتمية المعرفة العلمية** : بمعنى أن إدراك الواقعة أو الظاهرة يتعين أن يقع من خلال العلاقات السببية لمكوناتها . وهنا تشير الحتمية إلى الحتمية السببية التى تقول بضرورة البحث عن مسببات الظاهرة فى الواقع، أيا كان نوع هذه الظاهرة .

٥ـ خارجية المعرفة : أى إدراك الواقعة أو الظاهرة من خلال مؤشراتها

الخارجية المرئية ، وإن كان إدراكها من خـــلال مؤشـــراتها الداخليـــة أمرا مطلوبا فى نفس الوقت [١] .

وتعد المعرفة العلمية بوجه عام نتاج مباشر لمـــا أسـهم بـــه جـــهد الإنسان من صياغة لتصورات معينة للمداخل التى يمكـــن أن يجـــرى مـــن خلالها السيطرة على الكون والسعي نحو التحرر من قبضتـــه . ولقـــد كـــان سعى الإنسان لبناء تلك التصورات فى صورة هياكل أو مِنظومـــات معرفيـــة نظرية محددة الأساس الذى شكل عقله على مر التاريخ ، وجعله يسعى إلـــى اكتشاف السبل للإفادة من تراكم خبراته وتجاربه للإفادة من الكـــون المحيـــط به ، الطبيعى والاجتماعى ، ودفع ضرره فى نفـــس الوقـــت . وقـــد أشـــار "فرنسيس بيكون " فى هذا الصدد إلى أن سطوة الإنسان تتمثـــل فـــى العلـــم الذى أنتجه ونظرياته التى تعبر عنه والمعرفـــة التـــى طورهـــا ، فالإنســـان يستطيع ــ كما يرى " بيكون " ــ أن يحقق ما يريد بمقدار ما يعرف .

وقد أدى استخدام الإنسان ــ فى مرحلة من مراحل تطـــوره ــ يـــده للتحرر من سيطرة الطبيعة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الاعتماد على الآلـــة ثـــم العلم، إلى تفتح آفاق المعرفة بكل ألوانها وأنواعها أمامه سواء كانت معرفـــة لاهوتية أو معرفة فنية أم معرفة اجتماعية أم معرفة تكنولوجيـــة وتقنيـــة أم معرفة علمية ... الخ . ومن ثم تفتحت له أيضا أبواب السطوة ليـــس فقـــط على الطبيعة بل وعلى المجتمع أيضا . وهكذا أتيح للإنسان أن يتحـــرر مـــن قبضة الطبيعة والمجتمع بالكشف المستمر عن المزيد من المعرفـــة والمزيـــد من قوانين الطبيعة والمجتمع .

---

(١) على ليلة ، مصدر سابق ، صفحات ١٩ــ٢١ .

ولقد أطلق " كانط " على عالم الفكر أو عالم المعرفة " عالم الحرية" ، وليست الحرية هى مجرد قدرة الإنسان على التحرر من سيطرة قوانين الطبيعة بالتوصل إلى القوانين التى تحد من تأثير قوانين الطبيعة عليه، إنما القدرة على الإدراك المعرفى للواقع الحسى الذى يتجه إليه الفكر ليعرفه به ، ومن ثم اعتبر البحث عن وسيلة المعرفة والتى هى العقل المبحث المحورى فى عملية البحث .

وترتبط المعرفة على النحو المتقدم بالوسيلة أو الأداة ، أى الأساليب والمناهج المختلفة التى نتخذها فى إدراك الواقع والوعى بمتغيراته وإدراك مطالبه وتحدياته (١) . ومعنى ذلك أن ارتباط المعرفة بالوسيلة يعنى حضور إطار ونمط التفكير العلمى والذى لولاه لما شهدنا متغيرات العلم والتكنولوجيا القائمة اليوم ؛ بحيث يمكن القول أن التفكير العلمى يمثل الشرارة الأولى التى ولدت متغيرات العلم ومنجزاته المعاصرة .

ويعد التفكير العلمى الوسيلة الرئيسية لفهم المشكلات وحلها والتنبؤ بآثارها وتطوراتها . ويصبح التفكير العلمى بمقتضى تصوره وسيلة لفهم وحل المشكلات بل والتنبؤ بها ، يصبح خاضع للتطور الذى يعتمد على مدى تأثره واستفادته بما يحدث فى عالم التكنولوجيا من تطويرات.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن التغييرات المؤثرة فى كفاءة عمليات التفكير العلمى حدثت بفعل ثلاثة أنواع من التكنولوجيات هى :

---

(١) أحمد النكلاوى : " طرق البحث الاجتماعى " ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٢، صفحات ٣١-٣٣

١ـ تكنولوجيات الحاسب الآلى .

٢ـ تكنولوجيات المعلوماتية ، حيث يتاح الحصول على كافة أنواع المعلومات بشكل يكاد يكون فوريا ، وكذلك تركيب هذه المعلومات واختبارها بطريقة تؤدى إلى صنع معلومات جديدة .

٣ـ تكنولوجيات الإدارة .

وإذا كان اتباع التفكير العلمى يمثل ضرورة عامة ، فإنه يعد بالنسبة لبلدان العالم الثالث أمر وجوبى يتعين ممارسته بأقصى كفاءة ممكنة، الأمر الذى يحتاج استنهاض وتتضافر الجهود الفردية والمؤسسية فى كافة المنظمات ، حيث أن الأمر يرتبط فى هذه المجتمعات بمستقبل كفاءة استخدامنا للتفكير العلمى . ويفرض ذلك الأمر ضرورة التغلب على ما يمكن تسميته بالحجاب الحاجز ضد التفكير العلمى ، أى التغلب على عقبة السلطة والتسلط باعتبارها عنق الزجاجة التى تمثل مرحلة ما قبل التفكير العلمى للانطلاق إلى ممارسة التفكير العلمى ليتوالى التطور الإبداعى ونصل إلى مرحلة تجسيم التفكير العلمى فى تطبيقات الإنتاج والخدمات[١] .

(١) محمد رءوف حامد : " إدارة المعرفة ــ رؤية مستقبلية " ، سلسلة اقرأ ، العدد ٦٣٧ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٨ ، صفحات ٥٧ـ٦٠

ثانيا : العلاقة بين النظرية والبحث :

ـ الضرورات العلمية لقيام علم الاجتماع :

من الثابت أن الدعوة إلى قيام علم الاجتماع نبعت مما يجسده هذا العلم من منظور وطريقة محددة فى فهم الكون الاجتماعى وتحليل وتفسير قضاياه ووقائعه العديدة المتباينة . وتعد التساؤلات التى يثيرها هذا العلم على درجة بالغة من الأهمية بالنسبة لكل فرد من أفراد المجتمع الذين يسعون إلى الوقوف على إجابة شافية وحاسمة لعديد من التساؤلات من بينها : من نحن ؟ وكيف تتشكل أفعالنا ؟ وكيف تنمو مؤسساتنا ؟ وكيف نوجه حياتنا ؟ . ولا جدال أن علم الاجتماع يختلف فى طريقته فى رصد الوقائع والظواهر عن الطريقة التى يلجأ إليها الفرد العادى فى محاولته فهم الأشياء التى تسترعى انتباهه (١) .

فعلم الاجتماع يهتم بتحديد وفهم الأسباب الكامنة وراء الصور المختلفة لأفعال الأفراد وما يصدر عنهم من ردود أفعال تجاه المؤثرات العديدة التى تحيط بهم . ومن ثم فإن هذا العلم يركز على العوامل الدفينة التى تساعد على الإلمام بأبعاد الحياة البشرية داخل المجتمع وفهمها وتفسيرها ، حيث أن الأفراد يتصرفون داخل المجتمع تبعا لطباعهم وخصائصهم الشخصية وأخلاقياتهم وميراثهم واختياراتهم .

ومن ثم يحاول عالم الاجتماع أن ينبه الآخرين من المتخصصين فى العلوم السلوكية إلى الدور الذى يمارسه المجتمع فى تشكيل تصرفات

---

(١) Charon, Joel M (1992). Ten Questions A sociological Perspective Belmont California Wadsworth Inc PP 2-3

الأفراد باعتبارهم كائنات اجتماعية ، الأمر الذى يجعـــل مـــا يصـــدر عـــن الأفراد باعتبارهم أفرادا يختلف عما يصدر عنـــهم باعتبـــارهم جماعـــات أو كيانات اجتماعية . ويجد عالم الاجتماع نفسه مدفوعا إلى استقصاء الطريقـــة التى يسلك بها الفرد والأسباب التى تؤدى إلى إتيانه سلوكا بعينـــه . فـــهناك العديد من الظواهر وأنماط السلوك التـــى تســـتثيرنا جميعـــا وتقلـــق عـــالم الاجتماع كصور العنف وعدم العدالة والأوضـــاع اللاإنســـانية للعديـــد مـــن الفئات والحروب والقتل والاســـتغلال الجســـدى والاغتصـــاب والعنصريـــة والعرقية والسرقة والتحطيم ونهب الثروات وتعـــاطى المخـــدرات وغيرهـــا التى تجعل الأفراد يطرحون حولها العديد من التساؤلات ويريدون الوصـــول إلى إجابات بصددها ، ومن ذلك :

- لماذا تعرف حياتنا صورا للعزوف عن مساعدة الفقراء ؟
- لماذا نلاحظ صور اللامبالاة وعدم الانتماء والانسحاب مـــن المشـــاركة فى الحياة الاجتماعية ودعم الآخرين ؟ [١] .

ولا غرو أن تلك الصور تزعج علماء الاجتماع أكثر من غـــيرهم ، حيث يحملهم المجتمع مسئولية تقديم إجابات منطقية موضوعية دقيقـــة لـــها. وتختلف مداخل علماء الاجتماع التى يسلكونها فى دراسة هـــذه المشـــكلات عن الطرق والأساليب التى يلجأ إليها غيرهم من العلماء . فعلـــم الاجتمـــاع يجعلنا نطرح دائما العديد من التساؤلات عن خصـــائص المجتمعـــات التـــى تسودها تلك المشكلات أكثر من غيرها ، والأوضاع والظروف الاجتماعيـــة التى تفقد الفرد آدميته وإنسانيته بها ، والأسباب التى يرجـــع إليـــها انتشـــار

---

(١) Ibid, PP 3-4

الفقر والجريمة وغيرها من صور الانحراف بها ومن التساؤلات التي يطرحها علم الاجتماع فى هذا الصدد ، كيف يرتكب الأفراد صور السلوك الانحرافى ؟ ولماذا يقبلون على ارتكابها ؟ وما هى مواطن الضعف داخلهم التى تؤدى بهم إلى ارتكاب هذه الأشكال من صور السلوك غير المقبول؟[١] .

ويتوجه عالم الاجتماع منذ البداية فى دراسته لقضايا المجتمع ومشكلاته إلى البحث عن المتغيرات غير الظاهرة التى تؤدى إلى أنماط الأفعال التى تزعج كلا من الفرد والعالم معا . ولما كان عالم الاجتماع لا تشغله إلا قضايا المجتمع ، ومن ثم يصبح مسئولا عن تقديم الإجابات الشافية الدقيقة لها ، فإنه يكون مدفوعا باستمرار إلى محاولة فهم طبيعة المجتمع الذى يدرسه ويخالطه هو شخصيا ، إلى جانب اهتمامه بتقييم الآليات والأساليب المختلفة التى يلجأ إليها المجتمع لتوجيه سلوك الأفراد والتحكم فيه [٢] .

وإذا كانت انشغالات عالم الاجتماع بفهم وتفسير أنماط الأفعال التى تصدر عن البشر تبدو على النحو الذى أشرنا إليه غير شاملة إلا أنها رغم ذلك تعد مدخلا يدفع أجيال العلماء والباحثين الجدد إلى الانشغال بقضايا جديدة ومواصلة السير نحو الاهتمام بشئون مجتمعهم . وعليه ، فإن عالم الاجتماع باعتباره يجسد منظورا بعينه فى فهم المجتمع ، فإن ما يتعين الإشارة إليه أن الرغبة فى تقديم فهم دقيق لشئون الحياة داخل المجتمع

---

(١) أحمد النكلاوى : " علم الاجتماع : مدخل لدراسة المشكلات الاجتماعية " ، ١٩٨٤، طرابلس ، ليبيا ، مطابع جامعة الفاتح ، صفحات ٦٤ ـ ٦٨

(٢) Wallace Water (1993) Principles of Scientific Sociology Chicago Aldine Atherton P 59

رغبة كامنة لدى الإنسان بوجه عام باعتباره كائنا يعيش فوق أرض مجتمع من المجتمعات ، يستمد منه كينونته ككائن اجتماعى . فالإنسان يسعى بفطرته الاجتماعية إلى الإلمام بمعالم وظواهر الحياة التى تحيط به حتى يستطيع أن يسلك سلوكا اجتماعيا يحقق له القدرة على التكيف والاندماج مع المجتمع ومتطلباته وتوجهاته .

ومن ثم يمكن تقرير أن الدعوة إلى علم للمجتمع دعوة قديمة قدم الإنسان منذ بدء الحياة على كوكب الأرض ، ورغم ذلك فإن الإنسان فى هذه المراحل المبكرة لم يكن حاضرا فى ذهنه إقامة علم من العلوم ، فقد كان مدفوعا بغرائزه الطبيعية إلى التعرف على ما يجرى حوله ليتمكن من أن يوفر لنفسه الحياة الآمنة مع محيطه المادى والاجتماعى .

وإذا حاولنا أن نقفز إلى مرحلة الفلسفة اليونانية باعتبارها قدمت أولى طرز الفكر التى أرست بعد ذلك دعائم كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية ، فإن من المهم التأكيد على أن هذه الفلسفة رفضت التصورات الخيالية المعيارية فى النظر لشئون المجتمع ومحاولة لفهم ما يجرى داخله. ويعنى ذلك أنها رفضت أن يخضع فهم الحياة والظواهر وأحوال المجتمعات للتصورات والمعتقدات اليوتوبية والميتافيزيقية غير المنطقية . فقد نادت الفلسفية اليونانية بضرورة سيطرة العقل على التفكير المتعلق بشئون المجتمع ، ويعنى إعمال العقل لدى الفلسفة اليونانية استخدام منطق التفكير العقلى، مما أرسى بذور الدعوة إلى قيام علم لرصد شئون المجتمع البشرى، يوظف المشاهدة المنطقية للأشياء الواقعة . وقد ساعد على ذلك تقرير الفيلسوف اليونانى (أرسطو ٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق . م) فى مقولته أن الإنسان " كائن سياسى مدنى بطبعه " . ولقد كانت لتلك الرؤية تأثيرا بالغا فى كل المحاولات التى جرت بعد ذلك لفهم نشأة المجتمعات وتطورها

وقد استطاعت هذه المقولة أن ترسى بعد ذلك دعائم علم جديد هو علم الاجتماع اختص منذ مراحله الأولى بدراسة بناء المجتمع ووظائفه وتحولاته وما يترتب على ما يشهده من تغيرات أفرزت العديد من الظواهر المستجدة فرضت وجود أسلوبا بعينه فى دراستها ، ولم تتوقف آثار تلك الدعوة عند ذلك الحد حيث أرست فيما بعد الدعوة إلى أن تتوجه دراسة المجتمع لا إلى مجرد فهم الأوضاع والأحوال القائمة إنما إلى صياغة القواعد ووضع القوانين العامة التى تفسر وجود تلك الأوضاع وحركة المجتمعات ونتائجها أساسا [1] .

وعليه ، انشغل الإنسان بفطرته ـ كما أوضحنا فى موضع سابق ـ بكيفية أن يحقق لنفسه التوازن ـ داخل الجماعات التى كونها ـ بين حاجاته أو تطلعاته الذاتية وحاجات واقع الحياة داخلها . ومن ثم بدأ الإنسان يلقى على نفسه عددا من التساؤلات شكلت فى مجملها قضية الانشغال بالمجتمع . انشغل الإنسان بظاهرة الجماعة وأنماطها وما يسودها من أفكار إلى جانب انشغاله بالمسائل المادية . فقد أدرك بفطرته ان استمراره ككائن اجتماعى لا يتولد إلا من خلال تمسك الجماعة والاستجابة الرشيدة العقلانية لمواقف الحياة داخلها وما تفرضها عليه تلك المواقف والمستجدات من التزامات ومطالب .

ويمكن القول : أن الإنسان فى انشغاله بظواهر محيطه الاجتماعى وما أدى إليه وجوده من ترابطات وأشكال مكنه من صياغة بعض الاستخلاصات والمعارف التى ساعدته على تحقيق بعض الغايات الحياتية

---

(١) Collins Radall and Makowsky, Michael (199), The Discovery of Sociology N Y Random House PP 113-117

المباشرة . وقد تواصلت تلك المعارف منذ البدايات الأولى للتشكيلات البشرية مرورا بالحضارات القديمة والفلسفة اليونانية حتى اليوم . ورغم أن الفلسفة اليونانية يتبلور دورها بشكل بارز فى هذا النطاق ، إلا أنه من العسف تجاهل الفلسفات الشرقية السابقة على ظهور الفلسفة اليونانية فى إرساء أصول الحضارات والمدنيات التى خلفت تراثا فكريا زاخرا ارتبط فى بعض جوانبه بالحياة داخل المجتمع . وإذا كانت الإسهامات التى خلفتها الفلسفات الشرقية عكست فى مجملها تصورات الفرد وتصورات الحاكم ، ولم تنزع إلى تكوين رؤية معرفية متماسكة منظمة ومنطقية لشئون الكون الاجتماعى وصولا للتوصل إلى ما يحكم حركة الحياة من قوانين يمكن توظيفها فى فهم ما يحدث وما قد يقع مستقبلا ، فإنها تظل معلما لثراء الفكر الإنسانى ودوره فى التمهيد لقيام نمط التفكير العلمى الهادئ المنظم فى أمور الكون بالإجمال [1] .

ويعد ابن خلدون من أبرز العلامات التى أسهمت فى الدعوة إلى قيام علم لدراسة المجتمع منذ مرحلة مبكرة من مراحل الحضارة العربية والإسلامية . فقد قرر ابن خلدون ، فى مقدمته الشهيرة : " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " ، أن المجتمع يمثل حقيقة يجب أن تخضع للدراسة وأن علما جديدا يجب أن يقوم على دراسة هذا المجتمع . وأسمى ابن خلدون هذا العلم منذ زمن طويل بعلم " العمران البشرى " الذى اصطلح على تسميته اليوم بعلم الاجتماع . وقد حدد ابن خلدون غايات هذا العلم "علم العمران " فى الوقوف على ما يحدث بالمجتمع وما يقع داخله من

---

(١) أحمد النكلاوى : " مشكلات المجتمع المصرى " ، ١٩٨٦ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة. صفحة ١٢٧

ظواهر وعمليات وتشابكات والكشف عن الدعائم أو القواعد التى تحكم هـــده الظواهر وتؤدى إلى وقوعها . وعليه إذا أمكن الوصول إلى هـــده القواعـد يصبح بالإمكان التحكم فى سير الظواهر والسيطرة عليها .

ولقد انطلق ابن خلدون فى دعوته لعلم الاجتماع مـــن نظرتـه إلــى المجتمع باعتباره شيئا طبيعيا يخضع لقوانين عامة . وعليه كـــرس جـهوده كاملة من أجل بيان الأسس والقواعد التى يتسنى فى ضوئها تفسير وتحليـــل الظواهر والسعى إلى بيان المتغيرات المؤدية إلى نشــأة الظواهــر المحققــة لتماسك المجتمع أو تلك التى تصدعه وتفككه .

ويكاد يجمع المشتغلون بعلــم الاجتمــاع علــى أن مصطلــح علــم الاجتماع كعلم ظهر مع بداية القرن التاسع عشر ، ويرجعون ظـــهوره إلــى عدة اعتبارات أساسية أهمها :

- **الاعتبار الأول** : ظهور العديد من الأفكار والمبادئ والقيـم الجديـدة فـى بعض المجتمعات الأوروبية مع بدايات القرن التاسع عشر أثـــرت علـى نمط التفكير والتوجهات الفلسفية التى كانت سائدة ومسيطرة على فهم مــا يجرى فى المجتمع .

- **الاعتبار الثانى** : معايشة المجتمع فى هذه المرحلة لموجـــة مــر التغـير السريع أحدثت تأثيرات بالغة العمق فى بنيـــان الحيــاة داخـل المجتمـع الأوروبى على وجه الخصوص ، وأفضت إلى قيـــام فكـرة العلميــة أو المنظور العلمى ، أى النزوع إلى إعمال التفكــير العلمــى وأسســه فــى رصد قضايا المجتمع وفهمها والتحكم فيها .

وعليه فإن علم الاجتماع قام استجابة لأمرين :

ـ **الأمر الأول :** سيطرت أهمية العلم ولغة المنطق والعقل في تفسير ما يجرى من أفكار وأحداث داخل المجتمع .

ـ **الأمر الثانى :** التغيرات والتحولات التى شهدها المجتمع الأوروبى وتركت بصمات بالغة الحدة عليه .

وإذا كانت فكرة العقلانية أو العلمية تمثل نقطة الارتكاز الأساسية فى الفكر الفلسفى بوجه علم ، وأن كثيرا من العلوم الطبيعية حققت تقدمها بفضل هذا الأساس ، فإن التحولات والتبدلات التى أثرت على العالم وبالتالى على الفلاسفة والمفكرين ـ الذين يهتمون بقضايا المجتمع ـ لعبت دورا بالغا فى قيام الدعوة لعلم الاجتماع [1] .

ومن ثم يعد ظهور علم الاجتماع كعلم للمجتمع تلخيصا ونتاجا لقيم الفكر العقلانى من ناحية ، ولآثار التحولات والتغيرات السريعة المتلاحقة الهائلة التى شهدتها أوروبا مع بدايات العصور الحديثة وبخاصة مع مطلع القرن التاسع عشر من ناحية أخرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن فكرة قيام علم الاجتماع تستند إلى ثلاثة ركائز أساسية :

الركيزة الأولى :

تتمثل فى الإجماع على أن هنالك كلية بشرية تسمى المجتمع الذى

(١) Charon Joel M op cit PP 9-11

يختلف فى بنائه والعقلية التى تحكمه عن مجموع أفراده الذيـــن يشـــكلونه ، كما أشار إلى ذلك " أميل دور كايم " فى كتابه الـــذى وضعـــه عـــام ١٨٩٥ بعنوان : " قواعد المنهج فى علم الاجتماع " ، حيث أشار إلى هذه الحقيقة.

الركيزة الثانية :

تتمثل فى أن العمليات التى تقع داخل المجتمع ليست بالعمليات التـــى يمكن فهمها أو استيعابها بســـهولة أو إجـــلاء الغمـــوض الـــذى يكتنفـــها ، ويستدعى ذلك الكشف عن أسبابها والعوامل التى تؤدى إلى حدوثها .

الركيزة الثالثة :

وتتحدد تلك الركيزة فى أن المجتمع يمكن فهمه ودراسته باســـتخدام المناهج التى تطبقها العلوم المختلفة ، بمعنـــى أن ظواهـــر المجتمـــع يمكـــن دراستها وفهمها بتطبيق قواعد المنهج العلمى عليها [١] .

وإذا كان لنا أن نتساءل فى هذا المجال عن الأسباب التى أدت إلـــى التسليم بوجود وحدة أو كلية اجتماعية تختلف عن مجمـــوع الأفـــراد الذيـــن يشكلونها ، فإن الإجابة على هذا التساؤل يمكن العودة به إلى مدخـــل القـــرن التاسع عشر الذى شهد آثار الثـــورة الصناعيـــة والسياســـية التـــى عاشـــتها أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر وأدت إلى تحرير الفـــرد مـــن العبوديـــة للتقاليد والأفكار والقيم العتيقة التى قادته إلى تقديـــم تفســـيرات ميتافيزيقيـــة غير مقبولة للحياة . ومن ثم كان لابد أن نتوقع قيام علـــم للمجتمـــع يـــدرس الأفراد ككيانات اجتماعية لها خصائصها المحددة البعيدة عـــن الخصـــائص

---

(١) Miller Elbertc (1977) Handbook of Research Design and Social Measurement, N Y , Longman, P 24

الذاتية للأفراد الذين يكونونها [١] .

ومهما يكن من أمر ما أسهمت به الثورتين الصناعية والسياسية من إحداث آثار بارزة أدت فى النهاية إلى قيام ما يمكن أن يسمى بالمجتمعات الضخمة أو الجماهيرية ، فإن تلك الثورتين جعلت الأفراد يعرفون نمطا جديدا من الحياة عليهم التفاعل معه ، حيث بدأت تتشكل مؤسسات وشرائح اجتماعية جديدة تلتقى مع أهداف الثورة الصناعية ومبادئ الثورة الفكرية السياسية فى نفس الوقت .

فقد نظرت الثورة الفرنسية ـ على سبيل المثال ـ إلى الأفراد باعتبارهم موطنون متساوون فيما بينهم أمام القانون ورفضت مبدأ التمييز بين الأفراد على أساس العرف أو الدين أو تبعا لانتماءاتهم الاجتماعية ومعتقداتهم . فى ظل هذه الأطر الفكرية الجديدة توجه المثقفون والمستنيرون إلى رصد ما يجرى على الأرض من تحولات اقتصادية وسياسية واجتماعية متلاحقة بأسلوب علمى للكشف عن المبادئ التى تحكم هذه التحولات والقواعد التى تخضع لها فى وقوعها والتحكم فى سيرها لما يخدم الإنسان [٢] .

وقد أعطى ذلك المبرر لقيام علم خاص بالمجتمع ، حيث ساعدت مبادئ الثورة الفرنسية الأفراد على التحرر من سيطرة عقلية الفرد وقهر قيم الثقافات البالية العتيقة التى جمدت العقل وحدت من إبداعاته وقدراته

---

(١) Cole, Stephen (1973) The Sociological Method, N Y , Rand Mcnally College Publishing Co , PP 1-2

(٢) Easthope, Gary (1984) A History of Social Research Methods, N Y Longman Group Limited. PP 4-11

الخلاقة المتواصلة . من ثم كانت غاية المثقفين من إنشاء علم للمجتمع تفسير العالم الاجتماعى الجديد الذى أصبح يحيط بهم ويتمكنون ـ فى نفس الوقت ـ من التنبؤ بمستقبله والآثار التى يمكن أن تقع نتيجة لما يشهده من موجات التجديد والتحديث المتلاحقة .

وبذلك يمكن القول أن الإيمان بهذا العلم كان وليد لدعوة كل من الحدثين العالميين التاريخيين ، الثورة الفكرية والسياسية من ناحية ، والثورة الصناعية والتكنولوجية من ناحية أخرى إلى التخلص من سيطرة سلطة الفرد وقهره من ناحية ، وسلطة الترهات والخرافات والقيم الجامدة المتوارثة والركون إلى سلطة العقل الجمعى المستنير الذى يحتكم إلى منطق العلم وقواعده وقوانينه .

وإذا كنا قد سلمنا ـ فيما تقدم ـ بأن علم الاجتماع ظهر نتيجة الارتباط والتلازم بين قضيتى العلمية وقضية التغييرات والتحولات التى شهدها المجتمع مع بداية القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ، فإن هاتين القضيتين أجابتا مجتمعتين على التساؤل الذى يطرح نفسه ويتمثل فيما هو السبب الذى أدى إلى تحول المستنيرين إلى لغة العلم لتفسير ما أفرزه ذلك العالم الاجتماعى الجديد الذى أحاط بهم من ظواهر ، والإمساك بالمتغيرات أو العوامل غير الظاهرة أى الكامنة وراء تلك التحولات الشديدة ، والوقوف على مدى انتظاميتها والأنماط والصور التى تتشكل فيها لإمكان التنبؤ بها .

إلا أن الرعيل الأول من علماء المجتمع لم يكونوا ـ فى رصدهم لتلك التحولات والتغيرات ـ مستندين فى بداية الأمر إلى مفهوم علم الاجتماع كعلم للمجتمع ، حيث لم يكن هذا العلم فى بداية أمره قد استقر

بعد ، ويواجه موجات عديدة من الهجوم ، حاولت أن تقلل من شـــأنه كعلـم يحاكى العلوم الأخرى فى طرائقها . فلم تكن مفهومات علـم الاجتمـاع قـد استقرت فى هذه المرحلة المبكرة على النحـو الـذى يجعـل منـها قضايـا خالصة يختص بها علم مستقل ، ذلك أن العلم فى المحل الأول ليس مجـــرد مجموعةً مفهومات أو قضايا ، إذ هو فـــى الأســاس طريقــة للتحقــق مــن القضايا والتأكد من صدقها .

وانطلاقا من هذا الأساس فإن فكرة علـم الاجتمـاع كعلـم تسـتمد جوهرها أصلا من كونه طريقة للتحقق من القضايا ، وإعمال لغـة المنطـق والبرهان العقلى الذى ينظر إليه عادة باعتباره شـقيق للعلـم . ولقـد كـان الفضل فى دعم هذا التوجه ما أنجزته العلـوم الطبيعيـة مـن تقـدم حيـث اعتبرت تلك العلوم نموذجا يحتذى به فى التأمل المتعمق والتنبـؤ الصـائب بالأشياء .

ويمكن أن نضيف إلى تلك المتغيرات التى دعت إلى توظيـف لغـة العلم فى رصد شئون المجتمع متغيرا أساسيا يتمثل فى تهاوى الـدور الـذى مارسته التوجهات التقليدية التيولوجية المتوارثة التى ظلت ، لفـترة طويلـة، تفرض سيطرتها على عملية التفسير ، الأمر الـذى دفـع المسـتنيرين مـن العلماء والمهتمين بقضايا المجتمع إلى تبنى المدخـل العلمـى فـى التحليـل والتفسير. فقد أثبتت التجربة أن تلك التوجـهات العتيقـة المتوارثـة بقيمـها المغلة للعقل عجزت عن أن تكون الأساس الـذى يمكـن المسـتنيرين مـن إدراك الدعائم والأسس التى تسير حياتهم .

فلم تعد التوجهات الإنسـانية صالحـة لمجتمعاتنـا التـى تتقاذفـها التيارات والتحولات السياسية والاقتصادية العاتية ، التى تفـرز يومـا بعـد

يوم الجديد من النتائج والآثار التى تتطلب رصدا وتفسيرا منطقيا وعلميا وليس تفسيرا يستند إلى التصورات التيولوجية والميتافيزيقية أو القيم التى تفرضها سلطة الفرد . ولقد استطاعت التطورات الفكرية والسياسية التى عرفها العالم مؤخرا أن تضعف من دور تلك التصورات الخيالية والفردية وتحل محلها سلطة كيان جديد هو المجتمع أو سلطة المجتمع التى أسماها "دور كايم " " بسلطة العقل الجمعى " . ولم تؤد تلك التغيرات فى الواقع إلى مجرد ظهور الدعوة إلى قيام علم المجتمع ، بل أدت فى نفس الوقت إلى قيام طرق جديدة يوظفها سبقته إليها العلوم الطبيعية . وعليه ، يتسنى القول أن مناهج علم الاجتماع قامت لتحقيق القدرة على فهم وتفسير التحولات والتغيرات ، والتحكم فى آثارها وقيام مجتمع تفسر فيه الوقائع بالاستناد إلى مناهج العلم وليس إلى مجرد التصورات والأفكار المثالية التى حفل بها تاريخ التفكير فى المجتمع [١] .

البرهان وعلم الاجتماع :

ومن ثم فإن علم الاجتماع ليس مجرد مجموعة من القضايا والمفهومات يسعى الباحث إلى الكشف عن ارتباطاتها أو تقديم تفسير لها فحسب ، إنما هو طريقة للبرهنة على مدى صدق القضايا وقدرتها على إثبات وجودها وتأثيرها فى الوسط الاجتماعى الذى يحياه الأفراد . وعليه، فإن علم الاجتماع فى تصديه للقضايا التى يتناولها كموضوع للبحث يسعى إلى تحقيق مستوى من القدرة على التنبؤ بآثارها ونتائجها وحركتها فى نفس الوقت.

---

(١) Ibid, P 12.

ومن الجدير بالذكر أنه نظرا لارتباط القضايا التى ينشغل بها علم الاجتماع بالإنسان ، فإن القدرة على الوصول إلى استنتاجات حاسمة بشأنها من الأمور التى تتطلب توظيف نظريات العلم ومناهجه . وقد دفع ذلك المستنيرين من أفراد المجتمع إلى التأكيد على ضرورة توظيف علم الاجتماع باعتباره منظومة متكاملة من النظريات والمناهج والطرق التى تمكن من الوصول إلى شكل من أشكال التعميمات التى استطاعت العلوم الطبيعية أن تنجزها منذ زمن ليس بالقليل . من هنا تبرز صعوبة هذا العلم وتحديات صياغة الاستنتاجات العامة فيه ، نظرا للطبيعة المركبة لمسائله وموضوعاته ، ومن ثم ازدادت الحاجة إلى وجود علم اجتماعى يحاكى نظرائه من العلوم الأخرى فى أساليبه ومداخله ومنظوراته العلمية التى لا تسعى إلى مجرد تقديم الدليل أو البرهان المنطقى أو العقلى فحسب ، إنما إلى تقديم الدليل المشاهد أو البرهنة خلال التجربة بحيث نستطيع الوصول إلى نتائج يقبلها المنطق والعقل .

ومن هنا فإن الدعوة إلى التأكيد على المعالم الأساسية لعلمية علم الاجتماع ستظل فى تقديرنا قائمة مادامت هناك جهودا تبذل من أجل أن يواكب علم الاجتماع العلوم الطبيعية الأخرى من حيث ما أنجزته من تطور فى أساليبها المنهجية يضمن لها الإجابة الموضوعية الدقيقة على التساؤلات التى تتصدى لها .

العلاقة التبادلية بين النظرية والبحث :

وتتجلى المعالم الأساسية لعلمية علم الاجتماع فى العلاقة المتبادلة والتفاعلية بين قطبى أو عنصرى العلم الأساسيين وهما النظرية من ناحية والبحث من ناحية أخرى .

ومؤدى ذلك أن العلاقة بين النظرية والبحث لا تسير فى اتجاه واحد من النظرية إلى البحث ، ومن البحث إلى النظرية ، وإنما تسير فى اتجاهين متقابلين .

*** وتتجلى علاقة النظرية فى اتجاه البحث فى عدة وجوه أهمها ما يلى:**

١ـ تحدد النظرية مسار واتجاه البحث وتوجهه نحو تناول الموضوعات التى يحتمل أن تكون أكثر ثمارا من غيرها من الموضوعات التى اعتاد البحث فى نفس مجال النظرية أن يطرقها .

٢ـ تسهل النظرية عملية فهم النتائج التى يصل إليها البحث باعتبارها هى التى وجهت الباحث إلى الموضوع الذى يدرسه وحددت له مسلكه ومن ثم يكون تفسير ما توصل إليه الباحث من معطيات ميدانية فى ضوء تصورات النظرية والعلاقات القائمة بين قضاياها . ومن ثم تكون النظرية بالنسبة للباحث إطاره المرجعى الأساسى فى التفسير .

٣ـ توجه النظرية الباحث إلى السياق الذى يتعين أن يجرى البحث فى نطاقه ؛ أى هى تمده بالقواعد والأسس التى يتعين عليه الالتزام بها والاتساق معها ، أو التى يجب أن تأخذ فى الاعتبار .

٤ـ توجه النظرية عملية جمع المعطيات وتحليلها بما تنطوى عليه من مفاهيم وتصورات . وتشير تلك المفاهيم والتصورات إلى المتغيرات التى يتعين ملاحظتها وجمعها ورؤية العلاقات القائمة فيما بينها . ومن ثم فإن النظرية تسهم فى توجيه عملية جمع المعطيات وتحليلها بدقة وإحكام مما يحول دون انحراف عملية جمع البيانات عن القضايا

والمتغيرات التى تمثل دعامة البحث .

* **وتتمثل علاقة البحث فى اتجاه النظرية فى عدد من الوجوه ،** خاصة وأن أثر البحث فى النظرية لا يقف عند مجرد التحقق من فروض النظرية واختبارها بل يتجاوزه ليحقق أربعة وظائف جوهرية تتمثل فى:

١ـ الإسهام فى تطوير النظرية ، وبخاصة إذا أمكن البحث إثبات صحة الفروض ، الأمر الذى يساعد على التحقق من بناء النظرية فى جملتها. أما إذا لم يتمكن البحث من البرهنة على صحة الفروض ، يصبح من الضرورى إعادة اختبار النظرية وتقييم مدى سلامتها أو إمكانية الاعتماد عليها. ومعنى ذلك أن البحث لا يسهم فقط فى التحقق من فروض النظرية إنما يسهم فى تطوير النظرية والواقع .

٢ـ الإسهام فى إعادة صياغة النظرية ، حيث يعمل البحث على إعادة صياغة النظرية وتوسيع نطاقها من خلال القيام بملاحظات متكررة للوقائع التى لم تكن متضمنة فى الإطار التصورى للنظرية وصولا إلى مدى إمكانية اعتبارها جزءا من الإطار التصورى للنظرية ، ومن ثم إمكانية توظيفها .

٣ـ الإسهام فى إعادة تحديد محور اهتمام النظرية . فقد يؤدى تطور أساليب البحث فى جمع الوقائع وتحليلها أن يتغير محور اهتمام النظرية ويتجه نحو موضوعات لم تكن فى متناول الباحث من قبل ، ومن ثم يصبح من الحتمى ضرورة توجه غايات البحث وأهدافه إلى غايات جديدة مختلفة تتسق مع طبيعة المتغيرات التى أصبحت محورا مغايرا للأخرى التى كانت تدور حولها النظرية .

٤ـ إسهام البحث فى توضيح مفاهيم النظرية ، ويتحقق إسهام البحث فى توضيح مفاهيم النظرية عن طريق ما يسهم به البحث من التوصل إلى مؤشرات للمتغيرات الذى يعنى البحث بتناولها . وتمكن هذه المؤشرات من ملاحظة ودراسة المتغيرات على نحو دقيق وواضح[١].

ثالثا : العلاقة بين النظرية والبحث فى علم الاجتماع :

لا تختلف أدوار أو وظائف النظرية العلمية فى مجالات البحث العلمية المتصلة بظواهر الكون الفيزيقى والحيوى .. الخ عن تلك التى تؤديها النظرية السسيولوجية فى مجال تناول ظواهر الكون الاجتماعى الإنسانى . وتتعدد وظائف النظرية فى البحث فى علم الاجتماع ، حيث تبدأ أدوارها من مساعدة الباحثين على رؤية واختيار القضايا والمشكلات التى تصلح أو تستأهل المعالجة والبحث ، والتنبه للجوانب المختلفة فى هذه القضايا التى تتطلب تأملا ورصدا دقيقا ، أى تتطلب أخذها فى الاعتبار وعدم إهمالها لحيويتها التأثيرية المشاهدة أو المتوقعة .

وتواصل النظرية أدوارها بالنسبة للبحث فى علم الاجتماع ، حيث تساعد الباحث فى انتقاء فروضه وتساؤلاته والتعرف على المناهج والأساليب الأكثر ملاءمة واتساقا فى جمع البيانات ، وتتصاعد أدوار النظرية بعد ذلك حيث تقوم بدور الإطار المرجعى الذى يوظفه الباحث ويستخدمه فى الرجوع إليه عند وصف الظاهرة أو المشكلة التى يقوم بدراستها من ناحية ، وعند محاولة تفسير دلالة المعطيات التى توفرت لديه خلال عملية جمع البيانات ، ورصد العلاقات التى تربط بين متغيراتها.

---

(١) على جلبى ، مصدر سابق ، صفحات ١٤٩ ـ ١٧٠ .

وإذا كان البحث ومعطياته يبدو عقيما وخاويا من القيمة إذا انفصل أو جرى فى غياب من نظرية محددة يتبنى الباحث قضاياها ويوظفها لخدمة أهداف بحثه ، فإن نظرية بلا بحث يدعمها ويجدد أطرها ويختبر مقولاتها ويطور أدواتها تبدو جهدا بشريا خاويا وعقيما بدوره . ومن ثم فإن العلاقة التفاعلية والتبادلية بين طرفيهما ـ " النظرية ـ البحث السسيولوجى " ـ تصبح علاقة وظيفية تأسيسية تساعد كلاهما على النمو والتجدد [١] .

وانطلاقا من نمط هذه العلاقة الوظيفية والتأسيسية بين النظرية والبحث فى علم الاجتماع ، يصبح أمر البحث السسيولوجى سهلا ويسيرا لو توفرت لقيادته خريطة فكرية محددة . وتعرف الخرائط الفكرية السسيولوجية بالنظريات السسيولوجية (نظريات علم الاجتماع) . ومن ثم تعد النظرية نوعا من أنواع الخرائط ، إذ هى تعد بمثابة الخريطة التى توجه الباحث إلى الاهتمام بالموضوعات والقضايا السسيولوجية . ولا يعنى أن النظرية تلعب دور المرشد و الدليل للباحث أن عليها أن تجيب بالضرورة على ما يعن للباحث من أسئلة ، أو أن عليها أن تبين له كل خطوة من خطوات البحث ، إذ أنها تقوم بتوجيه الباحث إلى مسلك عام وتبين له المشكلات التى يجب أن يتعامل معها ويتصدى لها فى أخذه بهذا المسلك الفكرى أو المعرفى التى تقول به النظرية ، كما ترشده إلى الحلول الممكنة لهذه المشكلات .

ويوظف علماء الاجتماع النظريات السسيولوجية لتنظيم وتوجيه بحوثهم لتحقيق غاياتهم البحثية التى ترتبط إلى حد بعيد بغايات الفهم

---

(١) محمد عبد الغنى ، مصدر سابق ، صفحات ٢٠ـ٢١

والتفسير والتحكم والقدرة على التنبؤ ووضع إجابات حاسمة لصـــور تداخـــل المعلومات واضطرابها وتناقضها فى بعض الأحيان ، ولا جدال أن البـــاحث يستطيع من خلال توظيفه للنظريات التى يتبناها إنما يـــهدف إلـــى الكشـــف عما توصل إليه من نتائج ، وكيف أمكنـــه أن يتوصـــل إليـــها والمتغـــيرات والأوضاع التى أحاطت بعملية التوصل إلى ما انتهى إليه من نتائج .

وإذا كانت خرائط النظرية فى علم الاجتمـــاع أســـهم فـــى وضعـــها الباحثون الذين انشغلوا بعمليات البحث والاستقصاء والكشف ، فـــإن أهميـــة أو قيمة تلك الخرائط تتوقف على ما يتمتـــع بـــه واضعـــها مـــن دقـــة فـــى صياغتها وتوجهاته والأهداف التى يبتغيها من ورائها .

ومن الجلى أن الخرائط (النظريات) السسيولوجية تتباين مـــن حيـــث مدى ما تلقاه كل منها من تقدير . وكلما كانت النظرية متماسكة العنـــاصر ، محددة بدقة للمتغـــيرات الحيويـــة لموضـــوع البحـــث ، والمبينـــة لأنمـــاط الجماعات وصور الأفعال التى قد يقابلها الباحث ، كلما كـــانت أكـــثر وزنـــا وأهمية بالمقارنة بغيرها .

ورغم أن النظرية فى علم الاجتماع ، تعد دليلا فاعلا للبـــاحث فـــى دراسته لجانب من جوانب الحيـــاة الاجتماعيـــة ، فإنـــها تتعـــرض لتـــأثير التحولات والتبدلات التى يتعرض لها المجتمع وتـــؤدى ــ بدورهـــا ــ إلـــى تقويض الركائز التى قامت عليها النظرية أصلا وتضعف أهدافـــها ، الأمـــر الذى يفقدها قيمتها وجدواها . فالنظريات التى وضعـــت حـــول الجماعـــات والطبقات الاجتماعية التى كانت قائمة فى بداية عصر التصنيع فى القرنيـــن السابع عشر والثامن عشر ، لم تعد ذات فائدة أو قيمة فـــى توجيـــه البحـــث السسيولوجى الذى يتناول المجتمعات الصناعية المعاصرة . وينطبـــق ذلـــك

على الخرائط النظرية التى ربطت بين مكانة الأسرة والوضع المهنى لـرب الأسرة ، وهى النظريات التى تعجز بدورها عن توجيه البحث السسيولوجى المعاصر فى ميدان الأسرة التى تعايش اليوم ظاهرة المرأة العاملة وازدواج الوظيفة أو المهنة .

ويتضح مما تقدم ، أن قيمة وجدوى النظرية فى عملية البحث فى علم الاجتماع مسألة نسبية تتوقف على مدى مواكبتها أو قدرتها على أن توائم نفسها مع المتغيرات التى تفرض نفسها على ساحة البحث فى المجال الذى تتناوله النظرية . فعلى سبيل المثال : أن النظرية التى وضعت لفهم الصراع السياسى فى مجتمع من المجتمعات لا يكون لها جدوى أو فائدة فى بحث من شأنه أن يسعى للوقوف على كيفية تعلم الطفل قواعد وآداب السلوك الاجتماعى . ولا يصبح للنظريات التى تتشغل بقضايا الصراع الصناعى جدوى فى دراسة مجتمع يدور الصراع فيه بين الصفوات والعرقيات والأقليات .

ولا تختلف النظريات فيما بينها من حيث مجرد دقتها ، بل من حيث قدرتها على بسط الحقائق وتبسيطها أمام الباحث ، وبخاصة من حيث قدرتها على بيان ما يتعين الاهتمام به وما يتعين أيضا تركه أو إسقاطه من حيز الاهتمام بالحقيقة . وتغدو النظرية ، شأنها فى ذلك شأن المنهج ، جيدة إذا كانت ملاءمة ومتسقة مع الموضوع الذى يتصدى له الباحث . وعليه ، نتوقع اختلاف وتباين الخرائط النظرية لعلم الاجتماع بتباين الموضوعات التى يتناولها الباحثون (١) .

---

(١) David Michael Orenstein : op. cit., PP. 50-51.

ومن أبرز الأدوار الأساسية المثمرة للنظرية في مجال البحث العلمى الاجتماعى دورها فيما تقدمه من مساعدة فى بلورة فروض البحث. ومن الثابت أن الفرض فى علم الاجتماع يعد نمطا بعينه من أنماط القضايا، أى هو يعبر عنها ويترجمها ، هو بمثابة عبارة تقريرية تتناول جانبا أو قطاعا من الحياة الاجتماعية يكون محلا للاختبار أو التحقق الامبريقى منه . وتختبر الفروض عن طريق استخدام طريقة أو أكثر من طرق البحث العلمية . وكلما كان الفرض مشتقا أو مستنبطا من نظرية خضعت للتدقيق البحثى العلمى ، كلما كان ذلك دالة على أهمية النظرية ودورها الإثرائى للباحث .

ويقدم العلامة الفرنسى " اميل دور كايم " مثالا لاشتقاق الفرض من النظرية ، فقد قام فى دراسته الإحصائية لظاهرة الانتحار باختبار فرضية تذهب إلى وجود علاقة بين ازدياد حالة سوء التنظيم الاجتماعى فى المجتمع وبين ازدياد معدل الانتحار فى مثل هذا المجتمع . وقد استقى "دور كايم " ذلك الفرض من خلال الإلمام النظرى الموسوعى بالتراث العلمى المتصل بالظاهرة ، ومن خلال وعيه بالكيفية التى قامت بها المجتمعات وتكونت . ولقد لاقت نظرية " دور كايم " التى اعتبرها تصلح لكل المجتمعات قبولا من جانب علماء الاجتماع ، ومن ثم تبلور الاهتمام بنظرياته التى وضعها عن التربية والأخلاق والتنظيم الاجتماعى ...الخ.

وعليه ، فإن النظرية فى علم الاجتماع تساعد باحثيه على وضع وبناء فرضياتهم التى يساعد اختبارها وتعيين مدى الصدق فيها على زيادة إدراكنا وفهمنا للعالم الاجتماعى المحيط بنا . ومؤدى ذلك أن على الباحث الذى ينشغل بقضية اجتماعية من قضايا المجتمع أن يكون واقفا على أنسب

النظريات بالنسبة للقضية التى يدرسها ، أى أن يكون على وعـــــى بخرائــط التنظير السسيولوجى المعاصرة التى تكفل له قيادة وتوجيه بحثه [١] .

(١) Ibid, P. 57.

الفصل الثالث

التنظير في علم الاجتماع

الفصل الثالث

التنظير فى علم الاجتماع

يتكون هذا الفصل من ثلاثة موضوعات متدرجة تدرجـــاً منطقيــاً ، حيث أن تناول التنظير فى علم الاجتماع بصورة مباشــرة دون التمــهيد لــه ببيان أهمية التنظير أو النظرية فى علم الاجتماع على وجــه التحديــد مــن شأنه أن يجعل عملية التفاعل مع قضية النظرية فى علــم الاجتمــاع عمليــة صعبة وشاقة من الناحية التعليمية على وجه الخصوص . حيــث أن هضــم قضية من القضايا أى القدرة على استيعاب واستحلاب أفكارهــا الأساســية ، ومن ثم استخدامها أو وضعها موضع الاعتبار من العمل العلمى يتحقق بعــد أن يكون المتلقى قد استطاع أن يتفهم ضرورتــها وأهميتــها بالنسـبة لــه ، وعند هذه المرحلة يصبح الفرد جاهزاً بل ومتطلعاً للتعرف علـــى مــا هــو أكثر من أهميتها وضرورتها فيغنيه الوقـــوف علـــى المحــاولات المبكــرة للتنظير فى هذا العلم والرحلة التى قطعتها تلــك المحــاولات حتــى بلغــت وضعها الحاضر من وجود أنماط محـــددة مــن خرائــط التنظــير تشــكل منطلقات وركائز علم الاجتماع المعاصر فى سعيه لتحقيــق الفــهم لقضايــا العالم الاجتماعى المحيط بنا وتفسير مراحل وأســباب تشـكلها واتجاهاتــها وأبعادها القائمة والمتوقعة .

وعليه ، سوف نناقش فيما يلى المحاور أو العناصر الآتية :

أولا : أهمية التنظير فى علم الاجتماع .
ثانيا : المحاولات المبكرة للتنظير فى علم الاجتماع .
ثالثا : أنماط الخرائط النظرية فى علم الاجتماع .

أولاً : أهمية التنظير فى علم الاجتماع :

ترتبط معالجة أهمية التنظير (النظرية) فى علم الاجتماع فى إطار العديد من الأدبيات التى تناولت هذا الموضوع ببيان وظائف النظرية فى علم الاجتماع ، وبخاصة فيما يتصل بعملية البناء العلمى للبحث السسيولوجى. وعليه ، سوف نعنى فى هذا الإطار بالوقوف على وظائف النظرية فى علاقتها بالنسق الاجتماعى للمجتمع . وتنحصر الوظائف الرئيسية للنظرية فيما يلى :

١ـ تعد النظرية الإطار التصورى المشترك الذى يربط بين الباحثين فى مجال من المجالات ، الأمر الذى يساعد على إيجاد شكل من أشكال الاتصال والإفادة المتبادلة من النتائج التى يتوصلون إليها والتفسيرات التى يقدمونها ، فضلاً عن أنها تساعد على تنظيم المعارف التى يستنبطونها بحيث تبدو فى صورة أنساق نظرية تثرى معرفتنا بالعالم وتكملها .

٢ـ تساعد النظرية على اشتقاق الفروض الموجهة لعملية البحث. وكلما كانت النظرية من القوة والثراء ، كلما كانت قدرتها على تقديم العديد من التصورات والفروض التى تفيد الباحثين أكبر وأشمل ، وبالتالى يزداد التحامها بهدف بلوغ مرحلة القانون وبخاصة بعد مرور الفرض بسلسلة من الاختبارات والتجريب فى ظل مواقف وأحوال عديدة ومتعددة.

ومن الثابت أن وصف الواقع وتحليله من الوظائف الهامة للنظرية فى إطار العملية العلمية فى علم الاجتماع . ويجرى الوصف تبعاً

لمستويين:

الأول : وصف النسق فى ضوء عناصر الإطار التصورى للنظريـــة ، التـــى يجدها الباحث أو يرى فيها ملائمة للنسق الذى يدرسه .

الثانى : الوصف البنـــائى أو الاســـتاتيكى للنســـق ، أى وصـــف الوحـــدات الفرعية داخل النسق وبخاصة فى علاقاتها التساندية المتكاملة .

٣ـ تلعب النظرية دوراً محورياً وهاماً فى عملية التحليل الدينامى التى تعـــد قاعدة التقدم العلمى . ويقصد بالتحليل الدينامى محاولة الوقـــوف علـــى العمليات التفاعلية المتبادلة وحركتها القائمة بيـــن عنـــاصر النســـق أو الوحدة الاجتماعية المدروسة . ويجرى فى هذا النطـــاق العـــودة بكـــل عنصر إلى النسق العام للمجتمع الذى يضم الأنساق الفرعية .

٤ـ تتجلى أهمية التنظير فى علم الاجتماع من الدور الذى تؤديـــه النظريـــة فى عملية التفسير التى تستهدف إثبات وجود علاقة ما بيـــن متغـــيرين كالفقر والجريمة والرضى عن العمل وشروط العمل والأميـــة وزيـــادة النسل .. الخ.

٥ـ لا تقتصر أهمية التنظير فى علم الاجتماع علـــى الأدوار التـــى تؤديـــها فى البحث العلمى الاجتماعى ، إذ هى تساعد الباحث على التمكـــن مـــن التنبؤ بالمستقبل ، وتيســـر الدراســـات النظريـــة عمليـــة التيقـــن مـــن التصورات والافتراضات التى يفترض قدرتها على تفسير المســـتقبل أو التنبؤ به [١] .

---

(١) على ليلة ، مصدر سابق ، صفحات ٤٦ ــ ٤٩ .

وإذا كانت النظرية فى علم الاجتماع لا تختلف أدوارها ومهامها عن دور أى نظرية علمية أخرى ، كما عبرت عنها العناصر المتقدمة ، وبخاصة من حيث رسالتها فى إنماء العلم وتطويره وتحديد مساراته ، فإن للنظرية فى علم الاجتماع – بحكم خصوصية موضوعها الاجتماعى – لها أدواراً نوعية أخرى تضطلع بها وهى التى تجعل – على حد تعبير عبد الباسط عبد المعطى فى مؤلفه " النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع " (١٩٨٦) – لوجودها معنى ولعلم الاجتماع ضرورة بين غيره من العلوم . وتتجلى هذه الأدوار النوعية التى تكسب – بدورها – التنظير فى علم الاجتماع أهميته فى العناصر التالية :

أولا : تعد النظرية الاجتماعية الإطار الفكرى لعلم الاجتماع وبؤرة موضوعه وتصوراته . وينبثق هذا الدور من طبيعة الإنشغال الأساسى للنظرية الاجتماعية الذى يتمحور حول المسألة الاجتماعية التى تمثل جوهر الوجود أو العالم الاجتماعى ، ألا وهى مسألة التغير وما تفرزه من ظواهر وتشكله من اتجاهات وتفرضه من مطالب وتحديات . ولذا كان محور ولب النظرية الاجتماعية قضية التغير التى تشكل الإطار الفكرى العام لعلم الاجتماع . وينبثق عن هذا الإطار كل القضايا الفرعية الأخرى كقضايا الاستقرار والضبط والنظام .. إلى أخر ذلك من قضايا حفلت بها خرائط التنظير الصغرى فى علم الاجتماع .

ثانيا : تعد النظرية الاجتماعية المصدر الأساسى الذى يحدد الملامح النوعية لعلم الاجتماع ، ومن ثم هى التى تكسب العلم هويته . فعلم الاجتماع يعرف من خلال مجموع خرائطه التنظيرية ، هى التى تميزه عن غيره من مجالات العلوم الأخرى ، فضلا عن تعيينها توجهات العلم وقناعاته بالمتغيرات المسئولة ، أكثر من غيرها ، عن ما يعايشه

المجتمع من قضايا وهموم أساسية ، ومستوى ما بلغه علم الاجتماع من قدرة على الفهم والتفسير والتنبؤ .

ثالثاً : تحدد النظرية الاجتماعية ما هو اجتماعي ، وموقف العلماء والمتخصصين منه ومستواه . ولقد توزعت اهتمامات المنظرين بين رؤى مختلفة لما هو اجتماعي ، هل يشير إلى الوقائع الأكثر تواتراً واطراداً في المجتمع ، أى ما هو ضرورى للحفاظ على الإنسان ومجتمعه وحاجاته ، أم يشير إلى مجرد إسهام المتخصصين فى علم الاجتماع فى تنمية علمهم وتطويره نظرياً ومنهجياً . ومن الجلى أن النظرية الاجتماعية فى تحديدها لما هو اجتماعى قدمت مستوى ما هو عام وضرورى ومطرد وفقاً للمرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع .

رابعاً : تنبثق أهمية التنظير فى علم الاجتماع من الدور النقدى الذى تمارسه النظرية الاجتماعية للتوجهات النظرية التى تخرج عن نطاق الارتباط بما هو اجتماعى ، ومن ثم تمارس نوعاً من تزييف وعى المجتمع والباحثين بالقضايا والانشغالات الجوهرية التى يتعين أن يوجهوا إليها جهودهم فى هذا العلم .

ويقول " عبد الباسط عبد المعطى " فى هذا الصدد : " إن الجماهير تتوقع من علم الاجتماع أشياء أكبر وأهم من مجرد التمسك بتلابيب الدقة والأناقة المنهجيتين . فلا يهم رجل الشارع أو القروى أو البدوى أو الموظف ما إذا كان " ماكس فيبر " هو الأدق ، أو أن " بارسونز " هو الذى تحلى بنظرة أكثر شمولاً . إن ما يريده المواطن العادى ظروفاً مواتية لبقائه وعمله وتفاعله ، لكسب قوته وقوت أسرته ولنيل مسكن صحى إنسانى ، وحاجات أساسية مشبعة ، وعلاج فعال ، وتعبير عن

إرادته وطموحاته وتطلعاته . وإذا لم يقدر العلم الذى يزعم أنه علم الإنسان والمجتمع على تحقيق هذا ، فلا يستحق لحظة واحدة لقراءة صفحة واحدة من كتاب واحد من كتبه " [١] .

ثانياً : المحاولات المبكرة للتنظير فى علم الاجتماع :

إذا كان علم الاجتماع باعتباره بحثاً منظماً فى الطبيعة الأساسية للحياة الاجتماعية يعود إلى أواسط القرن الماضى ، كما أوضحنا فى الفصل المتقدم ، فإن الجهود المبذولة لفهم وتحسين الحياة فى المجتمع أمر قديم بدوره . فقد بدأ الفلاسفة والشعراء والملوك مع ظهور اللغة المكتوبة يسجلون رؤياهم وتصوراتهم حول مجتمعاتهم كيف تعمل وما هو تأثير المجتمع على حياة أفراده ... الخ .

حامورابى :

ومن الثابت أن الحاجة إلى وجود نظام اجتماعى مثالى أدت إلى وجود العديد من القوانين والقواعد التى حاولت منذ القدم أن تحقق الاستقرار للنظام الاجتماعى ليتسنى للمجتمع أن يقوم بوظائفه خير قيام وبأكبر قدر من الفاعلية والدقة . وتعد مبادئ " حامورابى " وقوانين " مانو" دليلا ساطعا على ذلك . فقد تناول قانون " حامورابى " ــ على سبيل المثال ــ العديد من المشكلات التى مازال يعنى بها المنظرون الاجتماعيون وواضعو القوانين اليوم . فقد ضم قانون حامورابى مائة واثنان وثمانون بندا تتناول شئون التجارة والجيش والسياسة وممارسة

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، مصدر سابق ، صفحات ٣٣ ــ ٣٧ .

الطب وتربية الأبناء والعديد من صور العلاقات الاجتماعية ، إضافـــة إلـــى تناولها مشكلات كبار السن والخلافات العائلية وغيرها .

وغنى عن البيان أن قوانين حامورابى ارتكزت إلـــى حـد بعيـد ، كغيرها من القوانين والتشريعات الحديثـــة ، علـــى تقـاليد مجتمعـــه التـــى صاغتها أعراف الشعب وعاداته قبل تسطيرها ووضعها فى صيغـــة قـــانون أو تشريع مكتوب بزمن طويل . ولقد كانت قوانين حامورابى شـــأنها شـــأن القوانين الحديثة تجسد جهدا إراديا موجها نحو تحقيق ما يســـمى بـــالإصلاح الاجتماعى . ويتجلى ذلك فيما أبانه حامورابى فى مقدمة قانونه ، التى ذكـــر فيها أنه يمارس سلطته الدينية المقدسة ، باعتبـــاره ملـــك بـــابليون ، لجعـــل العدالة تسود فى الأرض ويقضى على الشر والفساد ومنع القوى مـــن قـــهر الضعيف وحتى يسطع النور على الأرض ويضئ أركانها وتتحقق الرفاهيـــة للناس . وإذا كانت تلك العبارات تتماثل مع تلك التى يعلنها الساســـة اليـــوم ، فإن مصدر ذلك مداعبة الرغبة فى إقامة نظام اجتماعى مثالى شـــغل ذهـــن الإنسان منذ الأزل وإثارتها لرغبته وفضوله .

أفلاطـــــون :

ومن الثابت أن كل فيلسوف حاول أن يدلى بدلوه فى رســـم صـــورة المجتمع الكامل أو المثالى ، وأكد أن تصوراته لهذا المجتمع هى الصحيحـــة والصادقة . فقد كان أفلاطون ، مثلاً ، مهتماً بقضية العدالة ، وقضـــى وقتـــاً كبيراً من حياته يرسم صورة مجتمع يوتوبـــى يمكـــن أن تتحقـــق وتتعـــاظم داخله مساحة العدالة . ويعد كتاب " الجمهورية " الـــذى كتبـــه فـــى القـــرن الرابع قبل الميلاد أول تحليل اجتماعى معمق ومنهجى حقيقى عرفه العـــالم. فقد تطابق المجتمع اليوتوبى الذى وصفه أفلاطـــون مـــع نمـــوذج المدينـــة

Polis اليونانية ، أى نموذج المدينة الدولة التى عرفها أفلاطون وعاش فيها. وقد اعتقد أفلاطون أن مجتمعه المثالى يمكن أن يكون بمثابة دليل وهادى للذين يريدون تحقيق هذا النموذج لمواطنيهم للارتقاء بأوضاعهم وإنجازاً للإحساس بالمسئولية تجاههم .

وقد قدم أفلاطون وصفاً تفصيلياً لخططه فيما يتصل بنظام الحكم والحياة الأسرية والنظام الاقتصادى والبناء الطبقى وتدرجه والتربية . وقد راعى أن يحقق تصوره لهذا المجتمع نمط من العلاقات الاجتماعية التساندية التكاملية داخله .

ورغم التصورات المثالية الفضلى التى وضعها أفلاطون فى كتابه "الجمهورية " فإن هذه التصورات لم تأخذ طريقها إلى التطبيق فى أى مجتمع رغم استمرار تأثير ما تضمنته تلك التصورات من قيم وتوجهات إنسانية نبيلة لإقامة نظام اجتماعى مستند إلى مبادئ العدالة .

بدايات النظرية الاجتماعية :

ومن الثابت أن كل مرحلة تاريخية فى حياة العديد من المجتمعات عرفت رجالا أمثال أفلاطون كرسوا جهودهم للتوصل إلى الوسائل التى تمكن من إقامة المجتمع الكامل أو التام ، بل إن تألقهم وألمعيتهم جعلتنا نتصور أن بعضا مما قدموه من إجابات لمشكلة العدالة فى هذا المجتمع أو ذاك إجابات صحيحة ومقبولة . والسؤال الذى يتعين مواجهته فى هذه الحالة ينحصر فى متى يكون تحليلا لمجتمع من المجتمعات يتسم بالصدق والعملية ومتى لا يكون ؟

ويمكن القول أن المشكلة الكبرى التى تواجه المنظرين الاجتماعيين

فى كل مرحلة من مراحل التاريخ ، تتمثل فى عدم توفر طريقة يمكن الركون إليها أو الاعتماد عليها فى ضبط أو التأكد من صدق ما يستخلصونه، وأنه لا يتعارض مع ما يقدمه البرهان الامبريقى من دليل على صدقها . ولقد أمكن التوصل إلى هذه الطريقة مؤخراً وبخاصة مع الثورة العلمية التى شهدها المجتمع بدءاً من القرن السابع عشر والثامن عشر وحتى اليوم ، فإن تطبيقها يجرى على نحو متدرج فى الدراسات المرتبطة بشئون المجتمع .

ابن خلدون :

ومن بين المحاولات المبكرة البارزة لوضع علم للمجتمع محاولة المؤرخ الفيلسوف المسلم العلامة العربى ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) . فرغم أنه سبق ما أنجزه المنهج العلمى من تطور بقرون عديدة ، فإنه يرجع إليه الفضل فيما قدمه من إسهامات فى تحقيق التطور الفعلى للعلوم الاجتماعية ، وبخاصة عندما قرر أن السلوك الإنسانى محكوم بالقوانين الطبيعية ، حيث يمكن التوصل إلى المبادئ والقوانين التى تحكمه عن طريق ملاحظة الوقائع الاجتماعية (أى مشاهدة ما يجرى داخل المجتمع من ظواهر وأحداث) .

ويعد التاريخ بالنسبة لابن خلدون المرآة التى نطل منها على مراحل التطور وعملياتها التى مرت بها المجتمعات وأن الحوادث والأفعال التى تصدر عن الفرد فى الماضى تعد بمثابة دليل قاطع لما سيصدر عنه من أفعال فى المستقبل .

إن الغاية الحقيقية للتاريخ على حد تعبير ابن خلدون تتمثل فى

تمكيننا من الاطلاع على أحوال المجتمع والوعـــى بتطوراتـــه ، أو بمعنـــى آخر ملمين بحضارة المجتمع وممسكين بقضاياها وظواهرها .

ويتضح مما تقدم أن ابن خلدون استخدم الوقائع التاريخيـــة كوســيلة لفهم الصور التى اتخذها المجتمع فى تغيره وتحوله من مرحلة إلى أخـــرى. وقد كتب ابن خلدون عن الدين والسياسة والاقتصـــاد والطبيعـــة الإنســانية والمجتمع الحضرى والريفى (البـــدوى) . كمـــا عـــرض لأســس التماســك الاجتماعى والروابط التى تجمع بين الناس فى إطار نظـــام اجتمـــاعى مـــن النظم .

لقد كان ابن خلدون أول من أشار إلى أن فـــهم المجتمـــع يمكـــن أن ينجز على نحو كبير من الدقة إذا ما أجرينـــا مشـــاهدة منظمـــة ومنهجيـــة لصور التماثل بين الظواهر الاجتماعية ، الأمر الذى يساعدنا علـــى الكشـــف عن ما يحكمها من قوانين طبيعية .

وغنى عن البيان أن تأسيس المنهج العلمى جرى مبكراً فـــى القـــرن السابع عشر ، وبخاصة على يد كل مـــن " فرنســيس بيكـــون " و " رينيـــه ديكارت" ، الذى ذهب إلى أن العلماء يجب أن يتخلصوا أنفسهم من الأفكـــار المسبقة المسيطرة عليهم عن النظـــام الطبيعـــى ويتوجـــهوا إلـــى توظيـــف الملاحظة والتجربة والمنطق ليتســـنى لـــهم تكويـــن رؤيـــة وفـــهم جديـــد لمجتمعاتهم وأوضاعها .

بيكـــــون :

وقد أرسى " بيكون " ، فى إشارته للمنـــهج الاســـتقرائى ، باعتبـــاره عملية منهجية للحصول على معرفة تتمتع بدرجـــة كبـــيرة مـــن الصـــدق ،

أسس المنهج التجريبى الذى كان له الفضل فى إنجاز العديد من صور التقدم العلمى واعتمادها عليه . وقد أكمل ديكارت جهود بيكون فى هذا المجال بتأكيده ضرورة وأهمية استخدام التحليل الرياضى والمنطق الاستنباطى باعتبارهما ركائز أساسية لإنجاز الفهم العلمى للأشياء .

ورغم أن هذا المنهج العلمى لم يجرى تطبيقه بصورة سريعة فى الدراسة المنهجية للمجتمع ، فإن أساس علم جديد للمجتمع كان قد أخذ يتشكل فى هذه المرحلة بصورة واضحة وبخاصة إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وذلك عندما بدأ الفلاسفة السياسيون والاجتماعيون يهتمون بصورة مباشرة بتناول مشكلة النظام والصراع فى المجتمع .

توماس هوبز :

فقد اهتم " توماس هوبز " ، وهو من أبرز فلاسفة هذه المرحلة ، بتقديم تبرير عقلى للسلطة السياسية التى رأى ضرورة تلاقيها مع وقائع التاريخ ومع رؤيته " الحالكة " للطبيعة البشرية . فقد رأى " هوبز " أن الإنسان باعتباره كائناً من كائنات الطبيعة يماثل الذئب بالنسبة لغيره من بنى جنسه ، وعليه ذهب إلى ضرورة وجود سلطة أو حكومة مطلقة تكون مهمتها منع الصراع الاجتماعى وتحقيق المجتمع المنظم . وذهب إلى أن الناس فى الماضى البعيد وجدوا فى نمط الحكومة المطلقة السبيل الذى فوضوه حق المدافعة عنهم لحماية أنفسهم من بعضهم البعض ، وإقامة مجتمع متماسك . وعلى هذا الأساس قدم " هوبز " أول إعلان لما عرف باسم العقد الاجتماعى أو نظرية الحكم .

جـون لوك وجان جاك روسـو :

وقد قدم " جون لوك " و " جان جـاك روسـو " ـ بعـد ذلـك ـ إضافات هامة لنظرية العقد التى حاولت أن تبين أصـول أو جـذور الدولـة باعتبارها تمثل شكلا من أشكال الاتفاق بين أعضاء المجتمع لقبول الامتثـال على نحو طوعى لقواعد وضوابـط بعينـها لضمـان اسـتقرار العلاقـات الاجتماعية. وعلى العكس مما ذهب إليه " هوبز " ، استخدم كل من " لـوك وروسو " مصطلح العقد لمناهضة القواعد التسـلطية ، حيـث أقـروا حـق الناس للإطاحة بأية حكومة يرونها غير عادلة ويقيموا فيما بينهم عقدا يقـوم على احترام المساواة .

ونرى مما تقدم أن المنظرين الاجتماعيين انشغلوا بعلاقة الاسـتقرار الاجتماعى بالصراع الاجتماعى والتغير ، وهى القضية التى انطلـق منـها المنظرون للمجتمع وبخاصة بعد أن أفسحت الاتجاهات والدعـوات الفلسـفية والعلمية التى سادت القرن الثامن عشر والربـع الأول مـن القـرن التاسـع عشر على وجه الخصوص الطريق أمام العلم الاجتماعى كى يـأخذ طريقـه فى الظهور والتبلور من ناحية ، وظهور تـوزع الفلاسـفة والعلمـاء علـى ميادين معرفية وفكرية تتسم بدرجة واضحـة مـن التخصـص ، كميـادين الاقتصاد والسلالة والسياسة وعلم النفس وعلم الاجتمـاع وعلـم القـانون ، الأمر الذى دعا إلى الاهتمام بالأخذ بمنطق البحـث العلمـى فـى دراسـة الظاهرة الاجتماعية ، كما هو الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية [١] . ومـن ثـم بدأت مرحلة التنظير الأكاديمى لعلم الاجتماع تأخذ طريقها فى تقديم خرائـط

---

(١) Melvin L Defleur & Others Sociology, Man In Society, Scott, Foresman and Co London, 1993, PP 4-6

التنظير الاجتماعى . كما سنوضح فى المحور الثالث من هذا الفصل .

ويتسنى لنا مما تقدم التأكيد على أن محـاولات التنظـير فـى علـم الاجتماع ارتبطت منذ وقت مبكر ، بل وقبل ظهور هذا العلم كعلم معـترف به للمجتمع ، بالفكر الفلسفى والاجتماعى الذى قدمـه الفلاسـفة والمفكـرون فى إنشغالهم بالواقع الاجتماعى الـذى أحـاط بـهم وظاهراتـه وتلاحقاتـه المتسارعة حتى أصبحت تشكل الشغل الشاغل لهم ولسـعيهم نحـو تـأمين الحياة لأنفسهم ولغيرهم. فقد كان للفلاسـفة والمفكريـن فـى الحضـارات والعصور المختلفة رؤى للحياة الاجتماعية فى مجتمعاتهم . وقد " ارتبطـت رؤية مفكرى كل حضارة من الحضـارات بطبيعـة المرحلـة الحضاريـة وخصائصها السائدة والتوجهات والركائز الأساسية التى تشكل صيغة الحيـاة داخلها ، ويضاف إلى ذلك المناخ الفكرى العام الـذى وسـم روح العصـر الذى كانوا يعيشون فيه " (١) .

وإذا كانت النظرية الاجتماعية أثمرت التيـارات الفكريـة الفلسـفية الاجتماعية التى أرّخت فكرياً واجتماعياً للمجتمع وأوضحت طابعـه وأسـس الحياة من جميع الوجوه داخله ، فإنه لا يمكن القول اعتبارهـا صـورة مـن هذا الفكر إنما نتاج جديد كان لابد من وجوده من ناحية ليلتقى مـع طبيعـة المرحلة الحضارية المعاصرة ويجيـب عـن تسـاؤلاتها ومشـكلاتها ، وأن تمهد له حصيلة معرفية فكرية عن المجتمع تلعـب دور المـثرى والشـاحذ لعقل المنظر لشئون المجتمع وأحواله .

ومن ثم شكّلت النظرية الاجتماعية أنسـاقاً معرفيـة متكاملـة لفـهم

---

(١) محمد عبد النبى ، مصدر سابق ، صفحة ٧ .

علاقة الإنسان بالمجتمع ومجرى حركة التاريخ والحياة الاجتماعيـــة . ولقـــد ساعد ظهور علم الاجتماع والتأكيد على ركائز العلميـــة فيـــه علـــى تمـــايز النظرية الاجتماعية من حيث بنائها وعناصرها ودورها فـــى نطـــاق البنـــاء العلمى للعلم عن ما قدمه رواد علم الاجتماع من أطر معرفية اجتماعية .

وترتبط المحاولات المبكرة للتنظير فى علـم الاجتمـــاع بعـــدد مـــن الرواد المؤسسين لهذا العلم ، بحيث يتعذر الإشارة إليهم دون الوقـــوف أمـــام إسهاماتهم الفكرية ، ويطلق عليهم اسم الآباء المؤسســـين لعلـــم الاجتمـــاع . ويأتى على رأس هؤلاء كل من ابن خلـــدون وســـانت ســـيمون وأوجيســـت كونت وكارل ماركس على وجه الخصوص .

ويتعين الإشارة فى هذا المجـــال إلـــى أن النشـــأة الأوروبيـــة لعلـــم الاجتماع والظروف والتيارات التى نشأ فى ظلها هى التى شكلت إلـــى حـــد بعيد الوضع الراهن للنظرية الاجتماعيـــة المعـــاصرة أو مـــا يســـمى بعلـــم الاجتماع الأكاديمى المعاصر . وعليه ، تصبح محـــاولات التنظـــير الأولـــى وليدة المتغيرات والأوضاع البنائية الفكريـــة والثقافيـــة والاجتماعيـــة التـــى عرفتها أوروبا وبخاصة منذ بداية عصر التنوير وما قدمـــــه فلاســـفته مـــن أفكار وتوجهات ترجع إليها حتى اليوم الكثير من الأطر الفكرية التى تحكـــــم النظريات الاجتماعية المعاصرة .

ورغم البدايات الشرقية والعربية التى مهدت لقيام علـــم الاجتمـــاع ، بل ونبهت الأذهان إليه كعلم للعمران البشرى علـــــى حـــد تعبـــير العلامـــة العربى المسلم ابن خلدون ، كما سنرى فيما بعد ، فـــإن الثـــابت " أن علـــم الاجتماع بالمعنى الدقيق للكلمـــة نشـــأ بشـــكل أو بـــآخر نتيجـــة الأزمـــات الاجتماعية والثورات الفكرية والسياسية التى هزت أركـــان المجتمـــع فـــى

أوروبا فى القرن التاسع عشر ، ودفعت العلماء والمفكرين إلى البحث فى أسس المجتمع الإنسانى ، والقواعد التى يقوم عليها ، وما أدى إليه هذا من نشوب صراع أيديولوجى عنيف أثّر على رواد علم الاجتماع الذين أرسوا قواعده " [(١)] .

فقد تأثر رواد هذا العلم فى هذه المرحلة على وجه الخصوص بالاتجاهات الفكرية الناقدة للمجتمع الأوروبى التى قدمها فلاسفة عصر التنوير والتى أسهمت بدورها فى نشوء دعوات وحركات التحرر الفكرى والسياسى . ومن ثم تحول الاهتمام من الوقوف أمام التحولات التى تطرأ على النظم وفقاً لمبادئ العقل باعتباره منهج فلسفة التنوير إلى الاهتمام بدراسة أصول النظم القائمة .

ويمكن حصر الأفكار الرئيسية التى وجدت لها صدى بالغاً فى خرائط التنظير لعلم الاجتماع المعاصر فيما يلى :

١ـ المجتمع وحدة عضوية ، له قوانينه الذاتية التى تحكم تطوره ، وله أيضاً جذوره الضاربة فى الماضى ، كما أنه ليس مجرد تجمع ميكانيكى ، أو بمعنى آخر مجرد مجموع الأفراد المكونين له.

٢ـ لا يشكل الفرد العنصر الأساسى فى المجتمع ، فالمجتمع مكون من علاقات ونظم ويعد الأفراد أعضاء لهم مكانات محددة فى المجتمع ويمارسون أدواراً موضوعة لهم .

٣ـ ليس للفرد وجود خارج الجماعة أو بعيداً عن سياقها ، لأن المجتمع

---

(١) محمود عودة : " تاريخ علم الاجتماع " ، الجزء الأول ، مرحلة الرواد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، غير موضح سنة النشر ، صفحات ١٣ـ١٤ .

سابق فى الوجود على الفرد . ومن ثم يكتسب الفرد خصائصه من خلال مشاركته فى المجتمع الذى يشكله .

٤ـ تترابط أجزاء المجتمع ترابطاً عضوياً بحيث يؤدى أى تغير فى أحد الأجزاء إلى تغير فى سائر الأجزاء .

٥ـ للإنسان حاجاته التى يعمل كل مجتمع على توفيرها ، وتعد النظم الاجتماعية آليات جوهرية لتلبية تلك الحاجات ، ومن ثم فإن تهدد استقرار وتماسك هذه النظم من شأنه أن يؤدى إلى تهدد استقرار المجتمع .

٦ـ يمارس المكون الثقافى للمجتمع عدداً من الوظائف الإيجابية وبخاصة قيامها بتلبية الحاجات الأساسية للأفراد .

٧ـ يعد وجود الجماعات الصغرى فى المجتمع كالأسرة .. الخ مطلباً ملحاً وأساسياً بالنسبة للمجتمع ، حيث تعد الوحدات أو الدعامات التى تستند إليها حياة الأفراد .

٨ـ لم تؤد الثورة إلى قيام شكل راق من أشكال التنظيم الاجتماعى ، بل أدت إلى شيوع الانحلال الأخلاقى والاجتماعى ، الأمر الذى جعل المحافظون يتطلعون إلى العودة للأشكال الدينية القديمة التى تعكسها الكنيسة الكاثوليكية .

٩ـ أكد المحافظون والرومانسيون على الأهمية القصوى والإيجابية للجوانب غير العقلية فى الوجود الإنسانى ومن أهما الدين .

١٠ـ أكد المحافظون والرومانسيون على أهمية وضرورة التدرج

الاجتماعي للأفراد من حيث المكانات ، إذ بدون هذا التـــدرج يصعــب تحقيق الاستقرار الاجتماعى [١] .

وإذا كانت الفلسفة الرومانسية والمحافظة طورت كثيراً مـــن أفكــار علم الاجتماع الأكاديمى ، فإن فلســـفة التنويـــر النقديـــة ولـــدت التيــارات الراديكالية والثورية التى أثرت فى منظومات التنظير المعـــاصر فـــى علـــم الاجتماع .

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك تيارين فكريـــن اجتمــاعيين شـــكلا حركة التنظير فى علم الاجتماع هما : التيار المحافظ الذى أسّسه " أوجســـت كونت " ومن قبله إلى حد ما " سان سيمون " ، وهو التيار الـــذى أثّـــر فـــى بلورة اتجاه المدرسة البرجوازية فى علم الاجتماع الذى يعد وريثـــاً شـــرعياً للفلسفة المحافظة والرومانسية . أما التيار الثانى فهو التيار الراديكالى الـــذى فرض نفسه على المسرح النظرى المعاصر لعلم الاجتماع .

ونتناول فيما يلى رواد الفكر الاجتماعى الذيـــن تشـــكل تصوراتـــهم حول الحياة في المجتمع وأصولها وعواملها وتبدلها التربـــة الخصبـــة التـــى أثرت حركة التنظير المعاصر فى علم الاجتماع .

* ابن خلدون :

ولد ابن خلدون بتونس عام ١٣٣٢ ، وتوفى بالقاهرة عـــام ١٤٠٦ . وقد عُرف ابن خلدون بسعة اطلاعه على ما كتب الأقدمون وعلـــى أحـــوال البشر ، وكـــان قـــادراً علـــى اســـتعراض الآراء ونقدهـــا . ويعـــد مؤلفـــه

---

(١) المصدر السابق ، صفحات ٢٠ ــ ٢٤ .

الموسوعى " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيـام العـرب والعجـم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " من أشهر وأهـم أعمالـه على الإطلاق . وقد استمد هذا العمل قيمته مـن تناولـه لطبيعـة العمـران البشرى (الاجتماع البشرى) وما يعرض له .

ولقد كان لخبراته الواسعة فى الحيـاة السياسـية والإداريـة وفـى القضاء ، إلى جانب أسفاره الكثيرة أثر بالغ فى تكوين أفكاره ، ثـم إن ابـن خلدون مفكر متزن لا يميل مع الهوى ، فضلا عن أنه من المفكريـن الذيـن يهتمون بتقييد استنتاجاته كلها مما هو مشاهد فـى الاجتمـاع الإنسـانى ، أو مما عرفه أو بلغه من الأحوال ، أو مما تضافرت عليه الأدلة . وقـد اعتمـد ابن خلدون الأقيسة المنطقية فى دراسة أخبار الشعوب . ويـرى فـى هـذا المجال أن الأمور الجارية فى عالمنا المادى والاجتماعى والنفسـى تخضـع لنواميس معينة وتجرى على نظام مخصوص ، ثم إنها تتكرر كلمـا تـهيأت لها مثل الأسباب التى عملت على ظهورها من قبل . ويرى ابن خلـدون أن الحوادث يستحيل أن تجرى على خلاف ذلك ، لأنـها جـزء مـن النظـام الشامل الذى يسيطر على العمران البشرى والاجتماع الإنسانى .

ويقصد بالعمران عند ابن خلدون الاجتماع الإنسـانى القـائم علـى صلة البشر بالأرض (البيئة الطبيعية) وعلى صلة بعض البشر ببعـض فـى المكان الواحد (البيئة الاجتماعية) . ويجتمـع البشـر حتـى يتغلبـوا علـى مصاعب البيئة الطبيعية فى الدرجـة الأولـى وتوفـير الراحـة والـترف واستخراج القوانين وترتيب المعاملات .

وللعمران أو الاجتماع البشرى عند ابن خلـدون نوعـان : بـدوى وحضرى ، الأول سابق على الثانى من حيث النشأة ومادة له .

ويرى ابن خلدون أن كلا من العمران البدوى والعمـران الحضـرى ضروريان وموجودان معا دائما جنبا إلى جنـب . وتعـد العصبيـة أسـاس الاجتماع البدوى . وتعنى العصبية : " النعـرة علـى ذوى القربـى وأهـل الأرحام أن ينالهم (ضيم) أو تصيبهم هلكة ، وتكـون العصبيـة فـى أهـل النسب الواضح وفى من صاهرهم أو انتسـب إليـهم بـالولاء أو الحلـف . والأصل فى العصبية القرابة من النسب ، ولكن النسـب لا قيمـة لـه فـى العصبية إلا إذا رفده رابط من المصلحة أو الجوار .

والاجتماع الحضرى يتطور من الاجتماع البدوى ، وفيـه تسـتبحر الحضارة وتنشأ الدولة . إذا قويت العصبية فى البدو وظفرت بالرئاسـة ثـم زاد جاهها وسلطانها ومالها ، فإنها تطمع بما فـوق الرئاسـة وتطمـع إلـى الملك للاستبداد بالحكم والتمتع بما لديها من الجاه .

وقد أفاض ابن خلدون فى شرح الناحيـة السياسـية فـى المجتمـع وأجاد فى تحليلها وأفرد لها فى مقدمته فصولا تمتاز بحسن العـرض ودقـة التحليل . ولم يؤمن ابن خلدون بوجوب السلطة فى مجتمع ينظمـه المنطـق والعقل .

وقد درس ابن خلدون التسلط السياسى دراسة موضوعيـة ، وبنـاء الدول وانهيارها ، وأعتقد أن دراسة المجتمع لن تسـاعده علـى حـل هـذه المشكلة . لقد كان ابن خلدون فى ذلك قدريا حقا . والنظريـة التـى انتـهى إليها ، تشابه بعض المشابهة الدورة التى شرحها أفلاطون ، فـهو يـرى أن التباين السيكولوجى ما بين الأجيال المتعاقبة ، هو الذى يشـرح التطـورات التى تطرأ على الأسر الحاكمـة ، وكذلـك علـى الارسـتقراطية صاحبـة السلطان .

فقد ذهب ابن خلدون إلى أن الحياة الاجتماعية حادثة طبيعية ، وشروط هذه الحياة تنبثق ـ على الأغلب ـ من الوسط الجغرافي ومن الإقليم ، وهى أعظم تأثيرا وثباتا من الحوادث السياسية العارضة ، والإنسان هو الكائن الحى الوحيد المحتاج إلى السلطة فى مجتمعه ، وبدونها تسود القلاقل وتستحكم الفوضى ، لأن الإنسان ـ فى نظره ـ واقع تحت تأثير الغرائز السيئة . أما السلطة فلا تقوم إلا على القوة ، قوة جماعة تستولى على مقاليد الحكم بشجاعتها وتماسكها وتألبها يدا واحدة ، وهذه الصفات التى تخلق حالة الاستعداد للاستيلاء على السلطة (١) .

* سان سيمون :

لا تكمن أهمية سان سيمون فى سبقه لأوجست كونت من حيث التبشير بكثير من أفكاره وبخاصة تبشيره بالعلم الجديد الذى أطلق عليه كونت اسم الفيزياء الاجتماعية ، بل تتمثل أيضا فى كونه هو الذى استطاع أن يؤثر فى تفكير المحافظين والراديكاليين من رواد علم الاجتماع ، حيث يعكس ما ذهب إليه من فكر طبيعة مرحلة التحول الاجتماعى التى شهدتها أوروبا فى عصره ، إذ ضم هذا الفكر عناصر راديكالية وأخرى محافظة فى الوقت ذاته .

فقد عاش سان سيمون (١٧٦٠ـ١٨٢٥) فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وقد تجلى الصراع بين الأفكار الرومانسية والأفكار النقدية ، الذى شهدته تلك الفترة ، فى أفكاره . فقد

---

(١) محمد فايز أسعيد : " عباقرة الفكر الاجتماعى " ، الجزء الأول ، دار الوطن للنشر والإعلام ، الرياض ، ١٩٨٤ ، صفحات ١٦٩ـ١٨٠.

أمن سان سيمون بقدرة العقل على تغيير العالم نحو الأفضل، وكان متفـــائلا، عالمى النزعة .

ويعد سيمون رائد الاشتراكية الإنتاجية ومن أوائـــل الذيـــن حـــاولوا تطبيق الأسلوب العلمى على الوقائع الاجتماعية . وقد صاغ نظريـــة جديـــدة تلقفها من بعده أتباعه ومؤيـــدوه ، وأضـــافوا إليـــها العديـــد مـــن الشـــروح والتحاليل . فقد تأثر سيمون بحركة التصنيع أبلـــغ تـــأثير ، فـــآمن بمســـتقبل الصناعة ، واعتقد أنها وحدها المنبع الوحيد للثروة . وقـــــد حمـــل ســـيمون على حق الملكية الخاصة وحق الإرث على وجه الخصوص ، وهـــاجم كـــل مورد يستحصل عليه الفرد بلا عمل مقابل . وكان هدفه البعيد هـــو تحريـــر العامل الذى غدا فى نظره مجرد عبد فى المجتمع الحديث ، وإقامة مجتمـــــع جديد ، تقوم فيه سلطة القادرين والمتفوقين من الصنـــــاع والتجـــار ورجـــال الفكر، بمباشرة مهام الإنتاج والتوزيع وتصبح الحكومة ، بالمعنى السياســـى، فى هذا المجتمع أمرا ثانويا بحتـــا . ومجـــرد ظـــاهرة خارجيـــة ، فعملـــها الأساسى ينصرف إلى تنظيم الإنتاج ، وخلـــق كـــل الأحـــوال الضروريـــة لسعادة الإنسان ورفاهيته . هذا ، وقد التف حول آراء ســـيمون عـــدد مـــن الأتباع ، كونوا مذهبا يعرف بالسانت ســـيمونية . ويمكـــن إجمـــال مذهـــب سيمون فى المبادئ التالية :

١ـ الإيمان الراسخ بالعلم وتقدمه المستمر .

٢ـ الاهتمام بالإنتاج فى المقام الأول .

٣ـ حصر الجهود فى كل ما يتعلق بتنظيم الإنتاج فى المجتمع .

وعلى الرغم من عدم تحقق الكثير من أحلام سان سيمون وأتباعـــه،

إلا أن تأثير المذهب على رجال السياسة والدولة فى فرنسا كـــان واضحـــ ، كما أن النقد الذى وجهه سان سيمون إلى الاقتصاد الحر فتح الطريـــق أمـــام انجلز وماركس فى إبراز عيوب النظام الرأسمالى . وقد رأى سان ســـيمون فى تطور التصنيع القائم على أساس علمى تكنولوجـــى شـــرطا هامـــا نحـــو الرفاهية ومنبع للسيادة .

كانت أهم أهداف سيمون تحرير العامل الـــذى أصبـــح مـــن خـــلال المنظومة الإنتاجية عبدا فى المجتمع ، فنـــادى بمجتمـــع عصـــرى علمـــى وعقلانى تكون فيه السيادة لطبقة المنتجين من صناع وتجار ورجـــال فكـــر وعمال مؤهلين ، ليقوم هؤلاء بدورهم فى مهام الإنتاج والتوزيع ، فى حيـــن تصبح الحكومة فى ظل هذا المجتمع أمرا ثانويا وينحصر واجبها الأساســـى فى تنظيم الإنتاج والعمل على إسعاد أفراد المجتمع [١] .

*** أوجيست كونت :**

ولد أوجست كونت فى مدينة مونتبلير عام ١٧٩٨ م بفرنسا . وبعـــد أن أكمل تعليمه الثانوى التحق بمدرسة البوليتكنيك وكان واحدا مـــن أحســـن أربعة طلاب على المستوى الوطنى ، وحصل على إجازة جامعيـــة منـــها . وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأ كونت نشاطه التأليفى . عمل كونـــت فـــى بدايـــة حياته العملية سكرتيرا خاصا عند سان ســـيمون ، نشـــر أثنـــاء ذلـــك عـــدة مقالات إلى جانب ممارسته للعمل الرسمى . ثم كتب بعد ذلك بسنوات قليلـــة مؤلفه الشهير الذى تناول فيه مضمار الفلسفة الإيجابية ، مما أكسبه صداقـــة

---

(١) محمد فايز أسعيد : " عباقرة الفكـــر الاجتمـــاعى " ، مصـــدر ســـابق ، صفحـــات ٢٧٧ـ٢٧٨ .

لكثيرين من مشاهير معاصريه وعلى رأسهم جون ستيوارت ميل . ورغـــم محاولاته المستميتة لم يفلح كونت فى الحصول على كرسى التعليـــم العـــالى فى مدرسة البوليتكنيك أو فى كلية فرنسا . وفى عام ١٨٤٥ م تزوج كونـــت ولكنه لم يوفق فى زواجه .

وبين عامى ١٨٥١ــ١٨٥٤ م ظهر مؤلفه الآخر الذى عـــالج فيـــه النظام السياسى والمؤسسة الاجتماعية لدين الإنسانية . وكـــان هـــذا الكتـــاب مصدر نفور بينه وبين أصدقاءه خاصة وأنه نادى " بدين علمـــى جديـــد " . كان هدف كونت من كتاباته النظرية وضع خطة ترقى بـــالمجتمع والسياســـة إلى مصاف علم دقيق قادر على تجديد المجتمع .

انصب اهتمام كونت على إخـــراج ديـــن علمـــى (علمـــانى) جديـــد للإنسانية ونصب من نفسه كاهنا وداعيا لهذا الدين الذى أخـــذ يبشـــر بـــه ، وكتب بذلك إلى قيصر روسيا " نيكـــولاوس " وإلـــى وزراء الإمبراطوريـــة العثمانية ، يدعوهم للدخول فى دينه الجديد . فاقترح ــ على ســـبيل المثـــال ــ تقويما سنويا جديدا وبداية جديدة لعهد الإنسانية حددها ابتداءا مـــن عـــام ١٨٥٥ م . أكد كونت فى نظامه الجديد أن الأزمة الراهنة فـــى أوروبـــا ــ آنذاك ــ لها جوانب إنسانية ، وأن إنهاء هذه الأزمة يتطلب تجديد الإنســـانية فكريا وأخلاقيا ، لأن الفوضى الحاصلة مستعصية من الناحية الروحيـــة ولا يفيد معها اللجوء إلى حلول جزئية مؤقتة كتقسيم الســـلطات وإلباســـها ثـــوب المؤسسات . لهذا طالب كونت بضرورة إعادة تنظيم المجتمع علـــى أســـس جديدة .

ولما كان أوجست كونت نشأ فى مجتمع تضطرم فيـــه الصراعـــات الاجتماعية نتيجة القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الصاعدة ، فـــإن

ما قدمه من أطروحات فكرية حول المجتمع لم يتأثر فقط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى عصره ، بل وبالمناخ الثقافى والفكرى والفلسفى السائد أيضا . فقد رأى كونت أن الثورة الفرنسية جردت كلا من الملكية والكنيسة من سلطتيهما كممثلتين لنظام فرنسا الدنيوى والروحى القديمين . وبذا تكون الثورة الفرنسية وضعت حدا للبنية الاجتماعية القديمة وساعدها فى ذلك ما أحدثته فلسفة التوعية من تأثيرات للوصول إلى نظام اجتماعى جديد ، تمثل فى التخلص من المؤسسات والأفكار المطلقة لتحل محلها مؤسسات وأفكار أخرى واقعية ونسبية .

ومن الثابت لم يكن بسبب ما شهدته فرنسا من متغيرات وثورات فكرية وصناعية ودستورية من السهل إحداث بنية اجتماعية مستقرة ، حيث أخذت المشاكل الاجتماعية تزداد تعقيدا . فى هذا الظرف التاريخى ظهرت عدة محاولات علمية بهدف البحث عن أسباب عدم الاستقرار فى النظم الاجتماعية السائدة ، كما دعا البعض إلى إيجاد أسس نظرية سليمة يقوم عليها نظام اجتماعى مستقر .

وعليه ، فقد روع كونت بما اعتبره اثارا هدامة ترتبت على الثورة الفرنسة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الفلاسفة المحافظين فى هذه الفترة الذين اتخذوا موقفا معارضا من الفلسفات النقدية والثورية ، كما روعته أيضا الفوضى التى نشأت عن هدم الجماعات الاجتماعية التى كانت تتوسط الأسرة والدولة . ومن ثم جاء اعتقاد كونت بضرورة بناء مجتمع جديد ينهض أساسا على مجموعة من القيم والمعتقدات المشتركة [١] .

---

(١) محمود عودة ، مصدر سابق ، صفحات ٧٥ـ٧٨ .

*** كـــارل ماركـــس :**

أسهمت الأفكار التى قدمها كارل ماركس حـــول التصـــور المـــادى للمجتمع والتاريخ والطبقات والصراع الطبقى والاغـــتراب والعلاقـــة بيـــن الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى ، فى تطور النظريـــات الاجتماعيـــة أو على الأصح الفكر الاجتماعى .

وتشكل هذه الأفكار كلا لا يتجزأ أسهمت فى إثراء حركـــة التنظـــير المعاصر فى علم الاجتماع . فقد قدمت هذه الأفكـــار نســـقا فلســـفيا كـــاملا ومنهجا فى فهم الكون الاجتماعى .

وتؤكد المادية الجدلية عند ماركس على الترابط والتفاعل بين المـــادة والفكر ، وأن الفكر هو نتاج للمادة .

وتقدم المادية الجدلية لدى ماركس منـــهجا يقـــوم علـــى عـــدد مـــن المبادئ هى :

١ـ الترابط الشامل بين ظواهر الكون والواقع .

٢ـ الحركة المستمرة المتفاعلة لظواهر الكون .

٣ـ تؤدى التغيرات الكمية تغيرات نوعية جذرية ..ة .

ويتضح مما تقدم أن البناء الاقتصادى للمجتمع هو الأسيـــاس الـــذى يفسر البناء الفوقى بمَا يضمه من نظم قانونية وسياسية وفلســـفية ودينيـــة .. الخ . وتعد علاقات الإنتاج (البناء الاقتصـــادى) للمجتمـــع الأســـاس الـــذى تنهض عليه الأبنية الفوقية القانونية والسياسية ومعنـــى ذلـــك أن أســـلوب

الإنتاج يحدد الطابع العام لمجرى الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية.

وتتحدد أهم معالم التحليل الماركسي في ضوء التصور المادي الذي قدمه للمجتمع في :

١ـ تحدد علاقات الإنتاج البناء الطبقي الاجتماعي للمجتمع ، وهو البناء الذي يشكل طبيعة النظم القانونية والسياسية .

٢ـ تتبع علاقات الإنتاج تطور القوى الإنتاجية والعلاقة بينها ، وإن كانت قوى الإنتاج أسرع في تطورها من علاقات الإنتاج .

والواقع أن النظرية السسيولوجية عند ماركس تكمن أساسا في أنها محاولة منظمة في تفسير البناء الاجتماعي والتغير الاجتماعي من خلال الشواهد التاريخية والبحوث الواقعية ، كما أنها أسهمت إسهاما واضحا في فتح آفاق جديدة أمام علم الاجتماع ، لم يكن قد ارتادها من قبل وذلك من خلال تصورها للعلاقة الجدلية بين البناء الأساسي والبناء الفوقي ، كسسيولوجيا المعرفة والفن والسياسة وغير ذلك . إلا أن الميزة العلمية الهامة تتمثل في تمييزها في مجال الظواهر الاجتماعية بين بناء أساسي فعال وبناء فوقي مرتبط ومطابق [١] .

---

(١) المصدر السابق ، صفحات ١٢٤ ـ ١٣٧ .

التعريف بـرواد الفكر الاجتماعي الذين مهدوا لحركـة التنظيـر فـي علم الاجتماع [1] :

١ـ سان سيمون ، كلود هنرى ، كونت دى (١٧٦٠ـ١٨٢٥):

Saint Simon, Claude Henri, Conte de (1760 – 1825)

كاتب اشتراكى فرنسى على الرغم من أصله الارسـتقراطى ، قـدم كثيرا من الأفكار التى تبناها كونت فيما بعد . وقد اشـترك هـذان العالمـان معا فى تأليف كتاب : خطة للأبحاث العلميـة الضروريـة لإعـادة تنظيـم المجتمع :

Plan of the Scientific Works necessary for the reorganization of society.

الذى ظهر عام ١٨٢٢ ، ويحدد هذا الكتاب فـى صـورة واضحـة جليـة الغرض من علم الاجتماع ، كما يقرر قانون الحـالات الثـلاث . وبسـبب اضطراب سان سيمون من التغيرات التى أحدثـها التصنيـع ، سـعى إلـى ضبط التغيرات أو التحكم فيها ، وقد أراد إقامة دولة صناعية يوجهها العلـم الحديث ، حيث ينبغى على الرابطة العالمية أن تكبح جماح الحـروب ، كمـا أراد إقامة مجتمع منظم حيث يعمل أكثر الناس كفاءة . ويرى سان سـيمون أن التقدم يعتمد على تزقية العلوم وحماية الطبقة الصناعيـة ودعـم التنظيـم الصناعي . وقد عبر عن آرائه وحسنها فى عدد من المؤلفات ولو أنـها لـم تترجم بعد إلى اللغة الإنجليزية . وكان كتابه " المسـيحية الحديثـة " الـذى ظهر عام ١٨٢٥ والذى تناول فيه الفقراء والدين ، السـبب فـى الخـلاف

---

(١) يرجع فى هذا التعريف إلى : عبد الهادى الجوهرى : معجم علـم الاجتماع دار نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٠

الذى نشب بينه وبين كونت .

٢ـ كونت ، أوجيست (١٧٩٨ـ١٩٥٨) : Comte, Auguste

فيلسوف وأخلاقى وعالم اجتماع فرنسى ، تعاون مع سان سيمون من ١٨١٧ إلى ١٨٢٣ ، وتراسل مع جون ستيوارت ميل . قسم علم الاجتماع إلى الإستاتيكا الاجتماعية (الاستقرار الاجتماعى) والديناميكا الاجتماعية (التغير الاجتماعى) . وضح قانون المراحل الثلاث للفكر الإنسانى البثولوجى ، الميتافيزيقى ، الوصفى . ويرى أن هذا يصف تطور كل من المعرفة الإنسانية والمجتمع الذى تطور من المرحلة العسكرية إلى المرحلة القانونية ثم إلى المرحلة الصناعية . كانت أفكاره كلية وعضوية . ويتمثل حجر الزاوية الثانى فى نظامه الفلسفى فى أن العلوم النظرية المحددة تشكل هرما يقع فى قمته علم الاجتماع . ففى رأيه أن المعرفة هى لإعادة تنظيم المجتمع . واعتقد كونت أنه يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية . وتعتمد طريقته فى البحث على الملاحظة والتجربة والمقارنة والتاريخ .

٣ـ لوبلاى ، بيير جيوم فريدريك (١٨٠٦ـ١٨٨٢) :
Le Play, Piérre Guillaume Frederic

لوبلاى مهندس وعالم اجتماع فرنسى ، وقد أثارته مثل كونت المشاكل والقلاقل التى سادت عصره ، ومن ثم أراد أن يحل السلام والنظام فى هذا العالم . وقد قادته البحوث التفصيلية التى قام بها لدراسة الظروف الاقتصادية لحوالى ٣٠٠ أسرة تعمل فى بعض الصناعات إلى وضع مؤلفه الرئيسى عن " العمال الأوروبيين " الممثلة للصناعات والمناطق والظروف الأوروبية المختلفة Les ouvriers europeans

الذي صدر (١٨٥٥) . وقد كان لهذا الكتاب تأثير قوى على تشـــارلز بــوث Charles Booth . وقد طرح لوبلاى فى كتابه هـــذه الصيغـــة " المكـــان والعمل والأسرة " اعتقادا منه أن الأسرة وهى الوحدة الأساسية التـــى تقـوم عليها الحياة الاجتماعية، لها أهميتها الوظيفية فى استمرار وجود أعضائـــها، كما وأن أسلوب العمل ذاته يتأثر بالأيكولوجيـــا . وذهــب إلـــى أن التغـير الاجتماعى يسير فى دوره ، وأن الرخاء والازدهار ينشأ عندما يشبع البنـــاء الاجتماعى حاجات الخبز اليومى (أى الأشياء المادية) ، فضلا عـــن قواعـد العرف الأساسية (أى الأشياء غير المادية) . وترجع أهميـــة لوبــلاى إلـــى ابتكاره لطريقة الملاحظة التى يمكن استخدامها فـــى الدراســات الواقعيـــة ، كما ترجع شهرته إلى صيغته التى حفزته على الكشف والدراسة .

٤ــ كارل ماركس :

ولد كارل ماركس عام ١٨١٨ م من أب يهودى اعتنق مـــع عائلتـه عام ١٨٢٤ المذهب البروتستانتى . وتوفى ماركس فى لندن عـــام ١٨٨٣ م. بدأ ماركس عام ١٨٣٦ م بدراسة القانون فى جامعة بون وانتقل فـــى نفس السنة إلى برلين ليدرس التاريخ والفلسفة وبخاصة فلسفة هيجل . وفـــى عـــام ١٨٤١ م قدم أطروحة الدكتوراه عن الفلسفة الابيقورية .

لم يستطع ماركس إنهاء رسالة الأستاذية فى بون أو ممارسة الحيـــاة الأكاديمية فيها بسبب آراءه المتطرفة والتـــى لـــم تعجـــب وقتـــها السياســـة الرجعية التى كانت تنتهجها بروسيا . عمل ماركس محررا لجريـــدة الرايـــن الليبرالية الديمقراطية لكنها منعـــت عـــن الصـــدور عـــام ١٨٤٣ م . أقـــام ماركس بعدها فى باريس ، لكن اشتراكه فى تحرير المجلة السياســـية " إلـــى الأمام " المعادية لحكومة بروسيا دفع فرنسا إلى طرده من البلاد فذهب إلـــى

بروكسل (بلجيكا) . وبدأ ماركس هناك مع فريدرش انجلز ، الذى كـــان قــد تعرف عليه فى باريس ، دراسة الأبحـــاث الاقتصاديـــة وتحليـــل مختلـــف الاتجاهات الاشتراكية آنذاك . وبتكليف من رابطة الشيوعيين كتب مـــاركس مع انجلز البيان الشيوعى .

وعندما نشبت ثورة فبراير عام ١٨٤٨ م تعرض ماركس للاعتقـــال والإبعاد من بلجيكا ، ثم رجع إلى فرنسا بناء علـــى دعـــوة مـــن حكومتـــها المؤقتة . وعندما قامت الثورة فى ألمانيا خلال عام ١٨٤٨ م رجع مـــاركس إلى ألمانيا وأسندت إليه رئاسة تحرير جريدة الرايـــن الجديـــدة التـــى شـــنت هجوما سياسيا عنيفا ضد الديمقراطيين البروجوازيين ، الأمر الـــذى تســـبب فى إزعاج رجال السلطة فى ألمانيا آنذاك . بعد فشل الثورة فى ألمانيا عـــام ١٨٤٩ م هرب ماركس ثانية إلى فرنسا وبعد اعتقال مؤقـــت غادرهـــا إلـــى لندن حيث عاش طيلة حياته . وهناك كرس كارل ماركس وقته فـــى البدايـــة لكتابة مقالات سياسية بحث فيها أحداث ســـنوات ١٨٤٨ و ١٨٤٩ م وعمـــل منذ عام ١٨٥٢ م مراسلا لجريدة هيرالد تريبيون الأمريكية .

كانت أولى نتائج دراسته الاقتصادية ما كتبـــه عـــن نقـــد الاقتصـــاد السياسى عام ١٨٥٩ م .

استطاع ماركس أن يؤثر كثيرا بآرائه عندما انعقـــد اتحـــاد العمـــال العالميين عام ١٨٦٤ م فى لندن . وفى مؤتمر هذا الاتحـــاد المنعقـــد عـــام ١٨٧٢ م حارب ماركس بشدة جماعة الفوضويين الذين تم طردهـــم ، كمـــا عمل على نقل السكرتارية العامة لاتحاد العمال العالميين إلـــى نيويـــورك . ومنذ ذلك الوقت اقتصرت نشاطات ماركس السياسية على تقديم الاستشـــارة السياسية فى إطار تبادل الرسائل مع قادة الحركة العمالية فى بلدان عديـــدة.

وأهم أعماله فى لندن هو كتابة مؤلفه " رأس المال " الذى ظهر أول جزء منه عام ١٨٦٧ م .

ويعتبر ماركس مؤسسا لما يسمى بالاشتراكية العلمية . ويقصد بذلك ما توقعه ماركس وأتباعه من خلال البرهان العلمى بحتمية سقوط المجتمع الرأسمالى ليحل محله نظام اقتصادى واجتماعى اشتراكى .

وينتسب ماركس بمظهره الفكرى إلى الواقعية ، فهو شبيه بأوجست كونت الذى نبذ الآراء الميتافيزيقية نبذا تاما ، واستبعدها من الأمور الاجتماعية ، إلا أن ماركس جعل المسائل الاجتماعية تالية للمسائل الاقتصادية. وهو ما لا يدخل ضمن إطار مؤلفى هذا .

ومع ذلك فسأعرض أولا لنظريته فيما يمس السوسيولوجيا . أثر هيجل فى نظريته التطورية التى تتمشى مع الفرضية من البسيط إلى المركب ، مرورا بنقيض هذه النظرية ، وهى لعبة المؤثرات المتبادلة حيث تؤثر الفرضية فى ضدها كما يؤثر ضدها فيها بالتقابل ، تبادلا مترددا بينهما بارتكاسات ونتائج متوالية . وليست الجدلية الماركسية كجدلية هيجل نوعا من التلاعب اللفظى ، بل هى تحليل إيجابى للقوى المعروضة . وبخاصة هذا التفاعل المتقابل .

ولقد قام ماركس بهذا التحليل حين اتخذ موقفه من وجهة النظر الديناميكية . أى حينما حاول أن يفهم : " ماذا وكيف ؟ " فى التحولات الاجتماعية . فكل مجتمع يحمل فى نفسه تعارضات وقوى متناقضة ، وهذه التقابلات المتعارضة كثيرة جدا ، منها الخصومات الوطنية والمشاحنات الدينية مثلا التى طالما سفكت بسببه الدماء فى العالم . غير

أن ماركس يميز من بين جميع هذه التناقضات الاجتماعية ، ما هو أكثرها أهمية ، وهو نزاع الطبقات . ففى أى صورة من صور المجتمعات ، سواء ما كان منها فى العصور القديمة ، أو ما عاش فى عصور الإقطاع ، كان هذا النزاع يتخذ شكلا ما من أشكال الخصومة ، أما الذين يمارون فى أهمية هذا التناقض ويؤيدون قول المدعين بأنه لا يتميز عن سواه من النزاعات بوضوح أكثر ، فإنه يجيبهم بأن النزاعات الوطنية والدينية ، هى التى كانت تغلف حقيقة هذا التناقض وتحول الشعب عن النظر إلى النزاع الطبقى ، ولم يكن ذلك إلا إلهاءا لها أو نوعا من التلاعب المبطن غير المشعور به ، ونحن نلاحظ فى هذا الكلام نوعا من التشكيك العنادى الذى ساد فلاسفة القرن الثامن عشر ، وكان فولتير أشهر من برز فيه . إن المفهومين الرئيسيين للنقد الماركسى ليتوجهان نحو : الخبل والتأله . والمجتمع الاشتراكى – على حد زعمه – مجتمع ليس فيه مخبلون عبدة أصنام بشرية ، ولا مثاليون يفترض أنهم فى المقام الأسمى كالآلهة . وسينجو الإنسان فيه من رذيلة التبذير ومن تخبيل شخصيته ، ويجعله منصرفا إلى العمل .. وهذا الكلام ، يلاحظ فيه مؤرخ الفلسفة ما يذكره بقاعدة " كانط " فى الأخلاق العملية : " الإنسان هو النهاية فى ذاته .. " ، ولكن كيف تتغاير أشكال التناقض الاجتماعى تتباين ؟

يقول ماركس : " إن المؤشر الفعال الرئيسى فى هذا التغير ، هو العلاقات الاجتماعية التى تنتج عن تبدل وسائل الإنتاج " . ويقول غاستون بوتول : " لقد نجح ماركس فى إظهار أهمية العلاقات القائمة بين هذه الوسائل والمؤسسات ، فهى تقوم فى الوسط الطبيعى وفى الحالة الغثية بقدر محتوم ومستقل عن إرادة البشر . وفى هذه النقطة يتخذ ماركس خطوة مضادة لخطوط هيجل القائلة بأن الفكر هو الذى يحدد التاريخ ، أما

ماركس فيقول بأن التاريخ ــ وبصورة خاصة منه البناء الاقتصادى ــ هو الذى يحدد الفكر . والفكر عنده ليس معنى من المعانى الميتافيزيقية ، بل هو المذاهب والمؤسسات السياسية والحقوق ، يقوم ذلك كله على أساس مادى. من هنا حملت نظريته اسم " المادية التاريخية " ، وينتج عن هذه النظرية حتميات متعددة منها :

١ــ ليس بؤس الطبقات الفقيرة ناجما عن خبث قائم فى طوية النفس البشرية المتسلطة ، بل هو ناجم ــ بعض الشئ ــ من وقوعهم تحت الميكنة الاقتصادية الطاحنة ، فهو بهذا ، نتيجة لتطور لا سيطرة للإرادة عليه.

٢ــ يتحدد سلوك البشر تبعا لمراكزهم وأعمالهم وانتماءهم إلى مختلف الأوساط الاقتصادية ، فهو تعبير عن مفاهيم طبقتهم .

٣ــ تنبأ بنهاية النظام الاقتصادى المعاصر له ، والقائم على المنفعة الفردية (الرأسمالية) ون هذه النهاية ستكون حتما على يد التقدم الفنى والتطور الاقتصادى ، وبخاصة تمركز الأعمال الصناعية .

٤ــ وهو مثل العلامة أوجست كونت القائل بأن المرحلة الإيجابية هى النهائية فى سلك التطور . بعد أن بين ماركس بأن كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية يحمل تناقضاته فى أطوائه لم يتحدث عن الدولة الاشتراكية التى تنبأ بها ولا عن الأشكال الطبقية التى ستتخذها.

٥ــ سبنسر ، هربرت (١٨٢٠ــ١٩٠٣ م) : Spencer, Herbert

هربرت سبنسر مهندس وكاتب وفيلسوف بريطانى ، كما أنه عالم

اجتماع ، وقد علم نفسه بنفسه ، وبالتالى كان تعليمه انتقائيا للغاية . وكان من بين الأوائل الذين عرضوا نظرية التطور ، ونشر كتابه المبادئ الأولى First Principles عام ١٨٦٠ ، وقدم إطارا للمعرفة الشاملة ، كما كتب بحثا عن فرض التطور Development Hypothesis عام ١٨٥٢ قبل سبع سنوات من نشر داروين لكتابه أصل الأنواع Origin of species حيث عرض إطارا لنظرية التطور العضوى ، واقترب من الفكرة القائلة أن مفتاح التطور قد يكون فى الصراع من أجل البقاء ، وكان عام ١٨٨٧ عاما لا ينساه سبنسر ، لأنه فى ذلك العام وصل إلى القانون الشامل للتطور الفيزيقى والعضوى والاجتماعى ، الذى يقضى بأن : " التقدم هو التحول من مرحلة التجانس إلى مرحلة التغاير " . أما كتابه المبادئ (١٨٧٤) فقد عدل ونقح من النظرية العضوية فى المجتمع وقدم شكلين مورفولوجيين اجتماعيين مع نظريته فى التطور الاجتماعى ، ويضم الكتاب ثروة من البيانات عن الأعراف والنظم الإنسانية ، ولكن قيمة سبنسر الدائمة ، حيث أشار إلى الوجود المشترك فى الحياة الاجتماعية . والواقع أن سبنسر ركز انتباهه على الوجود المشترك بين درجة عالية من النزعة العسكرية فى المجتمع وإخضاع النساء ، كما ركز انتباهه على الصلة بين الحكومة الاستبدادية والاتيكيت المنزلى الدقيق .

وقد انتشرت كتابات سبنسر فى بريطانيا إلى حد كبير ولكنها حازت شهرة أكبر فى أمريكا التى زارها فى الأيام الأخيرة من حياته . كان سبنسر الفيلسوف الشعبى فى عصره ، وإذا كنا لا نقرأ أعماله فى الوقت الحاضر إلا نادرا ، فإن هذا لا يرجع إلى أنه فشل فى علاج المشاكل التى عرض لها ، ولكن لأن عددا قليلا من مشاكله تعتبر من مشاكل علماء الاجتماع المحدثين .

٦ـ دوركايم ، أميل : Durkheim, Emile

ولد قرب مدينة ستراسبورج بفرن ١٨٥٨ ، تخـــرج مــن مدرســة Ecde Normale ، درس علم الاجتماع فى مدرســة بــردو Bordeaux ، وحاضر فى علم الاجتماع وفى التربية فى جامعة السربون Sorbonne مــن ١٩٠٢ حتى مماته ١٩١٧ .

كان مهتما بالسياسة الفرنسية طوال حياته وكــان اهتمامــه خاصــة بالبحث عن القيم والمبادئ التى يجب ن تكون أساسا للتعليم الفرنسى عندمـــا يكون قائما على أساس علمانى . وفى هذه الأمـــور ورث التقليــد الجمعــى للفكر الاجتماعى الذى يمثله سان سيمون وكونت ، وكـــان يعــارض بشــدة الأفكار الانفرادية عند هربرت سبنسر وغيره من أصحاب مذهـــب الفلســفة النفعية الإنجليز .

وفى أول كتاباته " تقســـيم العمــل " عــارض فكــرة أن المجتمــع الصناعى الحديث يمكن أن يقوم على اتفاقيات تعاقدية بيــن أفــراد تحركــهم مصالحهم الشخصية ، وبدون اتفاق جماعى مســبق . إنــه يــرى أن نــوع الاتفاق الجمعى فى المجتمع الحديث مختلف عنه فى المجتمعات ذات النظـــم الاجتماعية البسيطة ، ولكنه يرى أن كلا مـــن النوعيــن نمــاذج للتضــامن الاجتماعى.

إن الشكل البدائى " التضامن العضوى " قائم علـــى أســاس الوعــى الجمعى ، أما الشكل الحديث فقائم على أساس تقسيم العمل الـــذى لا تتمثــل وظيفته فقط فى زيادة منفعة وسرور الفــرد ، وإنمــا أيضــا فــرض نظــام أخلاقى . ويتمثل واجب علم الاجتماع فى رأى دوركايم فى دراسة الحقـــائق

الاجتماعية وليس الأفراد ، وأن الخاصيتين الأساسيتين للحقائق الاجتماعية هى :

أ ـ أنها خارجة عن الأفراد .

ب ـ أنها تمارس ضغطا على سلوكه .

والقانون من الأمثلة التى ساقها دوركايم فى كتابه " قواعد المنهج فى علم الاجتماع " ، لكى يوضح ماذا يعنى بالحقيقة الاجتماعية . ومن ملامح القانون أنه يتواجد منفصلا عن تطبيق الأفراد له ، ولذا فيمكن دراسته بعيدا عن الأفراد . ولكن هناك بعض الحقائق الاجتماعية التى ليست هذه الخاصية واضحة فيها ، وفى هذه الحالات فإن سلوك الفرد يكون متأثرا بحدث جمعى منتشر وأفضل ما يمكن أن يفعله عالم الاجتماع هو تسجيل آثاره فى شكل معدلات إحصائية .

ويعتبر كتابه عن الانتحار من أكثر أعماله الامبيريقية التى هدفت لتحقيق ذلك . حيث درس التباين فى معدلات الانتحار بين الجماعات المختلفة ، وحاول أن يفسر هذا فى ضوء الأحداث الجمعية أو شكل التضامن الاجتماعى . فتكرار حدوث الانتحار متسعة أكبر عند العسكريين أكثر منه عند المدنيين ، وعند الضباط أكثر منه عند أصحاب الرتب الأخرى ، أودى به إلى القول أن هذا الانتحار انتحار غيرى A ltruistc Sulcide تجرى الإنسانية فيه أن حياته الشخصية أقل أهمية من إذعانه لمعايير الجماعة .

ولكنه يرى أن زيادة حدوث الانتحار لدى البروتستانت عنه لدى الكاثوليك الرومان مرجعه لنظام اجتماعى يتطلب من الفرد العمل على

تخليص نفسه من الخطايا . وفى هذه الحالة يكون انتحـــار الفـرد انتحـــارا أنانيا Egoistic Suicide . وهناك علاقة واضحة بيـــن شـكل التضـــامن الاجتماعى فى كتاب " تقسيم العمل " وشكلى الانتحار . وناقش دوركايم فـــى الكتابين الحالة المرضية التى لا تكون فيها معايير اجتماعية تؤكد النظـــام أو توجد فيها معايير يتصارع بعضها مع البعض الآخر .

ويسمى دوركايم هذه الحالة الأنومى " الغربة " A nomie ، ويعتبر خطر الأنومى والأهمية التى يعطيها المجتمع لمنع حدوثه حجر الزاوية فـــى كتابات دوركايم السياسية . إنه يرى فى كتابه " الاشتراكية وسان ســـيمون " أن الفكرة الأساسية للحركة الاشتراكية لا تتمثل فى المطالبة بملكية عامـــة ، ولكنها تتمثل فى العمل ضد المعاناة الناتجة عن القرية " الأنومى " . ويـــرى أنه يجب أن يكون السلاح الرئيسى فى العمل السياسى الحديث إعادة النظـــام الاجتماعى الذى تكون فيه المعايير مفيدة وذات معنى للفـــرد الـــذى يشـــارك فيه.

وكمدرس للتربية اهتم دوركايم لتحليل طبيعة الإجبار الـــذى يجـــب أن تمارسه معايير المجتمع على الفرد . ولقد تغيرت فكرتـــه هـــذه وأصبـــح يفكر أكثر وأكثر لا في القوة الخارجية العمياء ولكن فـــى معـــايير أصبحـــت مدمجة فى النفس ، ورأى أن جوهر قوة المعايير يقع فى قدسيتها .

كما يرى فى كتابه الأخير " الأشكال الأوليـــة للحيـــاة الدينيـــة " أن مفهوم القدسية مشتق من خبرة الفـــرد مـــع المعـــايير الاجتماعيـــة . ومـــن الملاحظ أن النظرة الجمعية تود تفكير دوركايم كله ، أنه جمعى من الناحيـــة السياسية حيث أنه عارض مذهب الفردية . إنه جمعى من الناحية المنهجيـــة حيث يرى أن الحقائق الاجتماعية لا يمكن أن تحلـــل فـــى ضـــوء الســـلوك

الفردى . ويتعارض فكره السيولوجى هـذا مـع فكـر هربـرت سبنسـر ، وماكس فيبر ، وماركس . يتعارض مع سبنسر وفيبر لنـهما حـاولا تحليـل الحقائق الاجتماعية فى ضوء فعل الفرد ، أما عـن مـاركس فيختلـف مـع دوركايم من حيث أنه يرى أن هدف السياسة هو تحرير الإنسان من القيـود والضغوط عن طريق قوى اجتماعية خارجية .

٧ـ فيبر ، ماكس (١٨٦٤ـ١٩٢٠) : Weber, Max

ولد ماكس فيبر فى إرفورت Erfurt بثيرنجيا Thuringia وعـاش معظم حياته المبكرة فى برلين . كانت دراساته الأولى فى مجالات القـانون وتاريخ القانون ، ولكنها اتسعت لتشمل جوانب أخرى كثـيرة مـن الفنـون والعلوم الاجتماعية . وقد شغل كراسى الأستاذية فـى جامعـات فرايـبرج Freiburg ، وهيدليبرج Heidelberg ، وميونيخ Munich .

وهناك ثلاثة أفكار تكون جوهر إسهام فيـبر فـى منـاهج العلـوم الاجتماعية :

أولا : مبدأ إمكان رد المفاهيم السوسيولوجية إلى أفكـار الأفـراد ، ويتعلق هذا المبدأ بتفسير معنى الكلمات التى تشير إلى الظروف والأوضـاع الاجتماعية فى ضوء أفعال الأفراد . وبعد أن صاغ فيبر مبدأه جعله قانونـا منهجيا . ولقد كان المفكرون الصادقون يستخدمونه دائما ، ولاشـك أن هـذا الجهد يمثل خطوة هامة إلى الأمام ، لأنه ميز تمامـا بيـن عمليـة الحـدس وعملية التفكير .

كان مبدأ المتحرر من القيمة Vetfreiheit أو الحيـاد الأخلاقـى أو مبدأ عدم التقييم يفسره المفكرون على اعتبار أن عالم الاجتماع ليس لـه أن

يبالى بأمراض الإنسانية . وعلى أى حال من الأفضل النظر إلى هذا المبـــدأ باعتباره قاعدة منهجية ، وكمؤشر لتصنيف القضايا ، ومـــن الطبيعـــى أنـــه عند النظر إلى الوزن الانفعالى لكل الكلمات التى تصف العلاقات الإنســانية يتبين لنا أن التمسك الدقيق بهذا المثال أمر مســتحيل ، كمــا ينطبــق نفــس الأمر على المثل الأخرى كالاطراد المنطقى أو الوضوح وهو أمــر يتمســك به العالم كله ، ولو أنه يمكن الوصول إليه مـــن وقــت لآخــر . إن صــدق القاعدة المنهجية ليست مسألة صدق ، بل مسألة منفعـــة ، والقــاعدة حســب التعريف لا يمكن أن تكون حيادية .

ثانيا : ومن المفاهيم التى ركز عليها مفهوم النمط المثالى ، ولاشـــك أن سمو فيبر وتفوقه يرجع إلى قدرته الفائقة فى وضع واقـــتراح تعميمـــات استقرائية ، لقد قارن بين الأبنية الاجتماعية ووظائفها ، ولاحظ الاختلافـــات القائمة بينها بنفس دقة ملاحظته لأوجه الشبه ، وحاول ربـــط كـــل خاصيـــة بسياقها البنائى . وعندما يفتقر إلى المعلومات عن بناء المجتمع الـــذى يـــهتم به ، يبذل جهودا جبارة لاستخراجها من مصادرها . وعلى الرغم من كثـــير من الأخطاء الخطيرة التى ارتكبها ، فـــإن دراســـاته عـــن الصيـــن والـــهند وإسرائيل كتحليلات وظيفية لهذه المجتمعات لا نظير لها حتـــى الآن . كمـــا كشف عن أصولها الداخلية ، وأوضـــح الاعتمـــاد المتبـــادل بيـــن الثقافـــة والمجتمع . كما أن كتاب فيبر " العلاقات الزراعية فى العصـــور القديمـــة " ١٩٠١ مازال كتابا فريدا ، لأنه ليـــس تاريخـــا اقتصاديـــا وليـــس تاريخـــا اجتماعيا (كما هو مفهوم بصفة عامة) ولا تاريخـــا سياســـيا ولا عســـكريا ، ولكنه بحق تاريخ بنائى ، يوضح كيفية تـــأثير التغـــيرات الاقتصاديـــة فـــى التدين، وكيف أن حركة الابتكارات تحدث تحولات فى التدرج الاجتمـــاعى، وكيف أن توزيع القوة السياسية عاق نمو الرأســـمالية وغـــير ذلـــك . وقـــد

حاول دائما دراسة العلاقات الدينامية بين الجوانب المختلفة من الحياة الاجتماعية .

وقد درس ماكس فيبر التاريخ أساسا من أجل عقد المقارنات ، كما اهتم بدراسة الحالات الفردية التى تتناول مواقف متباينة واستخلص منها تعميمات أو إشارات إلى إمكان استخلاص التعميمات ، ولم يكن فيبر أول عالم يلجأ إلى المقارنات لكى يصل إلى تعميمات ، ولكنه أوضح بصورة ـ لا يفوقه فيها أى كاتب آخر ـ أن المعرفة عن المجتمعات الأخرى والقدرة على المقارنة تساعد كثيرا على تحليل أى مجتمع محدد ، كما يكشف بصفة خاصة عن العلاقات السببية ويمكن قياس عظمة فيبر بوفرة الفروض بالغة الأهمية التى تتضمنها كتاباته والتى يصلح كل منها لأن يكون موضوعا لكتاب إذا درس فى ضوء البيانات المقارنة المتوافرة فى الوقت الحاضر .

ثالثا : وقد تركزت أعمال فيبر على الظروف التى أتاحت الفرصة لنشأة الرأسمالية . وقد نشأ هذا الاهتمام مباشرة من تأثير ماركس عليه ، كما أنه مشترك بين كثير من العلماء ، وبخاصة فى المانيا . وقد ترجع أصالة المدخل الذى اتبعه فيبر إلى شئ بسيط للغاية ، فمن أجل اكتشاف أسباب قيام الرأسمالية هناك علماء آخرون درسوا عملية نمو الرأسمالية بشئ كثير من التفصيل ، ولكنهم اكتفوا بالاهتمام بأوروبا الغربية . أما فيبر فقد أدرك أن إلقاء الضوء على المشكلة يأتى عن طريق التركيز على الحالات حيث فشلت الرأسمالية . ولاشك أنها فكرة رائعة كما نفذها بصورة رائعة ، ولذلك فإن هذا المدخل أصبغ على كتابات فيبر طابعها الفريد ، كما أن منهج المقارنة أنقذه من زلات وقع فيها كثيرون غيره : فقد أدرك أنه لا الرغبة فى الكسب المالى ، ولا التراكم الضخم للثروة

السائلة كانت أمورا خاصة بالبلاد التى ظهرت فيـــها الرأســمالية وحدهـــا ، ولذلك لا يعتبرها من بين العوامل العامة .

لم يسهم شئ فـــى شــهرة فيـبر مثــل مقالــه عــن الأخلاقيـات البروتستانتينية ونشأة الرأسمالية ، ولو أنه لا يحتوى على العنصـــر البنـائى الذى يميز كل أعماله . وعلى أى حال لـــم يـدع فيـبر فـــى أى مكـــان أن الأخلاقيات الكالفنية كانت السبب الوحيد فى نشأة الرأسمالية ، وحتى عندمـــا بالغ فى وصف تأثير المعتقـدات الدينيـة فـــى التحديـد المباشـر للسـلوك الاقتصادى فقد أدرك أن التأثير يسير فى اتجـــاهين : فـــهو يفسـر تنـاقض وانهيار الرأسمالية فى العالم القديم فى ضوء أبنية القوة دون الإشـــارة إلـــى الأخلاقيات الاقتصادية كعامل مستقل .

٨ـ مانهايم ، كارل (١٨٩٣ـ١٩٤٧) : Mannheim, Karl

عالم اجتماع مجرى ، أقام فى إنجلترا وله إســهامات رئيسـية فـــى علم اجتماع المعرفة . وفى كتابه " الأيديولوجيا واليوتوبيـــا " Ideaology and Urtopia الصادر عام ١٩٢٩ (والذى تــرجم إلـــى الإنجليزيـة عـام ١٩٣٦) يوضح أن المعرفة وهى وظيفية فى تكيـــف الإنسـان مـــع بيئتـه تختلف باختلاف البيئات . فالمعرفة تتباين بتباين الطبقات ، لأن لكـــل طبقـة بيئتها الخاصة بها .

وقد ذهب مانهايم إلى أنه هناك نوعـــان مـــن المعرفـــة : المعرفـــة الحقيقية القائمة على أساس المعايير العلمية والمعرفـــة المرتبطـــة بالطبقـــات كالدين والفلسفة والمعرفة التقليدية ، كما أن مجموعات الأفكـــار المســـتخدمة فى ترقية المصالح والدفاع عنها تتكون من نوعين ، أما النوع الأول : فـــهو

الأفكار الخيالية وهى الأفكار التى تعمل علــى ترقيــة مصــالح الجماعــات الدنيا ، والتى تحدد أهدافها الاجتماعية فى المستقبل ، وأما النـــوع الثــانى : فيتمثل فى الأيديولوجيا وهى تلك الأفكار التى تدافع عن مصالح الجماعـــات العليا أو الجماعات المحظوظة . ثم اتجهت أبحاثــه الأخــيرة إلــى معالجــة مشكلة إعادة بناء مجتمع حطمته الحرب ودمرته .

ثالثا : أنماط الخرائط النظرية فى علم الاجتماع :

تتمثل النماذج التى تتضمنها النظرية فى علم الاجتمــاع فــى ثلاثــة مجموعات من النماذج هى :

المجموعة الأولى : النماذج الإدراكيـــة ، أو النمــاذج التصنيفيــة . ومن أمثلتها تفرقة تونيز بين الجماعات والمجتمــع وبيــان خصــائص كــل نموذج بالمقارنة بالنموذج الآخر ، وكذلك التفرقة التى قدمها " ردفيلد " بيـــن المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة .

المجموعة الثانية : النماذج القياسية ، وفيها يتم مضاهــاة مجموعــة من الظواهر الاجتماعية بأخرى مشابهة ، إما مـــن نفــس أنــواع الظواهــر الاجتماعية أو بأخرى ترتبط بعلوم غير علم الاجتمـــاع ، أى أنـــه نمــوذج يسلم بالتشابه بين الظواهر من حيث قدرتها على الجذب والتــأثير كظــاهرة الهجرة وعنصر الجذب فى نطاقها ، وظاهرة الجذب لدى نيوتن فـــى العلــم الطبيعى .

المجموعة الثالثة : النماذج الشـــكلية ، وتعنــى بالأبعــاد اللفظيــة التحديدية ، كأن يعنى " روبرت ميرتون " فى نموذجـــه للتحليــل الوظيفــى

بالحاجات والمطالب الأساسية للأنساق ويقترح تسميتها بالاستجابة الوظيفية أى استجابة النسق للحاجات والمطالب التى تحقق استمراره . ويذهب إلى أن تحليل الأنساق يجب أن يعنى بإبراز وظائفها الظاهرة والكامنة معا . ويدخل فى نطاق النماذج الشكلية النموذج البنيوى الذى يهدف إلى إبراز علاقات الترابط بين نظم نسق اجتماعى معين والخصائص اللغوية لهذا النسق . كذلك يؤخذ النموذج الجدلى مثالا للنماذج الشكلية ، حيث يدخل فى اعتباره التغيرات الأساسية للتناقضات والصراعات عند تحليل النظم والعمليات الاجتماعية .

وإذا كان التمييز فى علم الاجتماع بين أنماط النظرية الاجتماعية يجرى فى ضوء فائدتها أو نفعها بوجه عام ، فإن علماء الاجتماع يميزون فى إطار خرائط التنظير فى علم الاجتماع بين نمطين بارزين :

الأول : نمط التنظير " الميكرو " Microtheoretical .

الثانى : نمط التنظير " الماكرو " Macrotheoretical .

ويقصد بنمط التنظير " الميكرو " النظريات التى وضعت من أجل توجيه البحوث السيولوجية التى تتناول قضايا صغرى ذات إطارات محدودة صغيرة ، كأن يعنى الباحث مثلا بالوقوف على كيفية تعلم الأبناء قواعد وآداب السلوك ، أو كيف يتخذون قرارا يتعلق بأعمالهم وأدوارهم فى الحياة ، أو كيف يقابلون صور عدم المساواة أو الإحباط أو التمييز والتعصب المحيط بهم .

ويقصد بنمط التنظير " الماكرو " النظريات التى تتناول قضايا كبرى أو ذات مدى أو إطار واسع كبير وفيها نجد الباحث يعنى أساسا

بالوقوف على الكيفية التى نشأت بها المجتمعات وتطورت ، والمراحل الحضارية التى مرت بها ، أو بيان العلاقة القائمة بين سائر العمليات الاقتصادية والسياسية فى مجتمع من المجتمعات ككل ، أو الوقوف على نتائج التباين الطبقى أو الصراع العرقى فى مجتمع بكامله .

وقد ذهب " روبرت ميرتون " إلى أن هناك نمطا ثالثا من أنماط الخرائط النظرية فى علم الاجتماع يمكن استخدامها فى البحث السسيولوجى المعاصر هى نظريات المدى المتوسط Intermediate level of analysis ويقصد بها النظريات التى تعنى برصد الظواهر الاجتماعية التى تقع بين مستوى الظواهر ذات المدى الصغير وتلك ذات المدى الكبير .

وقد أشار ميرتون إلى ذلك النمط من النظريات تحت اسم نظريات المدى المتوسط Theories of the Middle range .

وتوجه تلك النظريات الباحث نحو الاهتمام بتحليل وتفسير مجموعات من الجماعات أو النظم أو الظواهر الاجتماعية . ومن ثم تساعدنا على دراسة الظواهر المتوسطة الحجم ، كدراسة الآلية السياسية لمدينة من المدن . ويرى " ميرتون " أن هذا المستوى من النظريات يفيد الباحثين فى حالة عجز التوجه الميكروسكوبى أو التوجه الماكروسكوبى عن تقديم الفهم الدقيق لموضوع من الموضوعات . ويعتقد " ميرتون " أننا إذا جمعنا فى دراستنا لموضوع ما بين المستويات الثلاثة للخرائط النظرية فى علم الاجتماع ، أى بين نظريات المدى المتوسط ونظريات المدى الصغير ونظريات المدى الكبير ، نكون قد أقمنا خريطة تنظرية ماكروسكوبية متكاملة تعيننا على دراسة صور عديدة من الظواهر الاجتماعية.

ويتضح مما تقدم أن خريطة النظريـــة الاجتماعيـــة تعـرف ثلاثــة توجهات أو أنماط ، توجه النظريـــات الصغـــرى ، توجــه النظريـــات ذات المدى المتوسط ، وتوجه النظريات الكبرى . ويمكن تمثيـــل هـــذه الخرائــط بفرد يمسك بخريطة مدينة ليصل إلى منزل فرد ما ، وآخر يمسك بخريطـــة محافظة أو إقليم ليصل إلى هيئة قريبة منه ، وثالث يمســـك بخريطـــة دولـــة ليخطط لرحلة تطوف أنحاء الدولة كلها .

وإذا كان التمييز بين أنماط النظريات تبعا لمستوى وحـــدة التحليـــل (أى حجم الظاهرة التى تدرس ومداها) أمرا قائمـــا وشـــائعا فـــى الكتابـــات السسيولوجية المعاصرة ، فإن هذا التمييز يرفضه البعـــض . ويـــأتى علـــى رأس المعارضين لهذا النمـــط التصنيفـــى " رايـــت ميلـــز " الـــذى رأى أن خريطة التنظير الجيدة هى تلك التى تسمح بالربط بين الأحداث الاجتماعيـــة (الظواهر والمشكلات) على المستويات الصغرى والكبرى معـــا . ومـــؤدى ذلك أن الخرائط السسيولوجية اجيدة هى تلك التـــى تســـاعدنا علـــى رؤيـــة الأفراد اجتماعيا فى ضوء القوى المجتمعية الأكبر والأحداث العامة القائمـــة الجارية من حولهم .

ويقرر " ميلز " أن النظرية السسيولوجية عليـــها أن تســـاعدنا علـــى رؤية الظروف والأوضاع الشخصية وردها إلى القضايا والأوضاع الكـــبرى أو العامة . وبمعنى آخر عليها أن تساعدنا فـــى رؤيـــة مشـــكلات الأفـــراد ودوافعـــهم واهتماماتـــهم أو توجهاتـــهم فـــى علاقتـــها بالجماعـــة الأكـــبر وبالمؤسسات أو الأحداث المجتمعية الكبرى والأشمل .

ويتسنى القول فى ضوء منظور " ميلز " أن خريطة التنظـــير ليـــس عليها مجرد توجيه الباحث إلى الموضوع الذى يتناوله ، كأن يحـــاول فـــهم

كيف تؤثر التقلبات فى الأوضـــاع الماليــة العامـــة علـــى مســـألة القبـــول بالجامعات أو المناهج الدراسية فيها ، بل يتعين عليها أن تلعـــب دورا آخـــر لمساعدته على فهم كيف تؤثر التغيرات التى تطرأ علـــى سياســـات القبـــول والبرامج التعليمية بالجامعات التى تعايش التغـــيرات فـــى الشـــئون الماليـــة العامة ، على الأهداف التربوية للفرد ودوافعه وطموحاته وتطلعاته .

ومؤدى ذلك أن النظرية الاجتماعية فى رأى " ميلز " هى تلك التـــى تشير أو تنبه إلى مواقع التقاطعات بين العناصر التـــى تصـــل بيـــن حياتنـــا الشخصية كأفراد أو جماعات صغيرة والمجتمع الأكبر الذى يحيط بنا (١) .

---

(١) David Michael Qrenstein op cit PP 50-51

الفصل الرابع

الاتجاهات التنظيرية فى علم الاجتماع

الفصل الرابع
الاتجاهات التنظيرية فى علم الاجتماع

يتضمن بناء الفصل الحالى تناولا لأربعة عناصر أساسية تحقق الغاية من تقديم الاتجاهات التنظيرية للدارس والباحث المهتم بالتعرف على تصورات المنظرين فى علم الاجتماع للقضايا المحورية التى تشكل لب المسألة الأساسية فى الحياة الاجتماعية ، ومن ثم يرتبط بها مستقبل الإنسان داخل مجتمعه . وتتدرج العناصر الأربعة تدرجا منطقيا إنمائيا فى نفس الوقت ، حيث نحاول الوقوف فى العنصر الأول على مشكلة تصنيف التراث النظرى فى علم الاجتماع والمعايير الحاكمة لهذا التصنيف والتوجهات الغالبة على الجهود التصنيفية .

وننتقل بعد ذلك إلى تقديم تصور لأنماط الاتجاهات الغالبة لنظرية علم الاجتماع ، وهى تتوزع بين اتجاهات ثلاثة عامة هى : الاتجاهات الوضعية ــ البنائية ، ثم الاتجاهات الراديكالية النقدية ، ثم يأتى الاتجاه أو المنظور الإنسانى فى علم الاجتماع ليشكل الاتجاه الثالث . وسوف نسعى داخل كل اتجاه إلى الوقوف على أبرز التوجهات النظرية داخله .

وبعد عرض هذه الاتجاهات ننتقل إلى تقديم رؤيتين لواقع النظرية فى علم الاجتماع ، وتتمثل الأولى فى العلاقة بين النظرية الاجتماعية فى ميدان التربية وتوظيفها ، وتتمثل الرؤية الثانية فى تعيين أسس تقييم النظرية الاجتماعية بوجه عام .

وغنى عن البيان أن هذا الطرح يسعى إلى تقديم تعريف بأبرز

الاتجاهات النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع للوقوف على القضايا الأساسية التى طرحتها كل نظرية وتصوراتها المختلفة لكيف يستطيع المجتمع أن يحقق الغايات التى لا تحكم ذهن المنظر كفرد إنما تحقق غايات المجتمع فى علاقته بأبنائه باعتبارهم طاقات إنسانية يتوقف عليها أصلاً بقاء المجتمع وإمكانية نموه وتطوره .

أولاً : تصنيف الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع :

عرف علم الاجتماع مجموعة كبيرة من النظريات المتصارعة ، الأمر الذى جعله يفتقر إلى إطار من القضايا المتسقة أو المتجانسة أو الاصطلاحات الصادقة التى يتفق عليها علماء الاجتماع والتى تسمح بعرض الوقائع المعروفة والتعميمات بوصفها اشتقاقات منطقية لمبادئ محدودة ، هذا ما انتهى إليه " تيماشيف " وما وافقه عليه البعض ، حيث أن الكتابات التى تركها علماء الاجتماع لا تكون بناء واحداً متماسكاً ، بقدر ما تمثل مجموعة متباينة وعديدة من التوجيهات النظرية الأساسية ، مما يصدق معه قول البعض الآخر أنه لا يوجد فى علم الاجتماع نظرية موحدة يمكن أن تؤدى الأغراض المطلوبة بفعالية كأداة للتنسيق والتكامل بين معظم المعارف التعميمية المتوافرة فى علم الاجتماع .

ولقد ترتب على هذه الظروف أن ظهرت مشكلة تصنيف هذا التراث النظرى فى علم الاجتماع . وعندما أخذ علماء الاجتماع الذين اهتموا بالتاريخ والتأصيل المنظم لنظرية علم الاجتماع يواجهون هذه المشكلة كل بطريقته الخاصة ، حيث اختفى الإجماع على المعيار الذى يجب أن يقوم عليه تصنيف التراث النظرى فى علم الاجتماع . فقد صنف البعض النظريات إلى مدارس محدودة تقوم على نماذج الحلول النظرية

للمشكلات الأساسية ، وحاول بعض ثـان عـرض النظريـات ومعالجتـها حسب السياق التاريخى لظهورها ، وحاول بعض ثالث عـرض النظريـات وفقاً للمناطق الجغرافية التى ينتمى إليها مؤلفوها ، أما الفريق الرابع حـاول الجمع بين طريقتين أو أكثر من الطرق السابقة فـى عـرض نظريـة علـم الاجتماع ، إذ حاول " تيماشيف " ـ على سبيل المثـال ـ أن يجمـع بيـن طريقة تصنيف النظريات إلى مدارس وبين طريقة معالجة هـذه النظريـات فى السياق التاريخى لظهورها .

وبغض النظر عن العوامل التى أدت إلى عدم الاتفاق بين البـاحثين فى هذا المجال ، فإنه بالإمكان أن نأخذ أحد الأمثلة الحديثـة علـى محاولـة تصنيف نظرية علم الاجتماع ، يستند فى تمييزه بين هـذه النظريـات إلـى تصورات مؤلفيها للطابع العام والأغراض الأساسية لعلم الاجتمـاع كميـدان للبحث الفكرى المنظم .

وعلى أساس هذه القـاعدة يحـدد التصنيـف المقـترح للنظريـات السوسيولوجية الفئات أو المقولات الرئيسية التالية :

١ـ النظرية السوسيولوجية الوضعية التى تتناول علم الاجتمـاع علـى أنـه علم طبيعى . ٠

٢ـ علم الاجتماع التفسيرى ، الذى يتناول علم الاجتمـاع باعتبـاره علمـا اجتماعياً يناقض العلوم الطبيعية .

٣ـ النظريات الاجتماعية التقويمية أو غير العلمية ، التى لا يعالج مؤلفيـها علم الاجتماع على أنه علم وضعى وتفسيرى [١]

(١) على جلبى ، مصدر سابق ، صفحات ١٠٧ ـ ١٠٩

وإلى جانب الرؤية التصنيفية السابقة لنظرية علم الاجتماع وجدت رؤية حاولت تصنيف نظريات علم الاجتماع من خلال تصور كلاسيكى تقليدى لها . وقد صنفت النظريات إلى مدرستين من مدارس الفكر ضمت كل منها عدداً من النظريات هى :

١ـ المدرسة التطورية Evolutionary School .

وهى تضم أربعة نظريات هامة هى :

أ ـ النظرية التطورية الكلاسيكية .
Classical Evolutionary Theory

ب ـ النظرية العضوية Organismic Theory .

جـ ـ نظرية النمط الواحد Unilinear Theory .

د ـ النظرية التطورية الحديثة Neovolutionary Theory .

٢ـ المدرسة الوظيفية The Functionalist School .

وهى تضم بدورها أربعة نظريات هى :

أ ـ نظرية النسق System Theory .

ب ـ نظرية الهوة الثقافية Cultural Lag .

جـ ـ نظرية الأيكولوجيا البشرية Human Ecology Theory .

د ـ نظرية التوازن وعدم التوازن .
Equilibrum and Disequilibruim Theory.

ومن بين محاولات التنميط المعاصرة للنظرية الاجتماعية ، ذلك الاتجاه الذى يوزعها بوجه عام بين مدرستين كبيرتين مسيطرتين ؛ الأولى مدرسة الضبط والنظام ، والثانية مدرسة القوة أو الصراع ونحاول فيما يلى استعراض كل من هاتين المدرستين بشئ من التفصيل

أولاً : مدرسة الضبط أو النظام :

يكاد يؤكد أغلب الدارسين لحركة التراث النظرى لعلم الاجتماع أن حركة النقد الاجتماعى التى سادت أوروبا مع بدايات العصور الحديثة والتى كانت تهدف إلى تحقيق النظام هى الباعث لظهور الكتابات السسيولوجية المبكرة . فقد أدان رجل القانون الإنجليزى " ادموند بروك E. Bruke " ، والكاثوليكى الفرنسى المحافظ " لويس دى بونالد " الثورة الفرنسية ووصفاها بأنها كانت ضد القانون الطبيعى ؛ فبدلاً من أن تكون عودة للطبيعة كانت قسراً وتقويضاً للقانون الطبيعى . فقد نظر " بروك " للدولة والمجتمع فى كله على أنه كائن عضوى ظهر عبر مرحلة طويلة من الزمان ، وهو بحكم هذه الطبيعة العضوية يتعين ألا يعبث بالإنسان.

يرى " بروك " أن المجتمع هو شركة ليس فقط بين من هم أحياء، بل بين الذين اندثروا وأولئك الذين سيولدون . ويحاكى " دى بونالد " هذا الاتجاه مؤكداً أن الإنسان يولد داخل مجتمع ويصبح جزءاً فيه . والمجتمع ما هو إلا النظام الطبيعى له ويقرر أن الثورة الفرنسية أباحت العنف ضد النظام المقدس .

إن المجتمع هو أكبر من مجموع أجزائه المكونة له ، فالإنسان ــ تبعاً لما يرى دى بونالد ــ يوجد فى المجتمع ويعيش من أجله . وأن التوحد والاتفاق حول القواعد الاجتماعية أمر من الأمور المقدسة . وترتيباً على ذلك فإن السلوك غير المسئول والضال من شأنه أن يخرب النظام الطبيعى للأشياء . إن التوحد Conformity هو ثمن العيش فى المجتمع، وأن الصحة الاجتماعية تتجلى فى الاستقرار وعدم تقلص أو اهتزاز النظام. إن الجسم البشرى لديه من الميكانيزمات ما يمكنه من العودة من

حالة الحاجة إلى حالة التحقق والإشباع ، ويسمى علماء الحياة هـذه العمليـة باسم Homeostasis أى الاتزان البدنى .

ولقد تناول علماء الاجتماع الأول المجتمع باعتبـاره جسـماً بشـرياً كبيراً، ومن ثم فإن المجتمع ، تبعاً لذلك ، يخضع لعملية التوازن العضـوى. فقد تطور وانتقل من حالة اللاتوازن إلى حالة التـوازن أو التـلاؤم ، ويعـد التوازن الاجتماعى Social equilibrium هو الحالة المثالية . فقـد حـدد "هربرت سبنسر " وظيفة كل جزء فـى المجتمـع فـى تحقيـق التـوازن . فوظيفة المحاكم والمجالس التشريعية القضـاء علـى عـدم المسـاواة بيـن الجماعات.

ولقد ذهب " اميل دوركايم " إلى تقرير أن التوازن هو الحالـة التـى يتفق فيها الأفراد ويتوحدوا حول القواعد والأخلاق . وقد أطلق علـى هـذه الحالـة اسـم التكـامل الاجتمـاعى Social integration أو التماسـك Consensus . ويقرر أن التكامل أمر ضرورى لاستمرار وقيام المجتمع.

فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى وقت من الأوقات هى التـى تحـدد القواعد والأفكار التى من شأنها أن تخلق التماسـك الـذى يجعـل المجتمـع مترابطاً ، ويتعين ــ وبعد أن فقدت الكنيسة قوتها بعد الثـورة الفرنسـية ــ أن توجد هيئة من شأنها أن تقضى على التباينات داخـل المجتمـع ، أى أن توجد التماسك الذى بدونه ينحل المجتمع . وقد شعر " دوركـايم " أن علـى علماء الاجتماع أن يقدموا القواعد التى يمكـن أن يؤسـس عليـها تماسـك جديد.

ولقد ورث البنائيون الوظيفيون كثيراً من المقولات الأساسـية التـى

جاءت بها مدرسة النظام . فقد تصور البنائيون الوظيفيون عند نهاية القـــرن التاسع عشر ، المجتمع كوحدة تتركب من عدد مـــن الأجــزاء المتداخلــة ، وأن أى تغير يطرأ على أى جزء من أجزاء المجتمع تمتد آثاره إلـــى ســائر الأجزاء المكونة للمجتمع ، أى أنها تؤثر فى المجتمع كله .

وتقوم الفرضية الأساسية للمدرسة البنائية الوظيفية على أن كل بنـــاء أو مجموعة من الترتيبات الاجتماعية التى توجد عـــبر الزمـــن ، يجــب أن تقوم ببعض الإسهام فى تحقيق استمرار المجتمع . ولقـــد قـــرر " روبـــرت ميرتون " أن كل أجزاء المجتمع لا تسهم فى الواقع فى اســـتمرار المجتمـــع. ووصف بعض الأنشطة بأنها أنشطة معتلة وظيفيا ، وهى تؤدى إلـــى تكيــف واستقرار المجتمع ، ورأى أن وظيفة علماء الاجتماع هى بيان الدور الـــذى يمارسه كل جزء ، وإلى أى حد ينسجم هذا الدور فى إطار النسق الكلى .

وفيما يلى مجموعة التصورات الأساسية التى تقوم عليـــها مدرســة النظام التى تولدت ــ كما سبق أن بينا ــ كرد فعل للثورة الفرنسية :

١ــ القواعد عناصر أساسية للحياة الاجتماعية .

٢ــ يتعين أن يتوحد الأفراد مع المجتمع الذى يعيشون فيه .

٣ــ تعتمد الحياة الاجتماعية على وحدة الجماعة .

٤ــ الحياة الاجتماعية مؤسسة على التعاون .

٥ــ تعتمد الأنساق الاجتماعية على الاتفاق حول القواعد .

٦ــ يدرك المجتمع سلامة السلطة .

٧ــ تتجه المجتمعات إلى البقاء والاستمرار خلال الزمن .

ثانياً : مدرســـة الصـــراع :

اهتزت تصورات أنصار مدرسة النظام الاجتماعى ، عندما حطمــت الحشود حصن الباستيل ، مما أسهم فى ظهور منظور الصـــراع فــى علــم الاجتماع .

فقد تابع الفلاسفة الألمان الثورة الفرنسية بشــعور مختلــط . فرغــم أنهم استهجنوا عدم النظام ولا عقلية عهد الرعب الذى نجــم عــن تحطيــم النظام القديم ، فإن جوانب عديدة أثرت بشكل بالغ فــى الفلســفة الألمانيــة ، على مدى قرن من الزمان ، وخلقت الخلفيات التى أفـــادت كتابــات كــارل ماركس، بل وخلقت ما أصبح معروفاً باسم منظور الصراع Conflict .

فقد أراد المثاليون الألمان فى القرن التاسع عشر وبخاصة " جــورج هيجل " أن يستمر عمل الثورة الفرنسية بعيداً عن ما أصابها مــن فشــل . إذ يرى " هيجل " أن الإنسان ممثل فى دراما التاريخ . فهو يحــاول أن يقــرب النص للحياة ، وهو فيما يفعله ــ فى الواقع ــ يقدم مثلاً وقيماً وينشأ نتيجـــة الحوار والجدل بين هذه المثل والقيم شكلان من أشـــكال المعرفـــة . وكلمـــا احتدم الجدل زادت هذه المعرفة . وقد أطلق " هيجل " على عملية تصـــارع أنساق الأفكار اسم العملية الدياليكتيكية . حيث يؤكـــد " هيجــل " أنـــه عــن طريق صراع الأفكار المستمر ، وحلول أفكار جديدة أفضل وأرقـــى محــل القديمة، سوف يغدو الإنسان قادراً على إدراك عقل الله Mind of God .

ولقد رحب " هيجل " بالصراع عكـــس أنصـــار مدرســـة النظـــام . وذهب إلى أن الصراع ضد القديم كان حسناً وأدى إلى تحقيق قـــدر ملحـــوظ من التحسن الاجتماعى ومن ثم فإن التقدم يتحقق عـــن طريـــق الصـــراع

وحده . ويرى " هيجل " أن هناك قانوناً طبيعياً ، ويتجه تاريخ الإنسان صوب كشف هذا القانون وأخذ الشكل الذى يقره . ووظيفة الفيلسوف هنا كشف ما هذا القانون ووصفه . يجب أن يوضع ما هو قائم إلى جانب ما ينبغى أن يكون . ومن ثم فإنه فى إطار هذا المعنى أضحت الثورة الفرنسية أمراً هاماً . إن الحشود الباحثة عن الطرقات عبر الحرية ، يقرر "هيجل" ، كانت تحاول وضع ما هو قائم إلى جانب ما ينبغى أن يكون . ومشكلة الثورة الفرنسية فى تقدير " هيجل " تتمثل فى أن الجماهير فى فرنسا لم تستطع رؤية أو قراءة النص .

وقد كتب " كارل ماركس " أن الفلاسفة وصفوا العالم وواجبنا أن نغيره . إن قواعد الفلسفة كانت عاجزة أو غير كافية للقيام بهذا العمل . وإذا كان المثاليون الألمان متأثرين كلية بقوة وواقعية المنطق والأفكار ، فقد كان ماركس مأخوذاً إلى حد بعيد بقوة التكنولوجيا والجماعات الاقتصادية التى أوجدتها . وقد آمن بأن الحقيقة هى فى عالم الأشياء وليست فى الأفكار . إن الجماعات الاقتصادية المتعارضة هى الأمر الهام وليست الأفكار . وقد أطلق على عملية الصراع هذه اسم الدياليكتيكية المادية. وتتضمن المادية التاريخية صراعاً بين جماعتين لهما اهتمامات اقتصادية متباينة . فهناك طبقة تأتى فى المقدمة وتمتلك معظم الموارد والإمكانيات المادية ، وهذه الطبقة هى الطبقة الحاكمة ، ومن لا يملكون شيئاً هم الطبقة المستغلة وتسرق الطبقة الحاكمة هؤلاء الذين يأتون فى قاع السلم الاقتصادى . ويرى أن الطريق الوحيد الذى يمكن أن تحسن به الطبقة المستغلة أوضاعها إسقاط الطبقة التى على القمة .

ويعد التاريخ فى نظر " ماركس " معركة بين تلك الوحدتين ويرى " ماركس " وأتباعه أن الإنسان خيِّر بطبيعته ، وأن الظروف

الاجتماعية المحيطة به فقط ، هى التى جعلته شيطاناً . ويزعم الماركسيون أن مصدر الصراع هى حاجة الإنسان الأساسية للبقاء فى ظل ظروف الندرة أو العوز السائدة . وقد خلق هذا العوز عدم المساواة الاقتصادية بين الجماعات ، فدائماً ما تكون هناك جماعة تحتكر القوة والثروة والنفوذ ، ومن ثم يضحى من لا يملكون لا القوة ولا الثروة ولا النفوذ فى حالة من حالات التغلب على سوء التوازن ذلك . وحتى يتسنى تحقق الصحة الاجتماعية ــ تبعاً للفكر الماركسى ــ يجب أن يمنح الإنسان الفرصة لتحقيق حاجاته ومطالبه والقوة فى المجتمع .

ويمكن أن نحدد أهم التصورات الأساسية التى تقوم عليها وجهة نظر منظرى الصراع فيما يلى :

١ــ المصالح هى عناصر هامة للحياة الاجتماعية .

٢ــ تتضمن الحياة الاجتماعية معنى التماسك .

٣ــ تتضمن الحياة الاجتماعية جماعات ذات مصالح مختلفة .

٤ــ تولد الحياة الاجتماعية التعارض والعداء .

٥ــ تولد الحياة الاجتماعية الصراع .

٦ــ تتضمن التباينات الاجتماعية القوة .

٧ــ الأنساق الاجتماعية ليست متحدة ومتناغمة .

٨ــ تميل الأنساق الاجتماعية للتغير [1] .

---

(١) احمد النكلاوى " المدخل السسيولوجى للاعلام " . نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٦ صفحات ٢٤٥ـ٢٥٥

ونضيف إلى الرؤية التصنيفية المتقدمة رؤية أخرى تقوم على تناول النظريات الاجتماعية كاتجاهات نظرية جاءت أو تولدت كرد فعل للأحداث التى أثرت فى المنظر أو أحاطت به . ولما كانت الاتجاهات النظرية التى أسهمت فى تبلور علم الاجتماع كعلم تشكلت جذورها مع أحداث الثورة الفرنسية وما أنتجته من ظهور تيارات فكرية محددة ، فإن هذه التيارات هى التى تفرق بين أنماط النظريات الاجتماعية حتى اليوم . وعليه ، تم التصنيف تبعاً لنمط الفكر الغالب للنظرية . ويجسد هذا الأساس وجود ثلاثة أنماط تنظيرية أساسية هى :

نظريات نمط الفكر المثالى (النظريات المثالية) :

ويشير هذا النمط أو الاتجاه Idealism ـ كما يذهب على ليلة ـ إلى تلك النظرة التى ترى فى الواقع ذاته شيئاً ما يكمن فى طبيعة الأفكار ، أى النظرة التى ترى أن الأفكار من بين كل أنواع الحقائق الكثيرة هى الأكثر أهمية ودلالة . ومؤدى ذلك تأليه الفكرة على حساب الواقع الذى يكتشف حقيقته فى إطارها .

نظريات نمط الفكر الوضعى (النظريات الوضعية) :

تأسست الوضعية كوريث شرعى للفلسفة النقدية السالبة ، وهى وضعية من حيث كونها ترضى بما هو قائم وتحاول تنظيمه على أساس من الإدراك العقلانى المنظم للعقل الباحث ، أى بواسطة العلم . وهى وضعية لأنها ذات موقف أيديولوجى إيجابى من الأوضاع القائمة .

وتعد الوضعية مدخلاً يقوم على فكرة الملاءمة من أجل إعادة تنظيم المجتمع وصياغة تقدمه من خلال توظيف المنهج العلمى وتشير

الوضعية ، كما يعرفها " هربرت ماركيوز " ، إلى مركب من كل المعرفة التجريبية ، منظم فى نسق يتسلسل على نحو متوافق ، يسلك طريقاً لا رجوع فيه ، أما أية معارضة للحقائق فتمحى من المناقشة. ويذهب إلى أن كونت يلخص التضاد بين النظرية الوضعية والنظرية الفلسفية على النحو التالى : يختص علم الاجتماع الوضعى ببحث الوقائع بدلاً من الأوهام المتعالية ، وبالمعرفة النافية بدلاً من التأمل العقيم ، وباليقين بدلاً من الشك والتردد ، وبالتنظيم بدلاً من السلب والنهب . وفى كل الحالات ينبغى على علم الاجتماع الجديد أن يرتبط بحقائق النظام القائم .

ويشير ذلك فى مجمله إلى الوضعية باعتبارها اتجاها فكريا يستند فى تأسيس معطياته على التجربة مستخدما المنهج العلمى فى الحصول على هذه المعطيات ، وهو يتخذ من العلوم الطبيعية إطارا يحاول توسيع نتائجه لكى تصدق على العالم الإنسانى . وتؤكد الوضعية أن الحقائق التى يجردها الباحث أو يستخدمها فى صياغة قضاياه تتصل أساسا بالنظام القائم والمعاش .

وتشكل الفلسفة الامبيريقية أحد روافد الاتجاه الوضعى ، حيث نجد أهم روادها " جون لوك ، ديفيد هيوم " . فجون لوك يؤكد أن الأفكار ليست داخلية فى العقل البشرى ، فهو عند المولد صفحة بيضاء ، وإنما تتسرب إليه الأفكار من خلال التجربة ، بينما يكون على العقل جمع هذه المادة التى أتته عن طريق الحواس وتنظيمها . ومن ثم فوظيفة العقل ليست إبداعية وإنما هى تنظيمية . بذلك أسلم قيادة المعرفة إلى الحواس والمناهج التجريبية ، ومن ثم تتضاعف المعرفة إذا وسعت الحواس من تجاربها . هذه التجارب التى ينتظر العقل نتاجها ليؤلف بينها ، ويختزنها

فى الذاكرة ، ويعطى الأسماء لها [١] .

نظريات نمط الفكر النفعى :

إذا كانت المثالية والوضعية ذهبتا إلى أن ثمة مثالا لابد على الواقع أن يتطابق معه ، فإن الاتجاه النفعى رأى أن يدرك الواقع الاجتماعى من خلال مظاهره المحسوسة . ومؤدى ذلك أن النفعية ترفض أى تأسيسات نظرية تقوم على النظر إلى علاقات غير مرئية .

وإلى جانب الرؤى المتقدمة حاول البعض تصنيف النظريات الاجتماعية تبعا للمتغير المحورى المؤثر فى البناء الاجتماعى فظهر ما يسمى بنمط النظريات المادية التاريخية الذى تقوم على فكرتى علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج ، وما يسمى بنمط النظريات البنائية الوظيفية التى تستند من ناحيتها إلى فكرتى التوازن والتماسك . كما عرفت النظرية الاجتماعية نمطا آخر من التصنيف التى تستند إلى التوجه أو الهدف الأساسى من النظرية ، ومن ثم برز نمط النظريات التحليلية التى تبحث عن المكونات والعناصر الفاعلة أساسا ونمط نظريات التغير الاجتماعى التى تعنى ، من ناحيتها ، بحل المشاكل الناشئة عن التغير والتطورات الثقافية والعمليات التاريخية المختلفة .

ونطرح من ناحيتنا التصنيف التالى للنظرية فى علم الاجتماع ، ونميز فى هذا التصنيف بين أنماط ثلاثة من الاتجاهات التنظيرية فى هذا العلم هى :

---

(١) على ليلة . مصدر سابق ، صفحات ٩٦ـ١٢٣

١— الاتجاهات البنائية .

٢— الاتجاهات الراديكالية — النقدية .

٣— الاتجاهات الإنسانية — القيمية .

ثانيا : أنماط الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع :

يتضمن كل نمط من أنماط الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع عددا من المنظورات (نظريات) التى تكسب الاتجاه النظرى هويته وتوجهاته واهتماماته الرئيسية . بيد أنه رغم ذلك ، فإن هذا التصنيف يقع تحت ما يسمى بالتصنيف البنائى فقط ، حيث أن التلاقى الوظيفى بين أبعاد واهتمامات أنماط المنظورات أو النظريات التى تضمنها كل منها يتعذر تصور غيابه ، خاصة أن كلا منها يعد مطلبا إيجابيا لمقبلة طبيعة مرحلة من مراحل التحولات التى شهدتها المجتمعات ومتغيراتها من ناحية ، كما أن بعضها جاء ليسد أوجه النقص أو عدم الفاعلية الذى ارتبط بغيرها . ومهما يكن من أمر ، فإن ما يتعين إدراكه هو أن اتجاهات التنظير فى علم الاجتماع تمثل الثراء المعرفى الإنسانى المتصل والمتراكم الذى أبدعه العقل البشرى فى تخاطبه مع متغيرات العصر الذى وجد فيه ومحاولته فهمها وتوجيهها إلى ما يحقق حاجاته الجوهرية .

ونعرض فيما يلى لكل اتجاه من الاتجاهات الثلاثة المتقدمة وما يضمه من منظورات أو نظريات .

الاتجاهات البنائية :

ويضم هذا النمط من الاتجاهات ، عددا من المنظورات ركزت

على الرؤية البنائية للمجتمع باعتبارها الحقيقة الجوهرية أو الأساسية فيه، ومن ثم انشغلت به فى خصائصه وأحواله فى حالات الاستقرار والتغير وما ينشأ عن ذلك من مشكلات وأزمات اجتهد المنظرون فى إيجاد تفسيرات وحلول لها ، بل واستقراء مستقبل المجتمع من حيث نموه وتطوره وتقدمه فى ظلها .

ونحاول الوقوف على أبرز هذه المنظورات إذا أردنا أن نقدم صورة متكاملة لهذا الاتجاه ، وهى :

١ــ المنظور الوضعى .
٢ــ المنظور الوظيفى .
٣ــ المنظور الصراعى .
٤ــ المنظور البنيوى .

(١) المنظور الوضعى :

تعود أهمية تاريخ الفلسفة الوضعية إلى ارتباطها بالتراث الفكرى لهذا المنظور الذى أفرزته المدرسة الوضعية الفرنسية التى ظهرت مع بداية القرن التاسع عشر والتى تعد البداية الفعلية للمنظور الوضعى

وتعد الوضعية امتدادا لتيارين فكريين أساسيين هما : المنهج العلمى والفلسفة الامبيريقية الإنجليزية . ويستند الأول على أساس الاستقراء والتجريب ، وكان ظهوره نتيجة للتنازع الذى قام بين الإنسان وبين ما هو غيبى ، إذ تحطم فى هذه الفترة الاحتكار الكنسى للفكر نتيجة احتكاك المجتمع الأوروبى بثقافات وديانات فى الشرق يسودها حرية الفكر والاعتقاد ، وكذلك نتيجة لظهور الطباعة التى أدت إلى توفر الكتب

وخاصة المقدسة منها لتكون فى متناول العامة بعد أن كـانت حكـرا علـى رجال الكنيسة ، الأمر الذى أدى إلى فـهم النـاس للكتـب المقدسـة علـى أصولها الصحيحة وتراكم توترات ضد الكنيسة التى كانت تعمل على إعاقـة الفكر وتكبيله .

ومنذ هذه الأونة ازدهرت حركة البحث العلمي الـذى يؤكـد علـى دراسة الواقع دراسة مفصلة تصاغ فى قضايا تعالج ترابطات الظواهر ممـا ييسر الوصول إلى القوانين التى تحكم هذه الظواهـر . ولـهذا فقـد أصبـح تقليديا إرجاع تاريخ الوضعية الحديث إلى آراء " فرانسيس بيكون " ، الـذى أبرز أهمية العلم فى حياة الإنسان وإمكان تطبيق المنهج العلمى فى دراسـة الظواهر الاجتماعية .

لقد اكتسبت الوضعية على يد بيكون أهمية خاصة ، إذ أوضـح فـى كتابه " العلم الجديد " الذى صدر عام ١٦٢٠ م ، أهم معوقـات المعرفـة ، وأبرز تضليل ومغالطات كهنة العصور الوسطى . ثـم أكـد علـى أهميـة اكتشاف الحقائق عن طريق البحث العلمى ، حيث يذهب إلى " أن الوصـول إلى المبادئ العامة يتم عن طريـق التـدرج فـى الصعـود مـن الخـاص (الحواس) إلى مبادئ أقل عمومية ، ثم مبادئ متتابعة متوسـطة العموميـة ، حتى تصل أخيرا إلى المبادئ الأكثر عمومية " . كمـا أشـار بيكـون إلـى أهمية اشتقاق العلل والمسببات والمبـادئ مـن التجـارب ، ثـم اسـتخراج التجارب من المبادئ .

وقد ازدهرت الفلسفة الامبيريقية الإنجليزية ـ التـى شـكلت أحـد الروافد الرئيسية فى بناء الفكر الوضعى ـ فـى إنجلـترا خـلال القرنيـن السابع عشر والثامن عشر ، واستندت فلسفتها علـى أسـاس أن الخـبرات

الحسية هى المصدر الوحيد للمعرفة رافضة بشكل قاطع كل المحاولات الحدسية للحصول على هذه المعرفة . وأبرز رواد هذا الاتجاه " جون لوك، وجورج بركلى ، ودافيد هيوم " . وقد أعلن لوك رفضه للاتجاه الميتافيزيقى فى العلم ، ودعا إلى بناء المعرفة على أساس الخبرة الحسية مؤكدا أن الأفكار ليست داخلية فى العقل بل إن عقل الإنسان يكون عند المولد صفحة بيضاء تمتلئ بالتدريج عن طريق التجارب والخبرات الحسية الخارجية .

ولقد سار لوك على نفس خطوط الفلسفة الامبيريقية من حيث أن الحواس تعد مصدر المعرفة ، أما هيوم فقد سار بالاتجاه التجريبى إلى مدى أبعد من الذين سبقوه . فبالرغم من أن لوك وبركلى تركا بصمات مميزة على الاتجاه الوضعى ، إلا أن آراء هيوم مثلت التحدى الحقيقى للفكر الميتافيزيقى . فقد هاجم هيوم الأفكار التقليدية عن المادة والسببية وأكد على أن الخبرة بالحواس هى أساس العلم والمعرفة .

وإذا كان المنهج العلمى والفلسفة الامبيريقية يمثلان الجذور الفكرية لانبثاق الفلسفة الوضعية ، فإن هناك جذورا بنائية أسهمت بدورها فى كيان هذه الفلسفة . فقد مهد لظهور الوضعية ثورتان غيرتا وجه أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهما الثورة الصناعية والثورة الفرنسية. فقد كانت التغيرات التى أحدثتها كل من هاتين الثورتين عنيفة إلى حد بعيد ، إذ أدت الثورتان إلى تحولات بنائية فى المجتمع الأوروبى وتحطيم المعتقدات والتصورات التقليدية . ولقد خلقت هذه التحولات مناخا فكريا موزعا بين التيارات الفكرية والسياسية والنظرية المختلفة ، كما خلقت حاجة ماسة إلى تنظيم اجتماعى جديد ، وهى حاجة إلى استعادة ترميم المجتمع واستقراره .

ويمكن القول فى ضوء ما تقدم أن الفلسفة الوضعية تأثرت تأثرا واضحا بالعلم وجعلت إعادة تنظيم المجتمع وفق أسس علمية هدفها الأساسى . ويوضح هربرت ماركيوز أن هدف الفلسفة الوضعية فى القرن التاسع عشر انحصر أساسا فى الدراسة " العلمية " للمجتمع الإنسانى التى تحتم تناول الواقع الاجتماعى بنفس الأساليب الدقيقة المضبوطة التى تدرس بها العلوم الطبيعية . ويتضمن هذا الهدف إخضاع المعرفة التى تتخذ من الإنسان موضوعا لنفس الشروط المنضبطة التى تخضع لها دراسة الطبيعة[1] .

مرتكزات (قضايا) المنظور الوضعى :

تبين مما تقدم أن الأسلوب العلمى وتبنى نموذج العلوم الطبيعية فى دراسة الواقع الاجتماعى يمثلان الأسس التى يرتكز عليها الفكر الوضعى فى علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين . هذا ، ويكشف تحليل البناء النظرى للفكر الوضعى على تأكيده على عدة قضايا أخرى تتمثل فيما يلى :

أ ـ قضية الحياد القيمى .
ب ـ قضية ثبات واستقرار النظام الاجتماعى .
جـ ـ قضية التكامل العضوى .
د ـ قضية أسبقية المجتمع على الفرد .

وسنتناول كل قضية من هذه القضايا بالشرح فيما يلى :

---

(١) راجع : زينب شاهين : " الاثنوميثودولوجيا ـ رؤية جديدة لدراسة المجتمع " ، مركز التنمية البشرية والمعلومات ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، صفحات ٩ـ١٢.

(أ) الحياد القيمى :

يتحدد علم الاجتماع فى نظر الفلسفة الوضعية فى أنه علم مجرد ، ليس له غاية سوى الكشف عن قوانين الظواهر ، بصرف النظر عن استغلال هذه القوانين أو الانتفاع بها ، فى شئون الإصلاح الاجتماعى . ولقد ذهب كونت إلى أن الغاية الأساسية لعلم الاجتماع ، كعلم نظرى امبريقى للمجتمع ، هى تحقيق الموضوعية ، ويتمثل ذلك فى اتخاذه فى دراسة الظواهر الاجتماعية موقفا يماثل موقف عالم الطبيعة الذى يفترض أنه يرتاد ميدانا غير معروف ، بحيث يدخل إلى دراسته للظواهر وهو متحرر من أية قيم مسبقة .

ويعبر دوركايم عن هذا المعنى من خلال تركيزه على دور الباحث إزاء دراسة الواقع الاجتماعى وضرورة تحرره بصفة مطردة من كل فكرة سابقة تجاه الظواهر موضوع الدراسة ووجوب امتناعه عن استخدام أى مفاهيم تكونت خارج العلم . وبناء على ذلك يستبعد هذا العلم أحكام القيمة وينفصل عن الاهتمام بقيمة أى شكل اجتماعى معين ، فهو لا يستحسن الوقائع السياسية أو يستهجنها ، بل ينظر إليها على أنها مجرد موضوعات للملاحظة .

إذن فالموقف الوضعى فيما يخص قضية الحياد القيمى لا يهتم إلا بالبحث عن القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية ، الأمر الذى ينطوى على فكرة قبول الواقع المعطى وثبات النظام واستقراره .

(ب) ثبات واستقرار النظام الاجتماعى :

تتخذ الفلسفة الوضعية موقفا إيجابيا من الأوضاع القائمة

فالدراسة الوضعية للواقع الاجتماعى تحتم بالضرورة قبول ما هـو معطى والإقرار بالأمور الواقعة . ولقد ذكر كونت صراحة أن لفظ وضعى الذى كان يصف به فلسفته يتضمن تعليم الناس أن يتخذوا موقفا إيجابيا من الوضع السائد ، فالوضعية تستهدف تأكيد النظام القائم ضد أولئك الذين أكدوا الحاجة إلى نفيه . إذ تنظر الوضعية إلى المجتمع على أنه مجموع مركب من الوقائع تحكمه قوانين عامة ، أى أنه مجال كأى مجال آخر للبحث العلمى . فى إطار ذلك رأى كونت أن التصورات التى تفسر هذا المجال يجب أن تستمد من الواقع الذى يتكون منها ، أما مضمونات التصورات الفلسفية التى تحاول أن تصل إلى حد أبعد من ذلك فينبغى استبعادها وهو ما يعنى أنه جعل الواقع مصدر الحركة الفكرية كله ، ولذا فإن الحقائق التى يجردها الباحث ويستخدمها فى صياغة قضاياه تتصل أساسا بحقائق النظام القائم والمعاش .

وبناء على ذلك يتحدد هدف الوضعية فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى فى إعداد الناس لتقبل النظام القائم والتسليم به ، وبالإضافة إلى ذلك يعتبر التنبؤ الذى يعمل على تيسير الضبط أحد الأهداف الرئيسية للعلم الوضعى، ومن هنا كان شعار الوضعية الأساسى أن نتنبأ من أجل أن نضبط ونسيطر لأن ذلك يعنى إعادة الصياغة النظامية للإنسان الفرد وفقا للقيم الأساسية التى تشبع حاجة أساسية لدى النظام . ويتضح ذلك من تأكيد دوركايم على دور التربية الأخلاقية كوسيلة لتحقيق الضبط الاجتماعى . حيث يركز دوركايم على أهمية وجود قواعد أخلاقية تنظم السلوك يتعلمها الأطفال من خلال التنشئة الاجتماعية . وتستهدف عملية التنشئة هذه تهذيب سلوك الأفراد من أجل المحافظة على النظام الاجتماعى العام .

وإذا كان استقرار النظام وثباته بالنسبة لدوركايم يتمثل فى الالتزام

بالقيم والمعايير التى تقهر الفعل وتضبط مساره ، فإننا نجـد امتـدادا لـهذه الفكرة ذاتها عند بارسونز الذى أبـرز الـدور الكبـير الـذى تلعبـه القيـم والمعايير فى تشكيل النظام الاجتماعى .

وبالرغم من أن القيم والمعايير أدت دورا هاما فى الحل الذى قدمـه بارسونز لمشكلة النظام (١٩٣٧) فى كتابه " بناء الفعل الاجتماعى " فإنه لـم يتخل عن دور القيم فى تدعيم النسق وتحقيق التكامل فيه فـى كـل أعمالـه التالية . لقد اكتسبت المعايير أهمية مطلقة فى حل بارسونز لمشكلة النظـام، فأفعال الفرد ليست عشوائية أو محكومة بالعواطف ، بل إننا نجدهـا تكشـف عن قدر كبير من النظام بحيث لا يمكن التنبؤ بها . ويتحقق هذا الوضـع إذا ما شارك أعضاء المجتمع فى مجموعة من القيم المطلقـة ، التـى تضفـى قدرا من النظام والمعنى على سلوك الأفراد .

(جـ) التكامل العضوى :

إذا كان ثبات النظام واستقراره يعتبر دعامة أساسية ترتكـز عليـها الوضعية ، فإن ذلك يتسق مع دعوتها إلى التكامل والوحدة العضويـة بيـن عناصر المجتمع . ويتفق استناد الوضعية إلى مجموعة من القوانيـن التـى تتضمن نظاما ثابتا مع نظرتها للواقع الاجتماعى على أنه عالم مـن التوافـق الطبيعى .

ويعد علم الاجتماع الوضعى فى أساسه الدراسة السـاكنة للمجتمـع تمشيا مع النظرة الوضعية القائلة أن هناك توافقا حقيقيا دائما بيـن مختلـف الأوضاع الموجودة فى المجتمع .

إذن يشير النظام بالنسبة للوضعية إلـى الانسجام والتـوازن بيـن

ظروف وجود المجتمع الإنسانى . فالحقيقة الأساسية فى النظـام الاجتمـاعى تتمثل فى الاتساق العام وهو الارتباط الضرورى بين عنـاصر المجتمـع . فالنظام يمكن أن يقوم فقط على أساس نوع من الاشتراك فى الأفكـار بيـن أولئك الذين يشكلون المجتمع ، ومن ثم تكون حريـة الـرأى غـير ممكنـة التحقيق. ويعنى ذلك أن الدراسة الساكنة للمجتمع تتضمن ملاحظـة النظـام القائم دون التصور لأى محاولة لخلق النظام .

وربما كان كونت من أقدم العلماء اهتماما بقضية النظام القائم علـى التضامن . فبالرغم من اعتقاده بإمكان تفكك قطاعات المجتمع ، إلا أنـه قـد أكد أن جوهر الإنسان هو الوحدة لا الصراع من أجـل المصلحـة . ولقـد عبر كونت عن تأكيده لفكرة التضامن إلى الحد الـذى ذهـب فيـه إلـى أن المرأة من خلال صحبتها وبساطتها سوف تغذى البنـاء الاجتمـاعى بـروح الغيرية التى ستحقق القضاء تدريجيا على الأنانية والصراع الطبقى إلـى أن يتحول المجتمع فى النهاية إلى أسرة واحدة يهتم فيها الرأسـماليون بالعمـال. وتبرز الجوانب التعاونية فى النسـق الاجتمـاعى ، والتضـامن والتماسـك كأساس للنظام من خلال آراء دوركايم الذى أكـد علـى أن تقسـيم العمـل والتباين فى الواجبات والمسئوليات هو الذى يعمل علـى تحقيـق التضـامن بين الأفراد .

وقد أشار دوركايم فى هذا الصدد إلى أن التضامن العضوى يـزداد رسوخا بازدياد تقدم المجتمعات وتثبيتها للتقدم الأخلاقى الـذى يؤكـد القيـم العليا والحرية والعدالة والإخاء . وإذا كان تقسيم العمل ومـا يـترتب عليـه من تباين بين الأفراد يحقق التضامن فى المجتمع ، فإن الضمـير الجمعـى يقوم بنفس الدور بالنسبة للمجتمعات البسيطة التى لم يتحقـق فيـها درجـة عالية من التطور وتقسيم العمل . ويعتمد نموذج التضامن الآلى الذى يسـود

هذه المجتمعات على التماثل بين أعضاء المجتمع .

(د) أسبقية المجتمع على الفرد :

تبين فيما سبق أن الفلسفة الوضعية تستند إلى مسلمة أساسية وهى حتمية القوانين وثبات النظام واستقراره . وتتضمن هذه المسلمة انتفاء عنصر الإرادة البشرية فى مواجهة القوانين وكذلك استسلام الأفراد للأنظمة السائدة وعجزهم عن تغييرها .

ولتدعيم فكرة ثبات النظام واستقراره دعت الوضعية إلى الوحدة العضوية والتوازن ، والتكامل بين عناصر المجتمع ، ويتضمن ذلك قبول فكرة تدرج النظام الاجتماعي وتباين الأوضاع الاجتماعية ، وهو الأمر الذى يعنى بدوره قبول الفرد للدور المفروض عليه واستسلامه لوضعه القائم. كما دعت الوضعية أيضا إلى تكيف الفاعل لمتطلبات دوره ومتطلبات المجتمع من خلال مجموعة من القيم والمعايير .

ونخلص من ذلك إلى أن الوضعية أعطت أسبقية للمجتمع على الفرد ورفضت فاعلية الإنسان فى مواجهة حتمية النظام . فإذا كان ظهور الوضعية قد اقترن بموقف متحرر ضد الفلسفة والدين فإن مبادئها قد قهرت الفرد وألغت حريته وإرادته . كما رفضت الوضعية فكرة أن الإنسان قادر على تشكيل واقعه وعلى تغيير نظمه وإعادة تنظيمها وفقا لإرادته . لقد رأت الوضعية أن للمجتمع نظاما ثابتا يجب أن تخضع له إرادة الفرد . ولقد أوضح كونت أن الإنسان عندما يصل إلى العصر الوضعى لا يمكنه تعديل الظواهر إلا فى إطار حدود معينة وأن هذه الحدود تحددها القوانين الخاصة بهذه الظواهر . ومؤدى ذلك أن الوضعية

تعتبر المجتمع هو الوحدة الأساسية للتحليل السوسيولوجي وترفض أي وجود مستقل للفرد . فالفرد ليس إلا معنى مجردا والمجتمع هو الحقيقة الثابتة.

كما توضح آراء دوركايم موقفه بالنسبة لأسبقية المجتمع على الفرد. فالظواهر الاجتماعية عند دوركايم تنطوي على قوة ملزمة قاهرة خارجية وأنها تباشر هذا القهر على أفراد المجتمع ، كما أنها مستقلة استقلالا تاما عن الصور الفردية التي تتشكل بها .

(٢) المنظور الوظيفـــى :

يحتل المنظور الوظيفى أو النظرية الوظيفية مكانة متميزة فى إطـــار النظرية فى علم الاجتماع ، ومن ثم يعد هذا المنظور مـــن أكـثر المداخـل النظرية استخداما فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، بـــل وأقدمـــها ، حيـث يمكن العودة به إلى مفكرى اليونان القدامي وقبل ذلك إلـــى " كونفوشـــيوس " فى حديثه عن وظيفة الدين والطقوس الدينية فى المجتمع . ثم أخذت تظـــهر فكرة الوظيفية ــ بعد ذلك ــ فى كتابات الآباء المؤسسين لعلـــم الاجتمـــاع ، وبخاصة عند " أوجست كونت ، وسان سيمون ، ودور كايم " وصـــولا إلـــى " ميرتون " ، و" تالكوت بارسونز " الذى يعد المنظـــر المعـــاصر للوظيفيـــة فى علم الاجتماع

وقد أخذ يتشكل هذا المنظور استجابة لعدد من المتغـــيرات أبرزهـــا قيام علم اجتماع كتوجه علمى فى دراسة المجتمع واستجابة أيضـــا لدواعـــى يديولوجية وواقعية شكلت بعض الظروف التى أحاطت برواد هذا المنظـــور وفرضت عليهم الاهتمام بقضايا بعينها من قضايا البناء الاجتماعى كقضايـــا التكامل والتوافق والتوازن التى تعتبر من أبرز المفاهيم التـــى يقـــوم عليـــه هذا المنظور .

وانطلاقا من هذه المفهومات يتناول المنظـــور الوظيفـــى المجتمـــع باعتباره نسقا اجتماعيا مترابطا ترابطا داخليا ، ينجز كل عنصـــر أو مكـــون من مكوناته وظيفة محددة يقوم بين مجموعها شـــكل مـــن أشـــكال التفـــاعل والتساند الذى يحقق للمجتمع وحدته وتماسكه [١] .

---

(١) عبد الباسط ، مصدر سابق ، صفحات ٩٨ــ٩٩ .

ويعنى مفهوم الوظيفية الإسهام الذى يقدمه الجزء إلى الكل ، وهذا الكل قد يكون ممثلا فى مجتمع أو ثقافة . وعلى ذلك فإن ظهور الاتجاه الوظيفى اعتبر نتيجة لنظرة العلماء إلى المجتمع على أنه نسق واحد يتألف من عدد من العناصر المتفاعلة المتساندة التى تؤثر بعضها فى بعض ويعدل أحدهما الآخر . وهذا المعنى للوظيفية جاء فى أعمال كثير من الأنثروبولوجيين من أمثال " راد كليف براون R. Brown " ، و " رالف لنتون R. Liuton " ، و " مالينوفسكى Malinowki " ، بل إن "دوركايم" أيضا استخدمها بنفس هذا المعنى .

ويستخدم بعض العلماء مفهوم " التحليل الوظيفى Functional Analysis " للتعبير عن دراسة الظواهر الاجتماعية كعمليات أو آثار لبناءات اجتماعية معينة (مثل أنساق القرابة أو الطبقة). هذا المفهوم كان مفهوم " التحليل البنائى الوظيفى " أو " الوظيفية Structural Functional " التى وردت بكثرة فى أعمال " تالكوت بارسونز " وتلاميذه الذين نقلوها عن " هربرت سبنسر " . بمعنى آخر أنها تستخدم للإشارة إلى دراسة الظاهرات الاجتماعية باعتبارها عمليات أو آثار لأبنية اجتماعية [١] .

الخصائص الأساسية للنظريات الوظيفية (البنائية) :

يعد المنظور الوظيفى للمجتمع منظورا كليا . فالظواهر الاجتماعية فى نظر أنصار هذا المنظور ما هى إلا أجزاء لكل محكوم بهذه الكلية . فالأجزاء هى التى تكون الكل الذى يحكمها عكس الاتجاه الذى يذهب إلى

---

(١) محمد الغريب عبد الكريم : " الاتجاهات الفكرية فى نظرية علم الاجتماع المعاصر " ، نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، صفحات ٤٤ ـ ٤٥.

أن الكل أو الكليات تحددها العناصر التى يتكون منها [١] . وتشترك الوظيفية فى تلك الرؤية مع نظرية الصراع لرالف داهرندورف ، واتجاه الماركسية الجديدة عند آلتيسير Althusser ، وعلم الاجتماع النقدى عند مدرسة فرانكفورت .

وتتناول الوظيفية المحدثة المجتمعات وغيرها من الوحدات الاجتماعية باعتبارها أنساقا اجتماعية تطرح سؤالا مهما يدور حول كيف تستمر تلك الأنساق أو تحقق ذاتها عن طريق إسهامات الأجزاء أو العناصر التى تكونها . ومن خلال المماثلة بين النسق والكائن الحى تحقق الوظيفية غايتها من التحليل السسيولوجى لسائر العناصر كنسق محدد.

ويؤكد المنظور الوظيفى أن الأنساق الاجتماعية تكفل لنفسها البقاء والاستمرار عن طريق ما ينشئه من أبنية تساعد على استمرار وبقاء النسق. وتعد تلك الركيزة أحد الخصائص أو السمات المميزة للمنظور الوظيفى . ومؤدى ذلك أن الأبنية الاجتماعية أو أنماط السلوك يمكن إدراكها وتفسيرها من خلال ما تخلفه من نتائج أو آثار . وتعد آثار نمط أو بنية اجتماعية ما عنصرا حيويا أو أساسيا مكونا للأسباب التى تؤدى إلى وجود نمط اجتماعى بنائى بعينه . ومن ثم فإن وظيفة الظاهرة الاجتماعية تتمثل بحق فيما ينشأ عنها ، أى ما ينشأ عن الظاهرة من نتائج أو آثار. وقد عبر روبرت ميرتون عن ذلك حين عرف وظائف الظاهرة الاجتماعية بأنها الآثار الموضوعية الملاحظة . تلك الآثار الملاحظة أو المشاهدة التى تسهل عملية تقبل أو تكيف نسق ما .

---

(١) David Michael Qrenstein, op cit p 59

ويرى ميرتون أن النتائج أو الآثار الإيجابية للظواهر الاجتماعيـــة لا تسهم جميعها على نحو إيجابى فى بقاء النســـق الاجتمـاعى . ومــن هنـا جاءت أفكاره حول الوظائف المعلنـــة أو الظــاهرة والخفيـة أو المسـتترة للظواهر الاجتماعية .

وقد لخص ميرتون القضايا الأساسية للمنظور الوظيفـى كمـا عـبر عنه كل من رادكليف براون ومالينوفسكى . وهذه القضايا هى :

ـ القضية الأولى : الوحدة الوظيفية The functional unity للمجتمع:

ومعنى ذلك أن وظيفة عنصر معين هى الإسهام الذى تقدمه للحيـــاة الاجتماعية الكلية ، أى فيما تقدمه للنسق الاجتماعى الكلى .

ـ القضية الثانية : قضية الوظيفية العالمية (العالمية الوظيفية) :
Universal functionalism.

وتشير هذه القضية ــ فـــى نظـر مــيرتون ــ أن لكــل الأشــكال الاجتماعية والثقافية لها وظائف إيجابية .

ـ القضية الثالثة : لزومية الظاهرة الاجتماعية :
Social phenomenon indispensability.

لزومية العنصر ذاته المكون للظاهرة ولزومية الوظيفة (الدور) أو كلاهما.

وتنقسم قضية لزومية الظاهرة الاجتماعية ــ فـــى الواقــع ــ إلــى قضيتين :

الأولى : وتتصل بلزومية الوظائف الاجتماعية وتقودنا بدورها إلـــى مسـألة الضرورة أو الحتمية الوظيفية للمطـــالب الوظيفيـــة . وهنـا يكــون

التساؤل حول : إلى أى مدى تكون الوظائف ضرورية لاستمرار النسق الاجتماعى موضوع التحليل ؟

الثانية : ترتبط بلزومية نسق اجتماعى معين أو نمط ثقافى ، وهذا يقودنا إلى مسألة البدائل الوظيفية سواء كانت مكافئة للنسق أو تقوم مقامه.

ويسأل ميرتون كيف يمكن أن نتوصل إلى أن ظاهرة اجتماعية ما تمثل ضرورة وظيفية بالنسبة للنسق الاجتماعى ؟ ويرى ميرتون أن درجة التكامل المجتمعى تعد متغيرا امبريقيا يختلف من مجتمع إلى آخر ، بل وتتباين أيضا وتختلف داخل المجتمع الواحد ، وبالتالى نتوقع اختلافها تبعا لاختلاف الأزمنة . كذلك فإن الأنساق الفرعية فى المجتمع قد تختلف بدورها من حيث درجة تكاملها (١) .

وتعتمد الوظيفية بصفة أساسية على فكرة النسق العضوى التى اعتمدت عليها النظريات العضوية ، وهى الفكرة التى مؤداها أن كل شئ يمكن النظر إليه باعتباره نسقا أو كلا متكاملا يتكون من أجزاء مثل الكائن الحى .

ويعد الاتجاه الكلى The holistic approach فى دراسة المجتمع قديم قدم النظرية الاجتماعية ذاتها ، حيث أشار إليه الفلاسفة اليونانيين فى كتاباتهم الأولى . ويرجع مؤرخو الفكر النسق الوظيفى المعاصر ، والذى عرف بالاتجاه الكلى فى علم الاجتماع فى العقود الثلاثة الأخيرة ، إلى

---

(١) Jan Berting, "An appraisal of Functionalist Theories in Relation to Race and Colonial Societies", In International Social Science Journal, Vol XXXIII No 2 1981 pp 184-187

"مونتيسكيو " ، وإن كان ارتبط حديثا " بأوجست كونت " حيث أشار فى حديثه عن ما أطلق عليه بالاستاتيكا الاجتماعية بتماسك الظواهر الاجتماعية وتكاملها . ويحمل هذا التوجه فى ثناياه أن كل النظم الاجتماعية والمعتقدات والأخلاق مترابطة وتشكل كلا متماسكا ، ومن ثم فإن طريقة بيان وجود أى عنصر من عناصر هذا الكل يكون فى الكشف عن القانون الذى يبين كيف يتعايش العنصر مع سائر العناصر الأخرى المكونة للنسق .

ويمكن القول بوجه عام أن الوظيفية المحدثة ترجع إلى عالم الأنثروبولوجيا " مالينوفسكى " الذى تأثر أساسا " برادكليف براون " الذى ابتدع كلمة وظيفى Functionalist والتى تفرع عنها ما يسمى بالكلية الوظيفية Functionalist holism [١] .

وعلى الرغم من أن هناك عديدا من علماء الاجتماع ينتمون إلى الاتجاه الوظيفى قبل روبرت ميرتون وجورج هومانز وتالكوت بارسونز ومارسون ليفى وروبرت بيلز وغيرهم ، وعلى الرغم مما يوجد من اختلافات بين هؤلاء العلماء ، إلا أنه يمكننا القول بصفة عامة ، أن الاتجاه الوظيفى يعتمد على ستة أفكار رئيسية هى :

١ــ يمكن النظر إلى أى شئ سواء كان كائنا حيا أم اجتماعيا ، وسواء كان فردا أم مجموعة صغيرة ، أم تنظيما رسميا أم مجتمعا ، أم حتى العالم بأسره على أنه نسق . ويتجلى هذا النسق فى عدد من الأجزاء المترابطة. فجسم الإنسان نسق يتكون من مختلف الأعضاء والأجهزة،

---

(١) Percy S Cohen Modern Social Theory Heinemann, London, 1972. pp 34-37

وشخصية الفرد نسق يتكون من أجزاء مختلفة مثـل السـلوك والحالـة الانفعالية والعقلية .. الخ ، وكذلك المجتمع والعالم .

٢ـ لكل نسق احتياجات أساسية لابد من الوفاء بها ، فـإن النسـق سـوف يفنى أو يتغير تغيرا جوهريا .

٣ـ لابد أن يكون النسق دائما فى حالة توازن ، ولكى يتحقق ذلـك لابـد أن تلبى أجزاؤه المختلفة احتياجاته .

٤ـ لكل جزء من أجزاء النسق طابعا وظيفيا ، أى يسهم فى تحقيق تـوازن النسق ، وقد يكون ضارا وظيفيا ، أى يقلل من تـوازن النسـق ، وقـد يكون غير وظيفى ، أى عديم القيمة بالنسبة للنسق .

٥ـ يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسـطة عـدة متغـيرات أو بدائل ، فحاجة المجتمع لرعاية الأطفال مثلا يمكن أن تقوم بها الأسـرة أو دار الحضانة . وحاجة المجموعة إلى التماسـك قـد تتحقـق عـن طريق التمسك بالتقاليد ، أو عن طريق الشـعور بالتـهديد مـن عـدو خارجى .

٦ـ يجب أن تكون وحدة التحليل الأنشطة أو النماذج المتكـررة . فـالتحليل الاجتماعى الوظيفى لا يحاول أن يشرح كيـف ترعـى أسـرة معينـة أطفالها ، ولكنه يهتم بكيفية تحقيق الأسرة كنظام لهذا الهدف .

من مجموعة هذه الأسس يتحدد هدف الوظيفية أو التفسير الوظيفـى فى الكشف عن كيفية إسـهام أجـزاء النسـق فـى تحقيـق النسـق ككـل لاستمراريته أو فى الإضرار بهذه الاستمرارية .

ويمكن تحديد الاتجاهات العامة في الأسس المنهجية للتحليل الوظيفي في الاعتبارات الآتية :

أ ـ يهتم منهج التحليل البنائي الوظيفي بتفسير أسباب استمرار النظام الاجتماعي على الرغم من الضغوط الخارجية والداخلية من أجل إحداث التغيير .

ب ـ يهتم التحليل البنائي بدراسة وتحليل نتائج العمليات الاجتماعية التي تتأثر بالعوامل الإنسانية ، ولذلك يتجه علماء الاجتماع إلى تحليل الظواهر الاجتماعية المنفصلة والظواهر المرتبطة بها في سلسلة لامتناهية من أجل نمو وتقدم المجتمع .

جـ ـ يهتم التحليل البنائي بدراسة العملية الاجتماعية الحاسمة المؤثرة في تشكل التفاعل المؤثر في قوى التغير البنائي ، وهذا ما يعرف بمصطلح التوازن الدينامي .

د ـ يؤكد المذهب البنائي الوظيفي على تمييز الخصائص المنطقية المنظمة للتنظيمات التي ينظر إليها كأنساق فرعية من حيث :

١ـ حدود هذه التنظيمات ومدى اهتمامها بالأهداف التي تسعى إليها .

٢ـ البحث عن الحاجات التنظيمية أو الوظيفية المحددة أو المؤثرة في درجة التكيف والتكامل الاجتماعي والدرجة التي يمكن بها إشباع هذه الحاجات.

٣ـ النظر إلى التنظيمات الاجتماعية باعتبارها أنساق مفتوحة ينظر إليها كمصادر متفاعلة مع المشكلات الاجتماعية داخل الأنساق .

بارسونز والوظيفية :

في خضم عصر الأزمات السياسية والاقتصادية العالمية وبالتحديد عام ١٩٣٧ نشر تالكوت بارسونز دراسة له في النظرية الاجتماعية بعنوان " بناء الفعل الاجتماعي " ، وقد ابتعد فيه تماما عن الاهتمام بالأزمة الاقتصادية والسياسية في هذا الوقت ، وقدم أفكارا لبعض المفكرين الأوروبيين السابقين استخرج منها مشروعا بالغ العمومية والتجريد للفكر الاجتماعي . وقد كشف بوضوح عن اتجاهه حين قرر في مقدمة دراسته أن أعمال الفريد مارشال وباريتو ودوركايم وماكس فيبر تمثل حركة رئيسية في بناء الفكر النظرى ، ومظهرا جديدا تماما في تطور الفكر الأوروبى حول مشاكل الإنسان والمجتمع . ومن ثم فقد أسهم هؤلاء المفكرين جميعا في عناصر نظرية الفعل الاجتماعي S ocial action التى ارتقت إلى تصور جديد للإنسان والمجتمع .

وتتلخص الأفكار الرئيسية لنظرية الفعل الاجتماعي في " تكوين الفعل من أبنية وعمليات تقوم الكائنات البشرية بواسطتها بتكوين مقاصد ذات مغزى وتنفذها بدرجة تزيد أو تقل من النجاح في المواقف المحددة " . وتعنى كلمة ذات مغزى المستوى الرمزى أو الثقافى لما تمثله وما تشير إليه.

وبارسونز ، إذ يأخذ بفكرة الفعل ، فإنه يهتم أساسا بوضع تصنيفات دقيقة لأنماط وأبنية الفعل الاجتماعي ، وهو يميز بين أربعة أنساق فرعية للمجتمع :

ـ النسق الأول : وهو الذى تكونه النظم المسئولة عن تدعيم النمط ، أو

بتعبير آخر صيانة القيم الثقافية العامة للمجتمع ، وتلك أساسا نظم دينية.

ــ **النسق الثانى :** وهو الذى يتألف من النظم المعنية بالتكامل أو تدعيم المعايير والأحكام المختلفة ، ويدخل فى إطارها النظم القانونية كالحاكم والبوليس .

ــ **النسق الثالث :** وهو النسق السياسى والمسئول عن تحقيق أهداف جماعية كالمصلحة القومية .

ــ **النسق الرابع :** وهو النسق الاقتصادى ، ووظيفته التكيف مع البيئة المادية ، أى الإنتاج .

وتمثل مرحلة الخمسينيات فترة فى غاية الخصوبة فى أعمال بارسونز ، حيث بدأ تأثيره يظهر على مدى واسع فى علم الاجتماع الأوروبى وعلم الاجتماع الأمريكى . وقد اتسمت هذه المرحلة بطابع الاتجاه المحافظ ، كما سيطرت عليها وخصوصا فى الولايات المتحدة المواقف الجامدة وعلاقات الحرب الباردة والأيديولوجيات المتعلقة بالنمو الاقتصادى والرفاهية . وقد عبر عن ذلك كل من روستو فى كتابه "مراحل النمو الاقتصادى " ، وجالبرت فى كتابه " مجتمع الرفاهية " .

وقد كان علم الاجتماع كما وصفه بارسونز يتمشى تماما مع هذه الحالة العقلية العامة ، فلم يثر أية أسئلة أساسية حول بناء المجتمع الأمريكى ، إنما اكتفى بتقديم نمط من أنماط البناء الاجتماعى يدعوه نمط الإنجاز الشامل . ويصف هذا النمط من خلال إدراج بعض مظاهر المجتمع الأمريكى . ومن ثم يمكن القول أنه يقدم رؤيا للمجتمع كبناء ثابت ودائم ، بينما لا يهتم اهتماما كبيرا بعوامل التوتر والصراع والتغير التى

تظهر فيه .

ومؤدى ذلك أنه ينظر إلى البناء الحالى للمجتمع الأمريكى بوصفه غير قابل للتغيير ، أو على أنه على الأكثر قادر على التطور التدريجى فى إطار ظروف معينة وعلى نحو محدود جدا . ولا غرو أن هذا التصور لا ينشأ عن مجرد أيديولوجية محافظة ، إنما نابع أساسا من تصوره لطبيعة النظرية الاجتماعية. فقد حدد هدفه من هذه النظرية فى هدف نظرى بحت، ومن ثم فهو لا يهتم بالتعميمات الامبريقية فى حد ذاتها أو بمناهج البحث .

ولقد استبعد بارسونز من مجال نظريته ـ تبعا لما تقدم ـ عنصرين يعدان من العناصر الحيوية فى إطار علم الاجتماع النظرى وهما:

١ـ محاولة التوصل إلى تعميمات امبريقية وإثبات الارتباطات المنهجية بينها. إذ أنه يهتم بمجرد تقديم تصنيف وصفى للظواهر داخل مجال معين، أو تحليل للمفاهيم المستخدمة فى ذلك المجال ، دون أن يهتم بتقديم تفسير للأحداث بالنسبة لمشكلة محددة .

٢ـ المنهجية أو منطق الموضوع . صحيح أن هذا العنصر لا ينتمى بشكل دقيق لمجال النظرية ، وإن كان ينتمى إلى مجال ما وراء النظرية . فقد وجدت طبيعة علم الاجتماع وموضوعاته أنه من غير المفيد الفصل بين هذين المجالين ، إذ يعنى استمرار الوعى بالصعوبات الخاصة التى تعترض أى محاولة لتفسير الفعل أو السلوك الاجتماعى ، إن المنظر أكثر دقة فيما يعالجه .

وإذا كان بارسونز يتخلى من ناحية عن التعميم الامبريقى ، ومن

ناحية أخرى عن البحث المنهجى ، فإنه يقصر جهده أساسا على تحليل وتصنيف المفاهيم بحيث لا تشتمل النظرية إلا على تصنيف للظواهر التى يتناولها الموضوع ، مع تحديد نطاق المشكلة ، وتحديد القواعد الإجرائية والمشروعات التفسيرية [١] .

وإذا كان هناك من دارسى الوظيفية من يصر على أنها تعد كلا واحدا متميزا، فهناك من الباحثين من يشيرون إلى ما هو على خلاف ذلك. ونذكر من بينهم " كانسيان F. M. Cancian " الذى يرى أن مسار المنظور يحوى ثلاثة نماذج فرعية بينها قدر من التمايز والتغاير .

الأول : ويوصف بالنموذج العام ، لأنه يهتم بالتحليلات السوسيولوجية العامة للنسق الاجتماعى . وهو نموذج ينهض على دعوى نظرية مؤداها : أن السمات الاجتماعية S ocial Traits القائمة فى أى نسق اجتماعى فى وقت معين من الأوقات ، بمثابة وحدات مترابطة معا ، ولها علاقات منظمة ومرتبة ، يمكن الكشف عنها من خلال الوقائع والنظم الاجتماعية .

الثانى : وهو النموذج الأكثر شيوعا واستخداما ويسمى بالنموذج التقليدى، ويقوم على دعوى نظرية مؤداها أن معظم الأنماط الاجتماعية وجدت لتحافظ على تكامل النسق وتوازنه .

الثالث : ويطلق عليه المنظور الوظيفى الصورى أو الشكلى لأنه ينطلق من توجه نظرى معين يكاد يشابه النزعة الامبريقية فى علم الاجتماع .

---

(١) أحمد النكلاوى ، مصدر سابق ، صفحات ٢٥٧ ٢٦١

كذلك أوضح كل من مرجريت كولسون ودافيد ريدل أن هناك تباينات داخل المنظور الوظيفى تتمثل فى وجود ثلاثة نماذج هى :

- **النموذج الأول :** ويسمى البنائية الوظيفية ، ويذهب إلى أن غاية المجتمع ، الحفاظ على النظام والثبات الاجتماعيين ، وأن وظيفة البناء ومكوناته الطريقة التى ترتب وتنظم بها هذه المكونات ، بل ووظيفة البناء الاجتماعى بصفة عامة ، تتمثل فى الحفاظ على هذا النظام وذلك الثبات . ومن أبرز أنصار هذا النموذج رادكليف براون Radicliffe Brown .

- **النموذج الثانى :** ويسمى الوظيفية البيولوجية Biological functionalism ، ويذهب هذا النموذج إلى أن غرض المجتمع ، إشباع حاجات بيولوجية بعينها للكائنات البشرية . ومن أبرز أنصار هذه الوجهة من النظر برونسلاو مالينوفسكى B ronislaw Malinowski.

- **النموذج الثالث :** أما النموذج الأخير فيسمى الوظيفة المعيارية Normative functionalism ، ويقوم على فكرة أن الحفاظ على النظام أو التوازن Equilibrium يمكن تحقيقه عن طريق وجود معايير وقيم عامة تشترك فيها الغالبية العظمى من الناس فى المجتمع . ومن أبرز منظرى هذا النموذج تالكوت بارسونز [1] .

وغنى عن البيان أن النظرية الوظيفية تعد مطلباً حيوياً بالنسبة للباحثين لما تؤديه من دور أساسى من تمكين الباحثين من الوقوف على أو

---

(١) عبد باسط عبد المعطى ، مصدر سابق ، صفحات ١٠٤ـ١٠٥ .

معرفة كيف يعمل مجتمعاً ما أو جانباً منه أو كيف يمارس أو يقوم بمهامه ومسئولياته ، ويختلف ذلك الأمر بطبيعة الحال لو كان السؤال يسعى إلى معرفة أو فهم كيف ينمو المجتمع أو يتغير . ومن الثابت أن كثيراً من الدراسات الكلاسيكية التى قامت على النظرية الوظيفية من أمثال دراسات "كنجزلى دافيز " و " ولبرت مور " لعدم المساواة الاجتماعية قادها المنظور الوظيفى الذى يعنيه النظر إلى الظاهرة الاجتماعية لبيان كيف تعمل هذه الظواهر من أجل الحفاظ على المجتمع أو الإبقاء عليه . فقد تساءل دافيز ومور كيف تسهم ظاهرة عدم المساواة الاجتماعية فى الحفاظ على وجود المجتمع أو بقائه ؟ وقد أجابا على ذلك حيث ذهبا إلى أن نسق عدم المساواة بين الأفراد من حيث المكافئات تدفعهم إلى التعلم وتحسين مستواهم حتى يستطيعوا القيام بالأعمال التى يريدها المجتمع . ويطبق "دافيز " و " مور " فى هذا الصدد مبدأ " كلما كانت الحاجة شديدة كلما كان الطلب على العمل كثيراً ، وكلما كانت المهارة أو القدرة نادرة أو ضئيلة كلما كانت المكافأة على العمل (الأجر) عالية أو كبيرة " (١) .

(٣) المنظور الصراعى :

تبين من استعراض المنظور الوظيفى أن النظرية الوظيفية ترجع بجذورها إلى التراث الفكرى الكلاسيكى الذى ماثل بين المجتمع والكائن الحى . ويقوم هذا التصور (تصور المماثلة) على أن الأجزاء أو العناصر المؤلفة للمجتمع تعمل سوياً كما هو حال الكائن الحى الذى تتضافر عناصره فى الإبقاء على حياة هذا الكائن وبقائه . بيد أنه إذا كان المجتمع

---

(١) Davis M Qrenstein, op cit . p 60

يتماثل أو يشابه الكائن الحى ، فإنه يعرف أيضاً الاختلاف والتباين . فنظــراً لتباين الأفراد من حيــث خلفياتــهم البيوجغرافيــة ، وتباينــهم مــن حيــث الجماعات والمجتمعات التى يمثلونها ، فإنهم وكنتيجة لذلك يفــهمون العــالم كل منهم بصورة مختلفة عن الآخر . وما قد يبدو أخلاقيــاً بالنســبة لبعــض الأفراد لا يبدو كذلك بالنسبة للآخرين ، وما قد يقبله الأفراد اعتبــاره وقــائع صادقة أو صحيحة قد لا يقبله الآخرون على أنه صادق ، وما قد يبــدو أنــه فى صالح البعض قد يبدو خطراً بالنسبة لآخرين .

ويعنى منظور الصراع بوجه عام بتوجيه الاهتمام بــالتعرف علــى مصادر أو أسباب الصراع الاجتماعى Social conflict بوجه عام. وفــى هذا الصدد حدد الباحثون أسباباً أو مصادر ثلاثة هى :

١ــ ينشأ الصراع نتيجة لتباين أو اختلاف التصــور المرتبــط بوضعيــة أو مكانة القيم الأخلاقية ومرتبتها الذى تمثله كل منها فى المجتمع .

٢ــ ينشأ الصراع فى بعض الحالات حيث يحدث أن يتفق الأفراد علــى مــا هو مرغوب ومستحب لكنهم لا يتفقون أو لا يلتقون حــول الطريقــة أو الأسلوب الذى يمكن أن يحققوا به هذا الأمر المرغــوب أو الموافقــون عليه جميعاً . ومؤدى ذلك قد يكون هناك اتفاقاً أخلاقيــاً لكــن تختلــف وتتباين التصورات حول كيفية تحقيق تلك الغاية المرغوب فيها .

٣ــ ينشأ الصراع نتيجة اختلاف رؤية الأفراد للعالم أو نظرتهم إليــه وذلــك نظراً لتباين أوضاعهم الشخصية ومصالحهم .

ومن ثم ، لما كانت المجتمعات تضم أفراداً متباينين فيما بينــهم مــن حيث مُثُلهُم الأخلاقية ومفهوماتهم ومصالحهم ، فإنه مــن المتوقــع حــدوث

شيئا ما فى المجتمع وهو متعذر وقوعه فى الكائنات الحية ، ويقصد بهذا الشئ الصراع . وقد ظهرت نظريات الصراع لمساعدة الباحثين على فهم نشوء وعمليات ومخرجات الصراع في المجتمع .

وغنى عن البيان أن نظريات الصراع تعد بمثابة خرائط سسيولوجية ترشد المسائل البحثية من خلال توجيهها لعلماء الاجتماع نحو مجالات وصور الشقاق الاجتماعى والنضال والضغوط والتعصبات ، أى نحو صور الصراع . وتشير تلك النظريات فى نفس الوقت لأنماط الجماعات المنخرطة فى صوره عن صور الصراع ، والعوامل أو الظروف التى تنشئ الصراع ، وكيف تتشكل جماعات الصراع وأثر الصراع على النظم الاجتماعية المختلفة ومخرج هذا الصراع فى ضوء ما قد يفضى إليه من تغير اجتماعى .

ومن المحاولات المبكرة للتنظير للصراع محاولة كارل ماركس ، ومن الثابت أن الكتابات التنظيرية التى قدمها كارل ماركس كتابت على جانب كبير من الأهمية لما اشتملت عليه من آراء وتصورات عديدة هامة. وحتى نفهم نظريته عن الصراع نجد أنفسنا مضطرين إلى تسليط الضوء على جانب من أفكاره . فمن الثابت أن نظرية ماركس عن الصراع تتسم بالطابع المادى . فقد ذهب إلى أن للصراع فى المجتمع جذوره فى الأساس الاقتصادى القائم ، أى فى الأنشطة التى ينخرط فيها الأفراد فى المجتمع. وقد تناول هذه الأنشطة فى ضوء عدد من المفاهيم الأساسية من بينها نمط الإنتاج Mode of production ، أساليب الإنتاج Means of production ، الطبقة البورجوازية Class bourgeoisie ، البروليتاريا Proletariat ، والرأسمالية Capitalism .

ويشير مصطلح نمط الإنتاج إلى شكل النشاط الاقتصادى الإنتاجى المسيطرة فى المجتمع . وهنا قد يكون شكل النشاط الاقتصادى هو الصيد أو الرعى أو الزراعة أو الصناعة ... الخ . ويذهب ماركس إلى أن نمط الصراع الذى قد يجده الفرد فى المجتمع يرجع إلى نمط الإنتاج السائد فيه.

وينشأ الصراع فى المجتمع ، فى رأى ماركس ، بين هؤلاء الذين يملكون وسائل الإنتاج أو أدواته وهؤلاء الذين لا يملكون هذه الوسائل . ومؤدى ذلك أن نمط الصراع داخل المجتمع يحدده نمط الإنتاج أو شكله القائم . وإذا كان محتوى الصراع يقرر نمط الإنتاج ، فإنه يتقرر أيضا من قبل هؤلاء الذين يملكون وسائل الإنتاج . فمثلا يعد المحراث ، فى المجتمع الزراعى المستخدم فى إنتاج الغذاء ، وسيلة حيوية من وسائل الإنتاج فى هذا المجتمع . أما فى المجتمع الصناعى فإن وسائل الإنتاج الأساسية فيه المصانع والآلات التى توجد داخلها .

ويشير مصطلح الطبقة فى كتابات ماركس إلى نمط التقسيد الاجتماعى المستند إلى ملكية أو عدم ملكية وسائل الإنتاج . ويشكل ملاك وسائل الإنتاج طبقة عليا مميزة ، وهى الطبقة التى تعيش على جهد الطبقة الدنيا " المستغلة " التى تتشكل أساسا ممن لا يملكون سوى جهدهم الذى يقدمونه . وقد أطلق ماركس على الطبقة العليا فى المجتمع الصناعى اسم الطبقة البورجوازية ، أما الطبقة التى لا تملك وسائل الإنتاج فأطلق عليها اسم طبقة البروليتاريا . فالبورجوازيون يملكون المصانع ويحققون أرباحا من بيع السلع المنتجة فى مصانعهم . وفى محاولة منهم لتحقيق هذا الربح كان عليهم أن يتنافسوا مع غيرهم ممن ينتجون نفس سلعهم ، وحتى ينجحوا فى منافستهم تلك فإن عليهم إنتاج وبيع منتجاتهم بأسعار منخفضة قدر الامكان . ويعنى ذلك الأمر دفع أجور منخفضة قدر الإمكان لأعضاء

طبقة البرولتياريا الذين يوظفوهم .

ونتيجة لعدم ملكية المصانع ، فإن البروليتاريين يجدوا أنفسهم مضطرين إلى بيع جهدهم أو عملهم من أجل شراء السلع الضرورية لبقائهم . ونتيجة للنضال والتنافس من أجل الحصول على فرصة عمل يتجه المنتجون إلى تخفيض الأجور التى يقدمونها للعمال من أبناء طبقة البروليتاريا ، الأمر الذى يترتب عليه تدهور أوضاعهم كطبقة ، وتؤدى المقارنة بين مستوى معيشة كل من البورجوازيين والبروليتاريين إلى صراع المصالح بين كل منهم ، الأمر الذى يؤدى إلى ما يسمى بالصراع الاجتماعى الذى يعرف ما يسمى بالعنف الثورى . ويسمى ماركس المجتمع الذى يقوم على الصناعة والمقسم إلى طبقتين بورجوازية وبروليتارية المجتمع الرأسمالى . وتبعا للمنظور الماركسى يجب أن يدرس المجتمع الرأسمالى فى ضوء أشكال التضاد والصراع القائم بين هاتين الطبقتين المتعاديتين . وبالتالى يتعين فهم وتفسير ما يسود هذا المجتمع (الرأسمالى) من ظواهر وأحداث اجتماعية فى ضوء حالة التضاد الناشئة عن الوضع الطبقى فيه وما يترتب عليه من صراع [١] .

وقد أخذ ماركس عن هيجل فكرة صراع الأضداد ، وإذا كان هيجل يؤكد أسبقية الفكرة على الوجود ويختزل حركة التاريخ إلى حركة الأفكار والمقولات المجودة ، فإن الفكرة المطلقة التى أكد عليها هيجل لا تمثل شيئا بالنسبة لماركس ، الذى ذهب إلى أن الطبيعة المادية هى الشئ الحقيقى . هنا حول ماركس فلسفة هيجل من فلسفة جدلية مثالية إلى فلسفة جدلية مادية .

---

(١) David M Qrenstein, op cit , pp 63-64

وتتبلور الفلسفة المادية فى :

١ــ أن حوادث العالم ما هى إلا أوجه مختلفة للمادة فــى تطورهــا ، ذلــك لأن المادة هى الموجود الخارجى (خارج الذات) ، وهى ليست بحاجــة إلى ذات أو روح تخلقها .

٢ــ والمادة بالتالى هى الواقع الأول ، وما الفكــر والإحســاس إلا انعكــاس لهذا الواقع المادى .

من هنا نرى أن الفلسفة المادية ترى أن الوجود الحقيقى هو المــادة، على خلاف الفلسفة المثالية التى ترى أن الوعى هو الموجود الحقيقى . بيــد أن تصور المادية الجدلية للعلاقة بين المادة والفكر يؤكد الــترابط والتفــاعل الموجود بينهما ، إذ ترى أن الفكر هو نتــاج للمــادة البالغــة التطــور ، أى المخ.

وترتكز النظرية الاجتماعية عند ماركس على أربعــة عنــاصر ، أو قضايا أساسية هى :

١ــ التصور المادى للمجتمع والتاريخ .

٢ــ الطبقات والصراع الطبقى .

٣ــ الاغتــراب .

٤ــ نظرية المعرفــة ، أى العلاقــة بيــن الوجــود الاجتمــاعى والوعــى الاجتماعى.

ونتناول هذه العناصر بشئ من التفصيل :

أولا : التصور المادى للمجتمع والتاريخ :

تتكون الماركسية من شقين متكاملين : المادية الجدلية Dialectical Materialism ، والمادية التاريخية Historical Materialism . والموضوع الأساسى للمادية الجدلية هو القضية الفلسفية الأساسية التى تدور حول علاقة الوعى بالوجود ، وموقف الفلسفة الماركسية من هذه القضية محدد بوضوح فهى تسلم بأن المادة والوجود أساس الوعى أو الفكر . فالوجود هو الأولى ، والوعى هو الثانوية ، وهى تسلم بالأساس المادى للعالم وبإمكانيته فهمه ومعرفته ، كما أنها تدرس هذا العالم المادى بوصفه فى حالة حركة وتطور مستمرين على أساس جدلى أو ديالكتيكى . وتتكشف المادية الجدلية عن أكثر القوانين التى تحكم تطور العالم المادى عمومية ، أى تلك القوانين التى تحكم كافة مجالات الواقع . فكل الموضوعات الحية وغير الحية ، وكذلك ظاهرات الحياة الاجتماعية والوعى تتطور على أساس قوانين الجدل الأساسية وحدة وصراع الأضداد وقانون التحول الكمى إلى تغير كيفى وقانون نفى النفى . كما تدرس المادية الجدلية أيضا القوانين التى تحكم المعرفة بوصفها عملية والتى تعكس قوانين العالم الموضوعى .

ويتضح ما تقدم أن فلسفة ماركس كانت مادية ، وتشكل المادية أساسا موضوع العلوم الإنسانية . فالمادة فى رأى ماركس هى التى توجد فقط ، أما " الوعى أو الشعور " فظاهرة لاحقة . وتعكس هذه النظرة تأثر ماركس بلدقج فيورباخ Feuerbach (١٨٠٤-١٨٧٢) الجناح الأيسر للفلسفة الهيجيلية [١] .

---

(١) محمد الغريب عبد الكريم ، مصدر سابق ، صفحات ١٣٦-١٣٧ .

ويعرف التصور المادى للمجتمع والتاريخ بالمادية التاريخية . وهو يشير إلى تطبيق المادية الجدلية على المجتمع ، ويعرف جلزرمان Glezerman فى كتابه " قوانين النمو الاجتماعى " ، المادية التاريخية بأنها النظرية العامة للعملية التاريخية ثم استخلاصها من دراسة التكوينات الاقتصادية الاجتماعية وهى فى نفس الوقت منهج لتحصيل المعرفة .

ويتلخص التصور المادى للتاريخ فى أن البناء الاقتصادى للمجتمع هو الأساس الذى يفسر البناء الفوقى بما يضمه من نظم قانونية وسياسية وأفكار فلسفية ودينية خاصة بكل مرحلة تاريخية محددة .

ويؤكد ماركس أن العلاقات القانونية والشكل الذى تتخذه الدولة لا يمكن فهمها من خلال النظر إليها فى ذاتها ، أو من خلال التطور المزعوم للعقل البشرى إنما من خلال الأوضاع المادية للحياة .

ونستطيع أن نحدد بشكل عام ـ تبعا لما تقدم ـ عدة أساليب إنتاجية تمثل مراحل التطور فى التشكيل الاقتصادى للمجتمع ، وهو المجتمع الاسيوى والقديم والإقطاعى والبورجوازى الحديث . وعلاقات الإنتاج البرجوازية أخر الأشكال الصراعية للعملية الاجتماعية للإنتاج . ولا يعنى هذا الصراع عداء شخصيا ، إنما صراع ناجم عن الظروف المحيطة بحياة الأفراد فى المجتمع ، كما أنه ناجم فى الوقت نفسه من القوى الإنتاجية الآخذة فى التطور فى أحشاء المجتمع البورجوازى وهى تخلق شروط حل هذا العداء وبهذا التشكيل الاجتماعى الجديد (المجتمع الاشتراكى) سوف يبدأ التاريخ الإنسانى [١] .

---

(١) أحمد أنكلاوى ، مصدر سابق ، صفحة ٢٦٤ .

ويرى رواد الماركسية أنصار الاتجاه الماركسى فى علم الاجتمــــاع، أن المادية التاريخية مكونا أساسيا وهاما من مكونات النظريـــة الماركســية . وهى فى ذات الوقت تمد علم الاجتماع بإطـــاره التصــورى الأساســى ، أو بعبارة أخرى تمد نظريته الأساسية التى تقدم إجابة علميـــة علــى المســألة السوسيولوجية المعرفية . ونقصد هنا مسألة العلاقة بين الوجود الاجتمـــاعى والوعى الاجتماعى ، ذلك الوجود الذى تعتــبره الماديــة التاريخيــة واقعــا اجتماعيا موضوعيا مستقلا عن الوعى، وترى الوعى تصويرا أقل أو أكـــثر دقة ووضوحا له . وعلى هذا الأساس فالمادية التاريخية هـــى إطــار علــم الاجتماع العلمى Scientific Sociology الذى يــدرس القوانيــن العامــة للتطور الاجتماعى ، وصور حدوثها وتحققها من خلال النشــاط الاجتمــاعى التاريخى للإنسان .

وإذا كانت المادية الجدلية تهتم بالوجود الموضوعى المســـتقل عــن الوعى ، وبتطور العالم وقوانينه العامة . فالمادية التاريخية تـــهتم بـــالوجود الاجتماعى كواقع اجتماعى موضوعى مســـتقل عــن الوعـــى الاجتمـــاعى للإنسان وبتطور المجتمع وقوانينه . وبذلك تحتــــل العلاقـــة بيـــن الوجـــود الاجتماعى والوعى الاجتماعى فى المادية التاريخيـــة نفـــس المكانـــة التـــى تحتلها علاقة الوجود بالوعى فى المادية الجدلية (١) .

ثانيا : الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقى :

تعد نظرية الصراع الطبقى ، وجها آخر للتصور المـــادى للمجتمـــع والتاريخ ، وهى النظرية التـــى تمـــت صياغتـــها لتفســير عوامـــل التغـــير

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، مصدر سابق ، صفحة ٥٠ .

الاجتماعى فى المجتمعات الطبقية القائمة على الاستغلال وتنهض الطبقات الاجتماعية عند ماركس أساسا عن علاقات الإنتاج السائدة ، وتؤدى هذه العلاقات فى المجتمعات الطبقية التى تقوم على الملكية الفردية لوجود طبقتين أساسيتين ، طبقة مستغلة تملك وسائل الإنتاج ، وطبقة مستغلة لا تملك سوى قوة العمل .

ونتيجة للأهداف والمصالح المتناقضة بين هاتين الطبقتين ، يكون الصراع حتميا حيث يؤدى فى النهاية ، ومن خلال الثورة الاجتماعية إلى تغيير علاقات الإنتاج أو شكل الملكية السائدة . فالطبقة المستغلة لا يمكن أن تتنازل عن امتيازاتها الطبقية طواعية ، ولذلك يكون إجبارها من خلال الثورة فى رأى ماركس حتميا .

وتتحد الطبقة الاجتماعية إذن وفقا لموقع أفرادها من وسائل الإنتاج الأساسية ، و وفقا للدور الذى تلعبه فى عملية الإنتاج ، ويعد الصراع الطبقى هو محرك التطور الاجتماعى فى المجتمعات الطبقية .

وأما فيما يتعلق بتفسير " ماركس " للصراع الطبقى ، فهو تفسير يرتبط بنظريته العامة ، ومفهومه المادى ، إن لم يكن فى قلب هذه النظرية، وفى بؤرة هذا المفهوم . وإذا أردنا توضيح ذلك لا نجد أدق من تلخيص ماركس نفسه لمفهومه وتفسيره حيث كتب يقول : " إن النتيجة العامة التى توصلت إليها ، والتى ظفر المرء بها ، وقادته كخيط موجه لدراساته يمكن صوغها باختصار كالآتى : يدخل الناس عن طريق الإنتاج الاجتماعى لحياتهم فى علاقات إنتاج محددة ، لا غنى عنها وتكون مستقلة عن ارادتهم. وهى علاقات تواكب المرحلة المحددة لتطور إنتاجهم

المادى[1] .

ويتكون البناء الاقتصادى للمجتمع من جماع هذه العلاقـــات ، وهـــو بناء يعد أساسا حقيقيا يظهر وفقا له البناء الفوقـــى ، القـــانونى ، والسياســـى الذى تصاحبه أشكال محددة للوعى الاجتمـــاعى . فأســـلوب إنتـــاج الحيـــاة المادية هو الذى يحدد وبصفة عامة مسار الحيـــاة الاجتماعيـــة والسياســـية . فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ، بل على العكس ، فإن وجودهـــم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم . وتدخل القوى المادية المنتجـــة للمجتمـــع فى مرحلة معينة من مراحل تطورها ، فى صـــراع مـــع علاقـــات الإنتـــاج القائمة ، أو مع علاقات الملكية التى تعمل من خلالها . ومن خـــلال أشـــكال تطور القوى المنتجة تتغلب هذه العلاقات على من قيودها ، ومـــن ثـــم تبـــدأ مرحلة الثورة الاجتماعية . وهذا يعنى أن العلاقات الاجتماعية التـــى ينتـــج من خلالها الأفراد العلاقات الاجتماعية للإنتـــاج ، تتغـــير وتتطـــور بتغـــير وتطور وسائل الإنتاج المادى ، والقوى المنتجة . وتقيـــم علاقـــات الإنتـــاج هذه فى مجملها ما يسمى بالعلاقات الاجتماعيـــة ومـــا يســـمى بـــالمجتمع ، وخاصة المجتمع فى مرحلة محددة من مراحل تطوره التاريخى [2] .

ثالثا : الاغتراب كظاهرة اجتماعية :

يرى ماركس أن حالة الاغتراب تبدأ بالانفصال بيـــن النـــاس وبيـــن وسائلهم فى الإنتاج والوجود . وذلك كما حدث فى إنجلـــترا ، إبـــان الثـــورة الصناعية حين هاجر صغـــار مـــلاك الأرض الأحـــرار ، واغـــتربوا عـــن ممتلكاتهم تحت وطأة الفقر ، وذلك ببيع قوة عملهم فـــى المـــدن لأصحـــاب

---

(١) أحمد النكلاوى ، مصدر سابق ، صفحات ٢٦٣ـ٢٦٤ .

(٢) عبد الباسط عبد المعطى ، مصدر سابق ، صفحات ٦٥ ــ ٦٦

المشروعات الرأسمالية . حيث دخل كل من المجموعتين الرأسماليتين والعمال مع بعضهم البعض فى علاقة آلية أساسا ، ذات طابع نفعى ، ومن طبيعتها أن تظل كذلك ، وأن تظل الطبقتين مغتربتين عن بعضهما البعض، لأن هذه العلاقة قائمة على مصالح متصارعة ومتضاربة وظروف معيشية مختلفة تماما .

ويبدأ العامل ، بمجرد الدخول فى هذه العلاقة ، فى إنفاق جهوده وطاقاته فى إنتاج الأشياء وتصبح قوة عمله متموضعة فى شكل سلع ليس له سيطرة عليها ، وبهذا المعنى كلما ازداد إنتاجه تزايد فقره ولا يعنى اغتراب العامل عن إنتاجه أن عمله قد أصبح موجودا فقط ولكنه خارج ذاته مستقلا عنه . كما لو كان شيئا غريبا عنه .

ومن ثم نجد اغترابا حقيقيا عن وسائل إنتاجه ، تضطر العامل لأن يكون علاقة مغتربة مع إنسان آخر ، هو صاحب العمل ، ونشاطه ذاته ، الذى يؤديه كوسيلة لوجوده هو نشاط اغترابى ، لأن الإنتاج يظل مغتربا عن العامل وتظل عملية الإنتاج ذاتها خارجة عن وعيه ورغباته الإنسانية، ويتزايد اغتراب الإنسان عن ذاته وهى حقيقة تعبر عن نفسها فى اغترابه عن الآخرين .

ولابد أن تلغى هذه العلاقة الاغترابية إذا تطلع الإنسان إلى مكانة إنسانية حقيقية . ولن يتم ذلك فى رأيه إلا بإلغاء الوضع الراهن الرأسمالى. فقوى الإنسان الخلاقة وقدرته على بلوغ الكمال وتحقيق الذات غير محدودة إذا ما ألغيت العلاقات والظروف التى تعوق نموها وتطورها. على الإنسان أن يتحرر من الظروف الاجتماعية التى خلقها وأصبح سجينا لها.

رابعا : العلاقة بين الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى :

يقرر ماركس فى هـــذا الصـــدد أن النشـــاط الاجتمـــاعى والعقـــل الاجتماعى يتحددان بشكل واضح بوصفهما اجتماعيين ، لذلك فـــإن النشـــاط والعقل لا يخرجان إلى حيز الوجود إلا من خلال علاقة حقيقيـــة بـــالآخرين، وهما يتحققان حيثما يقوم هذا التعبير الاجتماعى المباشر على أساس طبيعـــة النشاط . أو يتطابق مع طبيعة العقل .

ومن ثم فإن مادة العمل ليست هى فقـــط ذات الطبيعـــة الاجتماعيـــة كاللغة التى يستخدمها مثلا المفكر ، بـــل إن وجـــود الإنســـان هـــو عمـــل اجتماعى. ولهذا السبب ، يقرر ماركس أن ما أنتجه إنما أنتجـــه مـــن أجـــل المجتمع وأنا واع بتصرفى بوصفى كائنا اجتماعيا .

ويؤكد ماركس ضرورة أن نتجنب التسليم بالمجتمع بوصفه تجريـــدا يواجه الفرد ويقابله . فالفرد كائن اجتماعى والشكل الذى تتخذه حياتـــه يتـــم إنجازه وتحقيقه من خلال علاقته وارتباطه بالآخرين . والإنسان من وعيـــه بخصائصه الإنسانية العامة يؤكد حياته الاجتماعية الحقيقية ، ويعيـــد انتـــاج وجوده الحقيقى ، فى مجال الفكر . وعليه ، فإن الفكر والوجود رغـــم أنـــهما يشكلان شيئان متميزان ، فإنهما يشكلان وحدة واحدة .

إن أفكار الطبقة المسيطرة ، فى كافـــة العصـــور ، هـــى الأفكـــار السائدة والمسيطرة . فالطبقة التى تتمتع بنفوذ مـــادى فعـــال ، تتمتـــع فـــى الوقت ذاته بنفوذ فكرى مسيطر ، ولذلـــك تخضـــع لـــها فكريـــا الطبقـــات الخاضعة ماديا باعتبارها تفتقر إلى وسائل الإنتاج الفكرى . وعليـــه ، فـــإن الأفكار المسيطرة ليست إلا تعبيرا مثاليا عن العلاقات المادية المسيطرة.

لذلك يستحيل ــ كما يرى مـــاركس ــ تاريخيـــاً أن نـــنزع أفكـــار الطبقة المسيطرة عن الطبقة المسيطرة ذاتها ، ويســـتحيل بالتـــالى أن نخلـــع على مثل هذه الأفكار صفة الوجود المستقل ، أى أنه لا يمكن الإشـــارة إلـــى الأفكار المسيطرة من عصر ما ، دون الإشارة إلـــى ظـــروف إنتـــاج هـــذه الأفكار ومنتجها ·

وتتحدد أهم أبعاد تصور الصراع لدى ماركس فيما يلى :

أولاً : يعد الصراع بُعد أساسى مـــن أبعـــاد المجتمـــع الإنســـانى ، فتـــاريخ الإنسان سجل لصراعه باستثناء الحالات التـــى تكـــون فيـــها الملكيـــة جماعية ، سواء كان ذلك فى الأشـــكال الأوليـــة للملكيـــة كالمشـــاعة الريفية أو فى الأشكال التى سيختفى فيها الصراع الطبقـــى كـــالتكوين الشيوعى ، حيث لا توجد فيه طبقات أو دولة ·

ثانياً : يحدث الصراع على مستويين : داخل الطبقة وبين الطبقـــات · ومـــن ثم يعد هذين المستويين محاور لوصف هذه الظاهرة ·

ثالثاً : تعد الطبقة مفهوماً محورياً فى دراسة الصراع الطبقى ، فـــهى وحـــدة للوصف والتحليل ، لأن الشكل الأساسى للصـــراع الاجتمـــاعى هـــو الصراع الطبقى ·

رابعاً : تتحدد الطبقات عن طريق المواضع التى تحتلها كـــل جماعـــة مـــن ملكية قوى الإنتاج ووسائله ، ويسهم فى تكوينها الوعى الـــذى يعتمـــد على الوجود ، والصراع الذى يسهم فى نضوج المصالح وبلورتها.

خامساً : يفسر الصراع تفسيراً بنائياً فهو يرتبط بقطاعى البنـــاء : الأساســـى

والبناء الفوقى ، فالأول يحـدد مصـدر الصـراع بالتناقضـات بيـن العلاقات الاجتماعية التى تحددها علاقات الإنتـاج ، والثـانى يكسـبه طابعاً سياسياً هو بالضرورة اجتماعى .

سادساً : تنحصر أهم مظاهر وجود الصـراع أو المؤشـرات التـى تشـير إليها، فى تناقض المصالح بين أطراف الصراع ، ووعى كـل طـرف بمصالحه ومصالح الطرف الآخر .

سابعاً : يشير مفهوم الصراع إلى وجود نضال بين طرفيـن علـى الأقـل ، طبقتين لكل منهما مصالح يسعى إلى تحقيقها ، وهـذا التدقيـق يفسـر بمصالح الطرف الآخر . فمصالح العمال فى مزيد من الأجـر يعنـى خسارة أصحاب رؤوس الأموال من الربح .

ثامناً : تُتاح لمن يملك قوى الإنتاج نصيب أكبر ، وفرصـة أكـبر وأكـثر فاعلية فى صراعه مع غيره .

تاسعاً : هناك تساند متبادل بين الوعـى الاجتمـاعى والصـراع ، فـالأول يبلور الثانى ، الذى يساعد بدوره على إنضاج الوعى .

عاشراً : تتركز الوظيفة الأساسية للصراع فـى تغيـير المجتمـع وإحـلال تكوين اجتماعى ــ اقتصادى محل آخـر . فـالصراع فـى جوهـره نتيجة للتراكم الكمى للتناقضات الاجتماعية داخل البناء الاجتماعى .

وجماع القول أن كشف المادية التاريخية استطاع أن يسـد ثغرتيـن أساسيتين . فقد كانت تلك النظريات مثالية حين حصرت نفسها فـى دراسـة الدوافع الأيديولوجية للنشاط الإنسانى ، إلى جانب أنها لم تـدرس المحـرك

الأساسى لهذه الدوافع ، هذا من جانب ، كما اهتمت فقط بدراسة دور الشخصيات الهامة فى التاريخ، بجانب أنها لم تدرس الأفعال الاجتماعية للجماهير من جانب آخر. أما يميزها عما سبقها من محاولات نظرية فى مجال علم الاجتماع فيمكن حصره على النحو التالى :

١ـ النظرة الموضوعية الاجتماعية للمجتمع .

٢ـ إبراز القيمة العلمية لعلم الاجتماع من خلال تحديد إمكانات الوصول لقوانين تحكم التطور الاجتماعى ، سواء كانت قوانين عامة ، أو نوعية خاصة بكل تكوين اجتماعى اقتصادى .

٣ـ إبراز قيمة الفعل الاجتماعى الإنسانى والإرادة الإنسانية .

٤ـ تقديم مفهومات علمية ، وقضايا ، وفروض قابلة للاختبار العلمى .

٥ـ إبراز ديناميات البناء الاجتماعى من خلال توضيح أهمية الصراع والتغير فى هذا البناء [١] .

نظرية الصراع وإعادة تعريف " رالف داهرندورف " للطبقة :

نستطيع القول منذ الوهلة الأولى أن هناك تشابه بين خريطة نظرية الصراع التى قدمها كل من " كارل ماركس " والمنظر الألمانى المعاصر للصراع " رالف داهرندورف " ، ورغم التشابه بين كل منهما من حيث الأطر التى قدموها ، فإن المنابع التى استقوا منها أفكارهم تباينت اتجاهاتها ومضموناتها . فرغم أن " داهرندورف " أخذ عن " ماركس " الكثير من

---

(١) راجع : عبد الباسط عبد المعطى . مصدر سابق ، صفحات ٥٣ ، ٦٨ـ٦٩ .

منطقه وأفكاره ، فقد أحدث فيها تغيرا بالغا فيما تقوم عليه من مضمون. ويتجلى ذلك بوضوح فيما قدمه داهرندورف من إعادة لتعريف مفهوم الطبقة.

فقد عرف " ماركس " الطبقة تعريفا ماكروسكوبيا حيث نظر إليها من خلال الوضع الطبقى الذى يقوم على التفرقة بين الملاك وغير الملاك لوسائل الإنتاج . على حين عرف " داهرندورف " الطبقة فى ضوء التفرقة بين هؤلاء الذين يملكون السلطة والقوة وهؤلاء الذين يضعف حظهم منها . فمن يملكون السلطة يكونون حريصين على المحافظة عليها ويبذلون فى سبيل ذلك كل غالى ورخيص ، أما الذين يفتقدونها فإنهم يسعون بكل السبل إلى الحصول عليها ، ومن ثم تبدأ تتكون جماعات مستترة أو غير معلنة ذات تنظيم للحصول على السلطة التى يفتقدوها . وتسعى هذه الجماعات المتصارعة إلى تنظيم جهودها فى هذا السبيل وتضع من البرامج ما يضمن لها تحقيق غاياتها (الحصول على السلطة أو المحافظة أو الإبقاء عليها) ، كما يضعون أيديولوجيات لتبرير أوضاعهم ووسائلهم . فالطبقة التى تتملك السلطة تضع من الأيديولوجيات ما يبرر حقها فى هذه السلطة وعدالة تمثيلها لها ، فى حين أن الطبقة التى ليس لها سلطة تضع أيديولوجية تبرر بها حقها فى اكتساب السلطة ، وأن البناء القائم الذى يبرر هذا الوضع بناء ظالم وغير عادل . ومن ثم فإنه ينشأ الصراع فى هذه الحالة يكون نتيجة لتباين وتضاد أيديولوجية كل من الطبقتين وما تنتهجه من استراتيجيات لتحقيق غاياتها سواء بالعنف أو الحياد والتفاهم .

وغنى عن البيان أن هذا الصراع يتوقف حسمه فى صالح أى منهما على أوضاع وظروف وموارد كل من هاتين الطبقتين المتصارعتين.

ولا يخرج ناتج هذا الصراع في رأى داهرندورف عن أمرين محتملين هما : أمر نصر كامل للطبقة التى لديها السلطة أو نصر كامل لتلك التى تفتقرها . ويلاحظ أنه فى الحالة الأولى لا يقع أى تغير في أدوار السلطة ، على حين يلاحظ أنه فى الحالة الثانية نجد تحرك بعض الأفراد إلى أدوار السلطة وتشكل طبقة مفيدة جديدة .

ويذهب داهرندورف إلى أن دراسة الظواهر الاجتماعية يتعين ألا تتم فى غيبة من الوعى بهذا الصراع وفهمه واستيعاب مضموناته (١) .

(٣) المنظور البنيوى :

فى حديثنا عن كارل ماركس أشرنا إلى ما يسمى ببناء نمط الإنتاج فى المجتمع الرأسمالى ، كما أشرنا إلى ما يساندها أو يرتبط بها من أبنية وآليات بنائية مختلفة ذات أنماط متعددة بدورها . ولقد تجلت الرؤية الواقعية لماركس فى تحليله لأنماط الإنتاج المختلفة القائمة في الأشكال الاجتماعية العديدة للمجتمعات . ومؤدى ذلك أن المذهب الواقعى في العلم الاجتماعى يقوم فى الأساس على ما يسمى بالتحليل البنائى . ومن الثابت أن هناك العديد من الأبنية والعديد أيضا من المناهج البنائية والنظريات . وعلى سبيل المثال نجد علم اللغويات لدى " شومسكيان C h omskyan " والبنائية الوظيفية فى علم الأنثروبولوجيا والبنيوية الماركسية وليفى شتروس والبنيوية الفرنسية ... الخ . ورغم ذلك التنوع فإن هناك منهجا بنيويا واحدا يصلح لكل ميادين الدراسة الإنسانية بدءا من ميدان الأنثروبولوجيا إلى الأدب ومن السياسة إلى اللغويات .

---

(١) David M Qrenstein op cit pp 60-61

ومن الثابت أنه رغم وجود خصائص عامة مشتركة تجمع بين أغلب صور أو أشكال التحليل البنيوى ، فإن هناك قدرا ملحوظا من الاختلاف أو التباين فيما بينها . ويمكن ملاحظة هذا التباين فيما قدمه الوضعيون والواقعيون والذرائعيون Instrumentalist من تحليلات للمفاهيم التى تناولت قضية البناء .

الملامح العامة (المشتركة) لأشكال التحليل البنائى :

وتتحدد الملامح المشتركة لصور التحليل البنائى المختلفة فى السمات أو العناصر التالية :

أولا : التسليم بفكرة أن العلاقات القائمة بين العناصر المكونة للبناء هى التى يتعين أن تحظى بالاهتمام وليس الأفراد المكونين له ، وأن العناصر تتكون فى حد ذاتها من شبكة أو مجموعة من العلاقات القائمة بين أجزاء كل عنصر من العناصر. وقد دعم ذلك كارل ماركس حين أكد أن الوضع الطبقى الخاص بالعمال الأجراء يتعذر تحديده أو تحليله إلا فى ضوء علاقات تلك الطبقة بطبقة الرأسماليين. كذلك أكد علم الأنثروبولوجيا على ضرورة النظر إلى نسق القرابة فى إطار مجموعة العلاقات القائمة بين (الابن ، الأخت، الأم ... الخ). وهى مفردات يتعين تعريف كل منها وتحليلها فى ضوء علاقاتها ببعضها أو كلها من المفردات .

ثانيا : توظيف واستخدام العلاقات العادية أو المنظمة القائمة بين العناصر التى يشتمل عليها البناء . فكل بناء يشتمل على علاقات نمطية ومستمرة تربط بين أجزائه وهى التى تكون فى الواقع البناء أو

النسق ويتعذر فهم بعض من خصائصها المكونة لـــها دون أن نضـــع في الاعتبار الوقوف علـــى مجمـــل شـــبكة العلاقـــات أو غالبيتـــها . ومؤدى ذلك أن البناء ليس بشئ يمكن إدراكه بشكل مباشر بحواســـنا. إن مفهوم البناء ، على هذا النحو ، يقوم علـــى تجريـــده مـــن ســـماته المشاهدة ، كما هو الحال بالنسبة للمباني والأشياء الهيكليـــة العيانيـــة . ومؤدى ذلك أن البنـــاء فـــى حقيقتـــه ليســـت عنـــاصر المشـــاهدة أو المحسوسة إنما هو التصور الذى يحمله له الدماغ من حيـــث غاياتـــه التى وجد من أجلها ومن أجل تحقيقها . ومن ثـــم فـــإن مضمـــون أو محتوى أى تحليل بنائى عليه أن يتوصل إلى فوائـــده المتوقعـــة منـــه Predictive fruitfulness . ونخلص من ذلك إلى أن البناء يكمـــن داخل الشئ نفسه وليس خارجه . فالوضعيون حيـــن يتحدثـــون عـــن البناء الاجتماعى ، إنما يشيرون إلى القوانين والقواعد التـــى وجـــدت كى تحكم الظواهر المشاهدة. أما الواقعيون فإن البناء يتكـــون لديـــهم من نسق العلاقات الموجهة والمفسرة للعلاقات الاجتماعيـــة المنـــهده وأنماط أو صور الوعى الاجتماعى القائمة .

البنيـــويـــة :

تمثل البنيوية لـــدى ليفـــى ستـــراوس منظـــورا ذرائعيـــا أى ليـــس بالوضعى أو بالواقعى. وقد أسهم فى نمو الحركة البنيوية " لاكـــان Lacan " عالم التحليل النفسى ، و " شومكس " عالم اللغويات ، و " فوكـــالت " المـــهتم بتاريخ العلم ، ومدرسه " بورباكى " مـــن أنصـــار مدرســـة الرياضيـــات و " جودلبير " فى المادية التاريخية .

وقد عرفت البنيوية ببعض الخصائص الأساسية هى :

١- تؤكد البنيوية على أن الظاهرة يتعين عدم تجزئتها إلى العناصر الفردية التى تكونها وألا تدرس على نحو ذرى . فكل نسق يجب تناوله باعتباره شبكة منظمة من العناصر المترابطة والملتحمة .

٢- يسعى البنيون إلى تعيين البناء المستتر أو الذى يكمن خلف الواقعة الاجتماعية المشاهدة بصورة مباشرة والمدركة أو المعروفة . فنحن نتحدث اللغة ونعتبرها واضحة وقادرين على الحديث بها وأن نفهم من خلالها رغم أننا لا نكون واعين بالقواعد اللغوية للغة التى نتحدثها .

٣- التأكيد على أن هناك بعض الخصائص العقلية العامة هى التى تشكل الأساس الذى يعمل العقل البشرى وفقا لها . أى أن هناك بعض العناصر الجينية الموروثة الكامنة خلف سطح الظاهرة المدروسة هى التى تشكل بنية آلية العقل فى التعامل معها . وما على البنيوية إلا أن تحلل الطرق التى تصبح بها الظواهر البنائية الظاهرة منها والمستترة دالة على المكونات البنائية للعقل .

٤- التأكيد على أن الطرق الموظفة فى تحليل اللغة يمكن استخدامها أو تطبيقها على الأنشطة الاجتماعية غير اللغوية . أى يكون الاهتمام فى عملية التحليل الوقوف على الطرق التى تصبح بها معانى الحوادث والأشياء فى العالم الاجتماعى لها بنية اجتماعية [١] .

---

(١) Russell Keat & John Urry Social Theory as Science, Routledge & Kegan Paul London. 1975, pp 119-126

الاتجاهات الراديكالية - النقدية :

عرف النقد الاجتماعى ، فى صورة أو أخرى ، طريقه فى معظم المجتمعات البشرية . ويمكن مشاهدته أيضا حتى فى المجتمعات الأولى وفى المجتمعات القبلية البسيطة القائمة فى الوقت الحاضر ، حيث ساهمت بعض المناسبات التى تعرفها هذه المجتمعات كالمناسبات الدينية وحفلات الزواج فى انتشار النقد من قبل بعض الأفراد أو الجماعات الاجتماعية فيها. بيد أن إطار أو مجال النقد فى مثل هذه المجتمعات ومساحاته يتسم بالمحدودية أو الضيق بالضرورة . ففى هذه المجتمعات تكون سيطرة العادة والتقليد كبيرة ، كما أن درجة التغير والتبدل التى تصيب أنماط السلوك المستقرة فيها محدودة . ويسود النقد وتتسع حركته فى المجتمعات المتعلمة التى تتوفر لديها الموارد الاقتصادية وتعرف نمط الحياة الحضرية ووجود الطبقة المثقفة ، الأمر الذى يعطى الفرصة للنقد فيها أن يقوم بدوره ويمارس تأثيره .

وإذا ذكرنا الغرب ، فإننا سريعا ما نشير إلى المجتمع اليونانى القديم وبخاصة أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، والتى قدمت نموذجا ساطعا لمجتمع ساعد فيه حرية البحث على أن يزدهر ويصبح النقد مظهرا معترف به ومقبول فى الحياة الاجتماعية اليومية والعادية .

كذلك عرفت بعض الحضارات الأولى التى ازدهر فيها البحث العلمى والنقد الاجتماعى وبخاصة الحضارة الهندية والصينية . وإذا ما نظرنا إلى أثينا سوف نلاحظ أن النقد فيها كانت تمارسه جماعة صغيرة من الناس ، كما أن الموضوعات التى كان يتناولها النقد كانت محظورة بحيث إذا اتسع نطاق النقد الذى يتناول هذه الموضوعات كان يعرض من

يصدر عنهم للعقاب . ويمكن القول أن أثينا بما قدمته من واقع مثالى فى هذا المجال استطاعت أن تؤثر إلى حد بعيد فى تاريخ الفكر الأوروبى.

ومن الثابت أن البدايات الحقيقية لحركة النقد الاجتماعى كحركة كان لها تأثيرا عظيما وفاعلا فى الحياة البشرية وجدت فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية مع بدايات القرن الثامن عشر وهى المرحلة التى عايشت ما يسمى بعصر التنوير ، وذلك على النقيض مما عرفته شعوب أوروبا فى العصور المظلمة التى عانت من قهر الحكومات للفكر وكبته . فقد ساعدت العديد من المتغيرات على ظهور الروح النقدية . فقد كانت الأرض فى هذه المرحلة ممهدة لذلك وبخاصة نتيجة لوجود دعاة الإصلاح أو الإصلاحيين ، ونمو المعتقدات البروتستانتينية وبخاصة ما قدمته من تفسيرات وشروحات للدين المسيحى وتأثير الدين على السلوك الاجتماعى وإمكانية تحقيق النهضة ، وإلى جانب ذلك كله التعليم التقليدى ونمو المذهب أو التيار الإنسانى . ويضاف إلى ذلك ما شهدته هذه المجتمعات فى هذه المرحلة من انفجار معلوماتى معرفى فى ميدان العلوم الطبيعية نتيجة لتعاظم المساحة المتاحة أمام حرية البحث والتقصى واستخدام المنهج التجريبى ، ونتيجة أيضا للنمو الصناعى الذى شجع على انتشار هذه الحرية وتطبيق مناهج العلم ، وبخاصة المنهج التجريبى فى دراسة الحياة الاجتماعية . ولا ننسى ما ساعدت عليه التحولات والتغيرات الاجتماعية والسياسية التى شهدتها المجتمعات فى هذه الفترة من تشجيع وإنماء لروح حركة النقد الاجتماعى .

فقد سادت الحركات الديمقراطية لضمان وصول الحقوق السياسية إلى كل البالغين من السكان ، كذلك ساعد التقدم الصناعى على تحطيم القيود وصور القسر القديمة ، إلا أنها رغم ذلك أدت فى نفس الوقت إلى

ظهور مشكلات جديدة ومنها التكدس السكانى البالغ فى المناطق التى شهدت صور النمو الصناعى واعتبرت مقرا لها ، إلى جانب الفقر والأوضاع الصحية السيئة فى المدن سريعة النمو وتأثر الأسرة وتصدعها نتيجة ظروف العمل الجديدة وبخاصة اشتغال المرأة والأطفال فى المصانع، والحاجة إلى نشر التعليم ليقابل المهن الصناعية والتجارية الجديدة وتقديم خدمات والقيام بأنشطة لمقابلة مشكلة الفراغ لدى الجماهير الحضرية .

ومن ثم لا يكون من المستغرب إن عرف الجانب الأخير من القرن الثامن عشر ظهور حركات للمعارضة الاجتماعية والنقد الاجتماعى على نحو ملحوظ أو غير مسبوق أو متوقع . وقد عرفت هذه الحركات بلدان أوروبا بوجه عام ، وإن كانت أكثر كثافة وحدة فى البداية فى فرنسا وقد تجلى ذلك ، على صعيد الفعل ، فى الثورة الفرنسية ، وعلى صعيد الفكر النقدى، فى دائرة معارف " دترويت و دى آلمبرت D'Alembert " . فقد بدأت دائرة المعارف وبصورة هادئة فى نشر ترجمة فرنسية لدائرة المعارف الإنجليزية وانتقلت إلى دترويت من خلال مسح نقدى للمعرفة الحديثة وتطبيقاتها عن طريق كثير من مفكرى وعلماء هذه المرحلة البارزين. ولقد هدفت دائرة المعارف إلى مساعدة الإنسانية عن طريق بيان السبل التى تقدمت بها العلوم الطبيعية ومهاجمة الأفكار المتخلفة والعفنة وتفنيدها وتطبيق مناهج العلم فى دراسة المسائل الاجتماعية والسياسية .

ولقد استطاعت دائرة المعارف أن تجمع بين نخبة من الكتاب والمؤرخين والفلاسفة والعلماء فى مشروع عام ، وهو دائرة المعارف ، الأمر الذى ساعد بدوره على وجود منظومة جديدة من الأفكار والآراء والتوجهات ، وساعد على نشرها على نحو كبير فى فرنسا وخارجها نجاح

هذا العمل الموسوعى العلمى . وقد أبان " فولتير " أن أكثر من أربعة آلاف نسخة من هذا العمل بيع من الإصدار الأول له على الرغم من ارتفاع سعره ، كما أنها حققت ربحا للناشر يزيد عن ٥٠٠% .

ويتمثل الإنجاز الكبير لدائرة المعارف فيما حققته من لفت انتباه الناس وبشدة نحو بيئتهم المباشرة التى يحيون فيها ، ونمو عوالم العلم الجديدة ، والصناعة ، والسياسة ، وجعلتهم فوق ذلك أكثر تفهما ودعوة للنقد الاجتماعى فى فرنسا . وقد حمل لواء ذلك على نحو مبكر " سان سيمون" والاشتراكيون الأول والعلماء الاجتماعيين ، سواء كانوا علماء اقتصاد أو حملة العلم الجديد ، أى علم الاجتماع .

وقد شهدت بريطانيا مثل هذا الوضع السابق فى فرنسا ، وإن كان بصورة أقل شدة وعنفا . فقد أخذت جماعة صغيرة تدعى مفكرى اسكتلندا على عاتقها التمهيد لحركة النقد الاجتماعى فى بريطانيا . فقد قام " دافيد هيوم " بالدعوة إلى تطبيق المنهج التجريبى التى تستند إلى المنطق والعقل على المسائل الأخلاقية والسياسية . كما بين " آدم سميث " كيف يمكن استخدام هذا المنهج وتطبيقه فى ميدان الاقتصاد السياسى ، كما حاول مؤرخون من أمثال " آدم فرجون وجون ميلر " بيان مراحل التقدم البشرى والتمييز بينها على نحو علمى ليبينوا طابع النظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى كل مرحلة ، وليقروا ما هى النظم وطبيعتها الخاصة بمرحلة الحضارة الصناعية الجديدة . وقد قام بعد ذلك الشموليين الإنجليز بالهجوم على الأفكار التقليدية ونقد مفهوم القانون الطبيعى والدعوة إلى مبدأ تحقيق السعادة العظمى لأكبر عدد من الناس ، ومن ثم وضعوا أساس النظرية الراديكالية والديمقراطية للمجتمع .

وعليه ، يمكن القول أن الاشتراكيون الإنجليز قاموا ، كما قام زملاؤهم الفرنسيون باستثمار الفكر الفلسفي والاقتصادي والسسيولوجي الجديد في تكوين حركة نقد عامة للمجتمع الرأسمالي في العقود القليلة الأولى من القرن التاسع عشر .

ومن المشاهد أن نمو حركة النقد الاجتماعي في ألمانيا كانت أبطأ من نظيراتها في فرنسا وإنجلترا ، كما أنها كانت أكثر فلسفية في طابعها. وقد بدأ مشوار هذه الحركة في ألمانيا فلاسفة التاريخ من أمثال " هيجل " على وجه الخصوص . وقد حاول هيجل مثلما فعل المؤرخون الاسكتلنديون الوقوف على مراحل تقدم الإنسانية التي ربط بينها وبين نمو الحرية . وقد اعتبرت فلسفته فلسفة نقدية نظرا لقيامه بدراسة نقدية للمجتمعات الأولى لبيان ما كانت تقوم عليه الحياة داخلها من درجة من درجات الحرية واستخدام العقل أو المنطق ، كما اعتبر نقديا كذلك لنظرته لحركات الفكر الحديثة على أنها وجدت من أجل المساعدة على تحقيق التغير وإحداثه في المجتمعات والثورة على النسق القديم للحياة في المجتمع. وإذا كان " هيجل " أصبح محافظا في آرائه الاجتماعية والسياسية في سنواته الأخيرة ، فإن فلسفته النقدية ظلت فلسفة راديكالية على يد "الهيجيليين الجدد " في الفترة من ١٨٣٠ وحتى ١٨٤٠ ، وانتقلت لتتشبع على نحو أكبر بالمشكلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع . فقد أقام كارل ماركس فكره على أساس من فكر أستاذه ، كما تكون ما أطلق عليه اسم نادي الأستاذ Doctor's club الذي كان أعضائه من الهيجيليين الجدد في برلين الذي أخذ على عاتقه المحافظة على نظرياته (نظريات هيجل) الثورية.

ويمكن القول أن حركة النقد الاجتماعي تشكلت على نحو واضح

وإلى حد بعيد فى أوروبا مع منتصف القرن التاسع عشر وأخذت صور أشكالا عدة . فقد نشر الاشتراكيون الأول ، فى فرنسا وبريطانيا ، انتقاداتهم للنسق الصناعى الرأسمالى وبينوا البرامج البديلة للإصلاح الاجتماعى أو لتلك التى حوتها اليوتوبيات المعروفة . كذلك ظهر البيان أو "الإعلان الشيوعى " عام ١٨٤٨ والذى اعتبر دعوة صريحة للثورة فى أوروبا ، والتى جعلت الأحزاب الاشتراكية والاتحادات التجارية والجمعيات التعاونية تأخذ طريقها فى الظهور بصورة سريعة ومذهلة . كان الشغل الشاغل للناس فى هذه المرحلة مناقشة التصورات والمعتقدات التقليدية والأسس أو القواعد الاجتماعية التى يتوقعون أنها سوف تحكم حياتهم.

وجدير بالإشارة أن العلوم الاجتماعية الجديدة كان لها دور كبير فى إذكاء الاتجاه النقدى ، على الرغم من أنها لم يكن لها علاقة مباشرة بالاتجاه الاشتراكى . فقد قام رجال الاقتصاد السياسى بدراسة أوضاع عمال الصناعة فى مصانعهم ومساكنهم ، كما قام بعضهم بجهود إصلاحية فى محيط هذه الطبقة . كذلك انشغل علماء الاجتماع الأول بمشكلات أكثر شمولا وعمومية وطرحوا العديد من التساؤلات حول طابع الحكومة ، نسق ملكية الثروة ، مستقبل الحياة الأسرية والآثار الاجتماعية للنظم الدينية والأخلاقية .

فقد ذهب " اوجست كونت " في مؤلفه " الفلسفة الوضعية " إلى أن الحياة الاجتماعية للإنسان لا يمكنها أن تظل محكومة لزمن طويل بالدين المسيحى الذى سيطر على أوروبا فى العصور الوسطى ، وأن فلسفة علمية جديدة أصبحت تفرض نفسها لإعادة تشكيل الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية . كذلك ذهب " هربرت سبنسر " إلى ما يشبه ما

ـهب إليه " اوجست كونت " من ضرورة قيام نظام اجتماعى جديد . فقد
ـدى قناعته بمبدأ أتركه يعمل وبمدبأ البقاء للأصلح ، رأى ضرورة وجود
ـساق متعددة تنظم الحياة الاجتماعية وتتنافس فيما بينها لتحقق هذه الغاية .
ويرى أن ذلك مقدمة أساسية لتوفير المزيد من الحرية .

وقد نظر " كارل ماركس " للحياة الاجتماعية من منظور آخر ، وأدرك مثل " كونت " أهمية تقدم العلم والتكنولوجيا ، إلا أنه اعتبر أن ـغاية الأساسية من هذا التقدم يجب أن يتجه نحو تشكيل طبقات اجتماعية وتطوير الصراعات الطبقية . وقد شن " ماركس " حملة من النقد العنيفة ـلنظام الاقتصادى والسياسى الرأسمالى .

وقد وفرت العلوم الاجتماعية مادة للنقد ساعدت عليها المسوح العديدة التى قام بها العلماء الاجتماعيون للأوضاع والأحوال الاجتماعية . وقد غطت هذه المسوح قضايا عديدة من بينها أحوال السجون ، صحة ـسكان فى الأقاليم الحضرية ، أوضاع العمل داخل المصانع (وبخاصة أوضاع النساء والأطفال) ، الفقر ، البطالة ، الاعتلال الصحى بين عمال الصناعة . وقد خضعت كل هذه الموضوعات لبحوث تفصيلية دقيقة ووصف شامل . فقد لوحظ أن استمرار النمو الصناعى يترتب عليه اتساع نطاق المشكلات الاجتماعية ، مما جعل العلماء الاجتماعيين مطالبون دوما بدراسة العديد من المسائل المتنوعة بدءا من العلاقات الصناعية إلى الطلاق ، ومن حاجات كبار السن إلى النمو الفيزيقى للطفل .

لقد أضافت النظريات الاجتماعية والمسوح الاجتماعية الكثير ، مما أشعل حركة النقد التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر . وليس معنى ذلك أن كل العلماء الاجتماعيين انشغلوا بحركة النقد ، إذ رغم وجود

المصلحون الاجتماعيون والراديكاليون السياسيون بينهم ، فإن طائفة أخرى كبيرة اقتصر دورها على تقديم توصيف وتفسير موضوعى للأحداث الاجتماعية . ومع ذلك فمن الصعوبة الفصل بين رسالة العلم الاجتماعى ورسالة النقد الاجتماعى . فطلاب العلوم الاجتماعية أو الدارسون للمجتمع يرون أن علمهم لابد أن تكون له أهداف تطبيقية ويأملون أن تتوجه إسهامات العلم الاجتماعى إلى تحسين أحوال البشر . وعليه ، فإن الإسهامات الوصفية للأوضاع الاجتماعية التى قدمها هؤلاء العلماء لعبت دورا وإن كان غير مباشر فى التشجيع على النقد ، وإذكاء روحه لدى المثقفين . كذلك ، إن الحديث عن سلبيات المجتمع وتحدياته كتضخم صور عدم المساواة والكبت أو الكبح والفاقة والمعاناة يعد نوعا من النقد أو إشارة إليه . ويمكن القول أن مجرد الإشارة إلى أسباب المشكلات إنما يعنى إشارة إلى كيف يمكن إزالة هذه الأسباب وعن أى طريق . وعليه ، فإن كلا من العلوم الاجتماعية وحركة النقد الاجتماعى والإصلاح الاجتماعى تضافرت جهودها معا فى قيام الاتجاه الراديكالى الذى يحمل لواء الدعوة إلى التغيير .

ويمكن ملاحظة وجود ثلاثة خصائص أساسية وسمت نمو حركة النقد الاجتماعى وبخاصة داخل أوروبا هى :

١ــ تتابع مدارس الفكر التى مثلت فى أوقات متباينة الوزن أو الركيزة الأساسية لحركة النقد التى تناولت المجتمع المنظم القائم وساعدت الأفراد على رؤية المشكلات فى مجتمعاتها رؤية تفصيلية محددة . ويأتى على رأس مدارس الفكر فى فرنسا والدور الذى لعبه الانسيكلوبيديين والسانسيمونيين والماركسيون الاشتراكيون الكاثوليك والوجوديون ، وفى إنجلترا الشموليون والاشتراكيون الأول والفابيون،

وفى أمريكا الشمالية نجـد الاشـتراكيون الزراعيـون والبراجمـاتيون والإصلاحيون الاجتماعيون.

٢ــ اندماج والتحام مختلف تيارات حركة النقـد الاجتمـاعى ، بـل والنقـد المعارض الذى نشأ نتيجة لحركة النقد الاجتماعى التـى عرفـت فـى ميدان علم السياسة بحركة اليمين واليسار . وقد ظهرت تلـك الظـاهرة فى أوروبا على وجه الخصوص فى النصف الثانى من القـرن التاسـع عشر . فقد شهدت هذه الفـترة تبلـور الأيديولوجيـات الكـبرى التـى نعايشها اليوم كالاشتراكية والشيوعية والقومية ... الخ . وقـد أمـدت تلك الأيديولوجيات معتنقيها برؤى شاملة للمجتمع وبطائفة من الأفكـار والتصورات ذات العلاقة بالأمور الاجتماعيـة التـى يمكـن أن يكـون لحركة النقد علاقـة أو ارتبـاط بـها . وقـد اهتمـت مجمـل هـذه الأيديولوجيات بتبصير أصحابها بما تعتـبره أزمـة أو وضعـا خاطئـا بوجه عام .

ويتعين الإشارة إلى أن تلك الأيديولوجيـات لـم تكـن بـالضرورة المعين أو المصدر الأساسى لكل نقد . حيث يوجد العديـد ممـن يفضلـون تناول المشكلات الاجتماعية بأسلوب هادئ ، كما أن هناك من لـه توجهاتـه المستقلة فى النقد ... الخ . ورغم ذلك فإن هذه الأيديولوجيات مازالت لـها اليد الطولى من حيث تأثيرها وتوجيهها لحركة النقد فى أوروبا .

ويختلف الوضع فى أمريكا حيث أن مسـألة الانقسـام إلـى يميـن ويسار ليست بالوضوح أو الحدة المعروفة بها فى أوروبـا، إذ أن المجتمـع الأمريكى يميز أشكال أخرى من الانقسام، كالانقسام بين الجماعـات الاثنيـة أو بين الأقاليم (شمال وجنوب ووسط وغرب وشرق)، وفى كندا الانقسام بين

المناطق التى تتحدث الفرنسية وتلك التى تتحدث الإنجليزية ، بحيث يمكن القول أن حركة النقد الاجتماعي فى أمريكا أقل حدة من مثيلتها فى أوروبا.

٣ــ الارتباط الوثيق لحركة النقد الاجتماعى بالحركات المعارضة لها ، كأنصار حركة الحقوق المدنية والأحزاب السياسية ذات التنظيم الدائم. فمن الثابت أن الآراء النقدية ولدت من قبل الحركات الجماهيرية التى حددت فى نفس الوقت بل ووجهت هذه الحركات ذاتها . وأحد النتائج المترتبة على ذلك الارتباط أن أصبح وضع خط فاصل بين المعارضة والنقد من المسائل الصعبة .

فالحركات المعارضة تطرح آراء وأفكارا نقدية وتقوم على تعقبها، ومع ذلك يظل الاهتمام بحركة النقد الاجتماعى باعتبارها نتاجا لجهد المفكرين الذين ساهموا فى تقديم نظريات نقدية للمجتمع ولم يكونوا بمجرد معبرين عن اتجاهات رافضة أو معلنين لها بأى شكل من الأشكال المعارضة للنسق أو لشكل النظام القائم .

وقد غزت هذه الحركة اليوم العالم الثالث والدول المستقلة حديثا ، وقد ساعد على ذلك الجرائد والمؤلفات وبرامج الإذاعة والتليفزيون بها والأفلام والتوسع فى التعليم العالى والجامعات . فقد مكنت هذه الآليات من سرعة دوران وانتشار الأفكار والتوجهات النقدية فى هذه المجتمعات التى مازال يعايش قسم كبير منها مراحل وصورا من التحول والتغير السريع التى تفرز بدورها كما من المشكلات تصبح مادة ثرية لحركة النقد الاجتماعى فيها [١] .

---

(١) T B. Botomore, Critics of Society : Radical Thought In North America, Vintagl Books, N Y , 1969, pp. 3-15

الجذور الفكرية للاتجاهات النقدية :

يكشف البحث فى الخلفية الفكرية والواقعية الاتجاهات النقديـة عـن تأثير ثلاثة روافد أساسية أولها النظرية الماركسية ، ثـم النظريـة التقليديـة (الوضعية) ، ثم أحداث الواقع الأمريكى والسياق العالمى .

الموقف من الماركسية :

وفيما يتعلق بالماركسية نجد أن الخلاف تأسس حـول كونـها نسـقا نظريا نقديا من ناحية، ومن ناحية أخرى فيما يتعلق بقضاياها أو فرضياتـها المتعلقة بالواقع الاجتماعى .ومنذ البدايـة نجـد تـأكيدا علـى أن النظريـة الماركسية لن تعود نقدية إذا لم يتم تمثلها بحيث تدمـج كـل أشـكال النقـد الموجهة إلى المجتمع القائم حتى وإن كـانت منطلقـات هـذا النقـد غـير ماركسية.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك بل يتخطاه إلى محاولة إدانـة كـل مـن يحاول الانطلاق من الماركسية بشكل دوجماطيقى . وفى هذا الصـدد نجـد أن " س . رايت ميلز " لا يوافق على الماركسية كنظرية ذات كفـاءة لفـهم المجتمع الصناعى المعاصر ، بل إنها حتى لا تصلح كعقيدة سياسية .

ويذهب " الفن جولدنر " إلـى القـول بأنـه مـن الخطـأ انطـلاق الراديكاليون ــ افتقادهم النظرية ــ من الماركسـية فـى صورتـها الفجـة والبدائية.

غير أن الأمر لم يتوقف عند مهاجمـة الماركسـية فـى مسـتوياتها النظرية والمنهجية فقط ، وإنما تجاوزه إلى التركيز علـى بعـض القضايـا

التى أثبت التطور التاريخى زيفها .

وتؤكد الماركسية أن نضوج البناء الطبقى للنظـام الرأسـمالى مـن شأنه أن يقود إلى انتفاء الطبقة الوسطى إمـا نتيجـة لصعودهـا والتحاقـها بالطبقة العليا ، أو نتيجة لانهيارها والتحاقها بطبقـة البروليتاريـا ، وذلـك بسبب عمليتى التركز الرأسمالى والإفقار البروليتارى .

أما المسألة الطبقية الثانية التى يرفضـها جولدنـر فـى الماركسـية فتتمثل فى إمكانية قيام الثورة فى العالم الثالث بدون البروليتاريـا علـى مـا يؤكد فانون وما تنفيه الماركسية الأرثوذكسية ، أو عجـز البروليتاريـا فـى المجتمعات الصناعية عن القيام بالثورة على ما يذهب مـاركيوز . إذ يؤكـد ماركيوز أن الطبقة العاملة لم تعد أداة للتحول التاريخى ، ذلـك لأن العمـال قد اتحدوا مع البرجوازيين واتفقوا على المحافظة على المؤسسات القائمـة ، حيث أصبحت البروليتاريا تعانى من (الوعى السـعيد) الـذى أشـار إليـه هيجل. وهو نوع من الراحةالمكتسبة ، أو هو نوع من خـداع النفـس فيمـا يتعلق بمصالحهم الحقيقية الخاصة .

وتنتقل الاتجاهات الراديكالية إلى مواجهة الماركسية حـول قضيـة الدولة ، حيث تعتبرها الماركسية الأرثوذكسية تعبيراً عـن مصـالح الطبقـة البرجوازية ووسيلة لقهر البروليتاريا وإخضاعها. بالنظر إلـى ذلـك يؤكـد اليسار الجديد ، أن الدولة أصبحت أكثر قومية ، على الأقـل مـن الناحيـة المظهرية ، وإن كانت تعبر حقيقة عن مواقف ومصالح الطبقة المسـيطرة . فى إطار ذلك نجد أن دورها لم يعد واضحاً كما يذهب النموذج الماركسـى، حيث امتلكت الدولة من الوسائل ما ييسر لها أن تضم كافة فئـات المجتمـع لها ، من هذه الوسائل الإعلام والمخزون الإنفاقى العام .

وقد حددت الماركسية موقفها من قضية الثـــورة والعنــف ، حيـث رأت فى العنف أو الثورة الطريق الوحيد لسيطرة البروليتاريــا ، وهــو مــا تتفق معها الاتجاهات النقدية ، غير أن هذه الاتجاهات تحاول جاهدة الإبقـــاء على الروح الثورية والنقدية للماركسية من ناحية ، ثم العمل علـــى تنقيتــها من بعض المقولات الوضعية التى تسللت إليها من ناحية أخرى .

موقف جولدنر من الوضعية :

يكشف البحث أن الاتجاهات النقديــة ســجلت رفضــا تامــا وكليــا للنظرية الوضعية . وفى هذا الصدد يؤكد " الفن جولدنر " أن جوهـــر عــدم الانسجام بين العواطف الجديدة المنتمية للاتجاهات النقدية من ناحيـــة وبيــن النظريات القديمة من ناحية أخرى يرجع إلى رفض الراديكـــاليون الشــباب للأنساق النظرية القديمة التى تشكل الوضعية جوهرها . فى إطار ذلك فـــهم لا يشعرون بأن النظريات القديمة خاطئة وينبغى نقدها بدقة ، حيث نجـــد أن لديهم إحساس بعدم أهمية هذه النظريات ، ومن ثم فاتجاهـــهم نحوهــا ليــس الحوار أو الرفض فيما يتعلق بهذه النظريات أو بعـــض مقولاتـــها ، ولكــن السخرية منها وتجنبها .

موقف جولدنر من الأحداث العالمية :

تشكلت خلفية الاتجاهات الراديكالية من الأحداث التى طــرأت علــى الواقع الاجتماعى سواء فى الولايات المتحدة أو أوروبــا الغربيــة أو العــالم بما فيه المعسكر الاشتراكى ، حيث شكلت قضايــا هــذا الواقــع اهتمامــات أساسية بالنسبة لليسار الجديد .

فقد أدى المجتمع الصناعى فيما يتعلق بالمسألة الطبقية إلى القضـــاء

على الدافع إلى المقاومة . ومن ثم فقد انتهت إمكانية الحرب الطبقية بين البرجوازية والبروليتاريا ليس عن طريق التواطؤ بين أرباب العمل ونقابات العمال فحسب لكن عن طريق وسائل جعلت العمال راضين عن حالتهم الخاصة ، حيث أصبحت الظروف فى نظرهم حسنة ، ومن ثم افتقدوا إمكانية أن يكونوا وسائل أو أدوات للتحول التاريخى .

بالإضافة إلى ذلك ، شهدت الساحة العالمية أحداثا هزت استقرار النسق العالمى ، وألهبت خيال الاتجاهات النقدية المعاصرة .

أول هذه الأحداث ثورة الشباب التى تبدت كثورة ثقافية فى المجتمعات الاشتراكية أو كنوع من الرفض لدوجماطيقية التوجيهات الأيديولوجية . وهو ما دفع البلاد الاشتراكية إلى إعمال ميكانيزمات استيعاب هذه الحركات عن طريق إعادة الصياغة النظامية للشباب الثائر.

أما فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية اتخذت ثورة الشباب شكل رفض النظام . ويكشف تحليل حركات الشباب فى المجتمع الأوروبى عن بعدين : **البعد الأول** : بعد " جيلى " حيث رفض التقاليد والأجيال الحاملة لها مع ما يرتبط أو يتجانس معها كمؤسسات الدولة المحافظة على استقرار النظام . **أما البعد الآخر** : فهو بعد اجتماعى حيث رفض التفاوت الطبقى كما يتبدى فى المجتمعات الغربية ، وأيضا الاستغلال الذى تمارسه المجتمعات المتقدمة لشعوب المستعمرات ، بحيث أدى اندلاع ثورة الشباب فى ١٩٦٨ إلى كونهم أصبحوا من العناصر الأساسية فى الاتجاهات الراديكالية ، فكرا وحركة .

وتعتبر حركة تحرير المرأة من الوقائع التى كان لها آثارها البعيدة

على التفكير الأوروبى ، حيث أثارت الاهتمام بقضايا الاستقلال والعبودية، ثم الفئات المضطهدة فى إطار المجتمعات الرأسمالية .

وتعتبر وقائع الحرب الفيتنامية من الأحداث التى كان لها تأثيرها البالغ من حيث كونها قد طرحت بعض القضايا التى أصبحت موضع اهتمام جذرى من قبل مفكرى اليسار الجديد ، كاستقلال العالم الجديد المتخلف، ثم قضايا التنمية بين الاستقلال واتبعية ، ثم قضايا الحفاظ على الهوية الوطنية والاستقلال . ومن أبرز الكتابات فى هذا الصدد كتابات فرانز فانون ، هذا إلى جانب أن الحرب الفيتنامية التى ألهبت خيال اليسار الذى رأى فيها تحديا للنظام العالمى المستغل والقهرى من قبل الشعوب الصغيرة المضطهدة ، ثم النجاح فى ذلك . ولقد كان من نتاج هذه الأحداث تكشف عدة ظواهر رئيسية ، من بينها فساد النظام الرأسمالى ، ثم الأسلوب القهرى الذى تعمل به مؤسساته . هذا بالإضافة إلى تخلق عوامل انهياره وقيام معالجات نظرية حاولت التنظير للبروليتاريا فى المجتمعات الصناعية وعلاقتها بكل من بروليتاريا العالم الثالث من ناحية ، وبرجوازية العالم المتقدم من ناحية أخرى . هذا إلى جانب كشف زيف شعارات العالم الليبرالى حول حقوق الإنسان ، وحق تقرير المصير ، والحرية البشرية [١] .

وفى ضوء ما تقدم ، يمكن تقرير أن الاتجاهات النقدية ظهرت كانعكاس لواقع مختلف وتيارات فكرية مختلفة . ولم تظهر هذه الاتجاهات النقدية فى مجتمع مغاير للمجتمع الذى تسود فيه الاتجاهات القديمة المرتبطة بالنظام ، وإنما ظهرت داخل المجتمع ذاته .

---

(١) راجع : على ليلة ، مصدر سابق ، صفحات ٦٥٧ـ٦٦٤

فقد صاحب ظهور اليسار الجديد وما ارتبط به من حركات اجتماعية حركة فكرية عبرت - على المستوى الفكرى - عن رفضها للمجتمع الرأسمالى وما يرتبط به من أيديولوجيات ونظريات . ولقد اتخذت هذه الحركة طابعا نقديا موجها إلى بناء المجتمع نفسه من ناحية ، وإلى البناء النظرى للعلم من ناحية أخرى . وترجع أهمية هذه الحركة النقدية إلى الاعتبارات الآتية :

أ - أن هذه الحركة تكشف بجلاء عن واقع المجتمع الرأسمالى ، وتميط اللثام عن تناقضاته الداخلية التى كانت أساسا لظهور الحركات الاجتماعية المتمردة .

ب - ارتبطت هذه الحركة ارتباطا وثيقا باليسار الجديد ، بحيث يمكن القول أن مهمة النقاد كانت تنحصر فى الكشف عن مشكلات البناء الاجتماعى القائم، وربطها بالإطار العام لهذا البناء وما يتحكم فيه من قوى، بينما كانت مهمة الحركات الاجتماعية محاولة تغيير هذا البناء ، أو ممارسة كافة الضغوط من أجل تغييره .

جـ - انبثق الاتجاه النقدى المبكر فى علم الاجتماع من الحركة النقدية ، وارتبط بها ، ورغم أن الاتجاه النقدى المبكر يعد نتاجا لليسار الجديد، فقد لوحظ عليه أنه ارتفع عن مستوى النقد الاجتماعى إلى مستوى النقد السوسيولوجى (١) .

(١) أحمد زايد ، مصدر سابق ، صفحات ٢١٢ - ٢١٣

رايت ميلز والاتجاه النقدى :

إذا كان القرن التاسع عشر أنجب كارل ماركس وماكس فيبر ، فإن القرن العشرين لم ينجب سوى " ميلز " . لسبب بسيط هو أن الذى يقبل آراء ماركس أو فيبر لابد أن يقبل آراء ميلز ، لأن هذا الخبر ، وإن كان قد نقد أساتذته القدامى ، إلا أنه لم يتخل قط عن روحهم وأسلوبهم فى التفكير وتناول قضايا مجتمعهم .

وكان رايت ميلز ـ بحق ـ أول المعارضين أو النقاد وأكثرهم راديكالية والتزاما بدراسة وتفسير ما يدور حوله من أحداث . وهو يعد ـ بحق ـ الأب المؤسس للاتجاه النقدى فى علم الاجتماع ، سواء على مستوى النقد السوسيولوجى أو النقد الاجتماعى . فقد جمع بينهما بذكاء نادر بحيث لا نستطيع فى الكثير من الأحيان أن نضع خطوطا بينهما فى نظرياته .

وتتحدد العوامل التى أثرت على ميلز فيما يلى :

١ـ التراث الفلسفى للبراجماتية حيث استوعب ميلز التراث الفلسفى. وقد كان لاستيعاب هذا التراث أثر فى رفضه للنزعة الامبيريقية الإحصائية السائدة بين زملائه . لقد كانت تلك الفلسفة بالنسبة له أسلوب حياة ، وخطة عمل ، كما كانت تصور العصر العلمى الذى يحيا فيه ، والحياة العملية التى يعيشها مواطنوه . فهى فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بأمريكا ، وهى ثمرة التفاعل بين الأفكار التى حملها المفكرون الأوروبيون إلى الولايات المتحدة ، وبين البيئة الجديدة التى نشأوا فيها . هذا فضلا عن أن استيعابه للتراث

البراجماتي جعله قادرا على تمثل الفكر الأوروبى فى التاريخ والعلوم الاجتماعية [١] .

٢ـ اهتمام ميلز المبكر بالبناء الاجتماعى الأمريكى ، وتأثره بالحرب الباردة ، والتناقضات الفكرية والبنائية الآخذة فى الظهور فى المجتمع الرأسمالى . ولقد ساهم ذلك فى خلق ثورة ميلز أو اتجاهه النقدى . فقد ساهمت الدراسات الامبريقية التى أجراها فى جعله يثور على النظرية الكلاسيكية نفسها ، وأسلوب العلماء فى تناول الموضوعات ، وتصويرهم لدور العلم فى المجتمع . إنها ثورة فكرية أكاديمية أو ضرب من ضروب الراديكالية العلمية إذا تسمية أخرى . وساهمت ظروف المجتمع الأمريكى فى أن يثور على واقع مجتمعه بأن يوضح ما يعانى منه من مراض ومشكلات ، ون يحلل بناءه الاجتماعى تحليلا يكشف عما فيه من صور حديثة للاستغلال والسيطرة والنفوذ . إنها ثورة اجتماعية ، أو ضرب من ضروب النقد الاجتماعى .

وإذا كان هذا هو موقف ميلز من النظريات الكبرى المجردة ، فما هو موقفه من الاتجاه الامبريقى ؟

رفض ميلز هذا الاتجاه كما رفض النظرية الكبرى . لقد وسم ميلز هذا الاتجاه بأنه اتجاه تجريدى تجزيئى من حيث أنه يدرس ظواهر منفصلة دون ربطها بنظرية معينة ودون التعمق فى أصولها التاريخية . وهو بذلك ينزع الظواهر من سياقها البنائى والتاريخى . فالاتجاه الامبريقى المجتزئ" .. لا يتميز بقضايا أو نظريات جوهرية و يقدم أى فهم لطبيعة المجتمع أو

---

(١) أحمد زايد ، مصدر سابق ، صفحات ٢٥٥ ، ٢٥٧ـ٢٥٨ .

الإنسان أو لأى حقائق معينة عنهما . ويمكن التعرف على هـذا الاتجـاه - بحق - من خلال المشكلات التى يختارها أنصاره للدراسة ، ومـن خـلال أسلوبهم فى تناول هذه المشكلات " .

وإذا كان هذا هو نقد ميلـز للاتجـاه النظـرى المجـرد والاتجـاه الامبريقى المجتزئ ، فما هو البديل لتفادى أوجه القصور التـى وقـع فيـها كل منهما ؟

يقدم ميلز بديلا نظريا متكاملا ، كما أنه لم ينخرط فـى الدراسـات الامبيريقية بنفس طريقة الاتجاه الامبيريقى التى نقدهـا . إذا كـانت نقطـة الضعف التى اشترك فيـها كـلا الاتجـاهين هـى إهمـال دراسـة البنـاء الاجتماعى دراسة تبرز عوامل التغير داخله ، فمن الطبيعى أن يـهتم ميلـز بدراسة البناء الاجتماعى ، وأن يكشف عن العوامل التاريخية التـى أثـرت وتؤثر فيه ، مع الانتقال فى الدراسة مـن مسـتوى البنـاء إلـى مسـتوى الشخصية. وجاءت معظم دراسات ميلز دراسات امبيريقيـة تاريخيـة تقـدم فهما حقيقيا للبناء الاجتماعى فى المجتمع الأمريكى .

بيد أن هذه الدراسات لم تكن تجرى من فراغ ، ونما كـان يقودهـا موقف نظرى منهجى يحدد اتجاهه الأيديولوجى ودرجة التزامـه بـالأهداف التى يجـب أن يسـعى إليـها عـالم الاجتمـاع . وتمثـل فكـرة الخيـال السوسيولوجى أحد الأدوات النظرية والتحليلية التـى تشـكل هـذا الموقـف النظرى . وهى تكشف عن وجهى النقد عند رايـت ميلـز ، وهمـا النقـد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ، باعتبارهما الأداة التـى يجـب أن يتسـلح بهما الباحث فى نقده لأساليب السيطرة والتحكم التى تضرب بجذورهـا فـى كل عناصر البناء الاجتماعى .

وتقوم فكرة الخيال السوسيولوجى على الربط بين مستويين من مستويات التحليل : مستوى المجتمع أو البناء الاجتماعى ، ومستوى الفرد، وذلك انطلاقا من مسلمة أساسية مؤداها أن حياة الفرد أو تاريخ المجتمع لا يمكن فهم أى منهما دون فهم الآخر والعلاقة التى تربط بينهما . فإذا كان الأفراد لا يملكون القدرة على فهم العلاقة بين الإنسان والمجتمع ، أو بين تاريخ الإنسان وتاريخ المجتمع ، أو بين الذات والعالم المحيط بها ، فإنهم بحاجة إلى مجموعة من المهارات العقلية تمكنهم من تكوين فكرة جلية لما يدور حولهم وما سوف يحدث لهم تأثرا بهذا العالم . هذه القدرة العقلية هى ما أطلق عليها رايت ميلز " الخيال السوسيولوجى " . وهى قدرة ليست مطلوبة من الباحثين فى علم الاجتماع فقط ، وإنما يجب أن يمتلكها الصحفيون والدارسون والفنانون ، وحتى عامة الناس .

ويستند الخيال السوسيولوجى لدى ميلز إلى مستويات للتحليل :

- المستوى الأول هو مستوى الفرد ، فكل ما يعانيه من اضطرابات تفرضها عليه حياته فى مجتمع مستغل ، والمستوى الثانى هو مستوى المجتمع أو البناء الاجتماعى لكل ما يزخر به هذا البناء من مشاكل عامة Public issues وقدرة الباحث تتجلى فى الربط بين مظاهر الاضطراب الشخصى وبين مشاكل البناء الاجتماعى . وهنا يظهر الهدف الأساسى للخيال السوسيولوجى ، والذى ينحصر فى إكساب الأفراد وعيا حقيقيا بمشكلات مجتمعهم يجعلهم قادرين على ربط مشكلاتهم الخاصة بمشكلات المجتمع العامة . وهنا تكمن القدرة الواعدة للخيال السوسيولوجى .

ويتضح من قدرة الخيال السوسيولوجى على فهم الواقع ثلاثة حقائق هى :

الأولى : قدرة الخيال السوسيولوجى كأداة نظرية ومنهجيـة . وتتمثـل هـذه القدرة فى تفادى نقاط الضعف التى وقع فيها كـل مـن المنظريـن ذوى الميول التجريديـة والامبـيريقيين ذوى الميـول الإحصائيـة الخالية من أى مضمون حقيقى . ومن ثـم القـدرة علـى الدراسـة التاريخية للواقع الاجتماعى وتصعيد التحليـل السوسـيولوجى عـبر مستويات مختلفة فردية واجتماعية داخل البناء الاجتماعى .

الثانية : راديكالية مفهوم الخيال السوسيولوجى نفسه ، سواء فـى مسـتواها السوسيولوجى أو الاجتماعى ، وهو ثورة علـى النظريـة الكـبرى وعلـى النزعة الامبيريقية . وإذا كان ميلز ركز علـى البنـاء التـاريخى للمجتمـع وعلى ما تكشف عنه مظاهر سلوك الأفراد ، فليس معنى ذلـك ضـرورة أن نبدأ الدراسة من أى منهما ، إذ يتعين أن نبدأ أولا بتحديد العلاقـات بينـهما فنكشف عن تأثير البناء الاجتماعى على السلوك الفردى أو تـأثير السـلوك الفردى على البناء الاجتماعى . وإلى جانب هذه الراديكاليـة السوسـيولوجية يكشف مفهوم الخيال السوسيولوجى عن راديكالية اجتماعية ، ومن ثـم فـإن ميلز يحدد للباحث أسلوبا فى دراسة الواقع الاجتماعى ونقده [١] .

الاتجاهات الإنسانية :

المنظور إنسانى فى علم الاجتماع :

من الثابت أن علم الاجتماع قدم نفسه منذ البدايـة كعلـم . ومـؤدى ذلك أن إدراك هذا العلم لذاته يعد من المؤشرات على مبلغ ما أنجـزه هـذا

---

(١) راجع : أحمد زايد ، مصدر سابق ، صفحات ٢٦٢ـ٢٧٠ .

العلم كمنهج فى فهم الواقع الاجتماعى . ويقتضينا الحال فى هذا المجال عدم الانشغال بالجانب أو البُعد المنهجى فى هذا العلم ، بل ننشغل بالأبعاد الإنسانية التى تطلبت وجود علم أكاديمى كعلم الاجتماع .

فمن الثابت أن علم الاجتماع عنيت منظوراته المختلفة بتوضيح وتفسير الواقع الاجتماعى المحيط بالإنسان . ويقتضى التعامل مع هذا المحيط أسلوباً يقرب الباحث من إدراكه واستيعابه والتفاعل معه بسهولة فى ظل وجود ضوابط وقواعد لهذا التفاعل . بيد أن الباحث فى هذا العلم عليه دائماً أن يدرك أنه يتعامل فى البداية والنهاية مع إنسان ومشكلات إنسان وكلاهما تقتضى الوعى بخصائصه ومطالبه كإنسان ، كما تقتضى فى نفس الوقت الوعى بطبيعة مشكلاته ومصادرها وكيف تطور بها الأمر لتصل إلى ما هى عليه من درجة معينة .

ومؤدى ذلك أن على الباحث أن ينزل لهذا الإنسان بأن يكون إنساناً معه ، يجذبه إليه ويشيد معه جسوراً من الثقة المتبادلة . وعليه ليتحقق لهذا العلم (علم الاجتماع) ركائزه الإنسانية التى يستند إليها والمستمدة من طبيعة موضوعه أصلاً وهى الظاهرات الاجتماعية التى هى أصلاً ظاهرات من طبيعة إنسانية . فالباحث عليه أن يرى البُعد " الفكه " Comic dimension فى الواقعة (الظاهرة) الاجتماعية وإلا فإنه سيكون قد تجاهل أهم خصائصها أو سماتها .

وليس معنى الوعى بالبُعد " الفكه " للواقعة أو الظاهرة الاجتماعية أن الدراسة الجادة للمجتمع سوف تتوارى . وكل ما نود تأكيده هو أن الإنسان يمكنه أن يحصل على ما يريد عندما يكون ضاحكاً أو مبتسماً . ومؤدى هذا التوجه الإنسانى فى بناء هذا العلم أن علماء الاجتماع فى

أدائهم لأدوارهم فى المجتمع يراعون عدداً من القيم أو القواعد الأخلاقيــــة . يمكن طرحها فيما يلى .

١ــ توجيه الانتباه البالغ للأشياء حتى لتلك الأشياء التى قد يــرى الآخــرون أنها لا تستحق هذا القدر من الاهتمام كى تكون موضوعــاً للاســتقصاء العلمى. فكل ما يصدر عن الإنسان أو يفعله جدير بأن يقع فـــى دائــرة اهتمام البحث السسيولوجى .

٢ــ ضرورة الإنصات البالغ للآخرين دون التسفيه من آرائــهم أو إظــهارها بأنها لا قيمة لها . إن فن الإنصات بهدوء وانتباه أو اهتمام كــامل أمــر يجب على كل عالم اجتماع أن يكون ملماً به وقادر علـــى ممارســته . وإذا كان على المرء ألا يبالغ فى أهمية تقنيات البحــث وفنونــه ، فــإن أهمية التعامل الإنسانى يعد أحــد الأدوات والإجــراءات التــى لا تقــل أهمية عن تقنيات وأدوات البحث وبخاصة فى هذا الزمن الــذى يتســم بالتوتر العصبى وعدم وجود الوقت الــذى يســتطيع الفــرد أن يعطيــه للآخر كى ينصت إليهم بشئ من التركيز

٣ــ مسئولية عالم الاجتماع عن تقييم ما توصــل إليــه مــن نتــائج دون أن يسقط على تقييمه انطباعاته أو رؤيــاه الخاصــة إن كــان يحــب او لا يحب ويأمل أو يخاف . ويشارك عالم الاجتماع مثــل هــذه المســئولية زملائه من العلماء فى ميادين العلوم الطبيعيــة . وإن كــانت ممارســة هذه المسئولية فيما يتصل بالعلوم التى تمس طموحات البشــر واماــهم وأحلامهم صعبة بعض الشئ ، فإنها تجسد شكلاً من أشــكال الأهميــة الأخلاقية يجب التعامل معها بهدوء

وهناك قيماً إنسانية أخرى ، فضلاً عما تقدم ، منغمسة في المشروع العلمى لعلم الاجتماع ذاته . حيث أن لهذا العلم خصائص تجعله أقرب من غيره للجوانب الإنسانية والأشد ارتباطاً بها . وتتجسد هذه القيم من نظرتنا لعلم الاجتماع باعتباره العلم الذى يعنى أكثر من غيره بالموضوع الأساسى للإنسانية، أى بالوضع الإنسانى ذاته. فما هو اجتماعى يمكن النظر باعتباره البُعد الجوهرى لوجود الإنسان، كما أن علم الاجتماع ينشغل دائماً وأبداً بالقضية الأساسية التى تدور حول ما الذى نعنيه عندما نقول إنسان ، وما الذى نعنيه أيضا بالإنسان فى موقف محدد أو معين (١) .

ويمثل علم الاجتماع الإنسانى تبعا للتوجهات القيمية السابقة كعلم طريقة خاصة فى رؤية العالم . فعالم النفس له منظوره الخاص فى رؤية الدوافع البشرية وفهمه لها ، كما أن العالم الاقتصاد مدخله ونظرته التى تميزه عن غيره فى تناول السلوك الاقتصادى للإنسان ، ويهتم علماء الاجتماع بدورهم وبصفة أساسية بالبناء الاجتماعى للمجتمع وعلاقته بشخصية الفرد. وعلى خلاف علم الاجتماع الأكاديمى (التقليدى) الذى يعنى بالتراكم المعرفى نجد علماء الاجتماع من أصحاب النزعة الإنسانية يسعون إلى استخدام المعرفة التى توصلوا إليها عن البشر فيما ينفعهم ويخدمهم.

ومن بين اهتمامات علماء الاجتماع ذوى النزعة الإنسانية Humanist Sociologists والأسس التى تحكم علم الاجتماع لديهم ضمان تعظيم الحرية للفرد . أن تكون حرا أن تكون قادرا على الاختيار من بين البدائل . ومن ثم تعنى الحرية فى إطار منظور هذا العلم تعظيم

---

(١) Peter L Berger Invitation to Sociology, A Humanstic Perspective, Penguin Books. N Y . 1977 pp 186-191

البدائل Maximization of Alternatives . وتعنى كلمة تنظيم أن الحرية ليست بأمر كلى أو مطلق ، إذ هى مسألة أوامر " كثرة أو قلة " ، فكلما زادت القيود كلما قلت الحرية . وعليه ، فإن علم الاجتماع الإنسانى Humanist Sociology يعنى بتلك القيود التى تحد من سلوك الإنسان . ويشير التعريف الدارج لعلم الاجتماع الإنسانى إلى العلم الذى يدرس الحرية الإنسانية وكل العقبات التي يجب التغلب عليها من أجل ضمان هذه الحرية . ويتعين الإشارة إلى أن هذا التعريف قد لا يلقى قبول بعض من الذين يعتبرون أنفسهم بعلماء اجتماع يتبنون المنظور الإنسانى للعلم . وعليه ، نجد معان مختلفة يقدمها هؤلاء لعلم الاجتماع الإنسانى . وأياً كان الأمر ، فإن علم الاجتماع الذى يقوم على مبدأ الحرية (تعظيم البدائل) إنما يستند إلى قاعدة صلبة نعرف من خلاله ذلك العلم الجديد ، أى علم الاجتماع البديل . إن علم الاجتماع الذى نشير إليه هنا هو نسق فكرى تصبح فيه قضايا الكرامة Dignity والمصلحة Interests أو قيم الكائنات البشرية من القضايا ذات الأهمية المحورية فى هذا العلم .

ويطرح مفهوم الحرية عدداً من الأسئلة يسعى علم الاجتماع الإنسانى إلى الإجابة عليها ، ومن بين هذه الأسئلة : ما الذى يقوض الكرامة الإنسانية داخل المجتمع ؟ لماذا يسير الناس بعماء وراء القادة الذين يخدمونهم باستمرار ؟ لماذا يمتلك البعض أكثر من غيرهم ومن هؤلاء الذين لا يستسلمون لأوضاعهم على النحو المتوقع منهم ؟ من الذى لديه القوة ويمتلكها وكيف توظف هذه القوة ؟ كيف يمكن لمجتمع يقوم على الحرية والعدالة والمساواة أن يتحقق أو يوجد ؟ إن علم الاجتماع الإنسانى يأخذ بالمبادئ التى أفرزها عصر الاستنارة وتتمثل فى تحرير الروح الإنسانية وضمان تقدم الإنسان ونموه .

التوجه الإنسانى فى ضوء المنظورات السسيولوجية :

ونحاول فيما يلى تحرى مدى وجود التوجه الإنسانى فى منظورات علم الاجتماع وبخاصة المنظور البنائى الوظيفى والذى يعرف بالمنظور الوظيفى .

المنظور الوظيفى :

ويقوم المنظور الوظيفى على أن كل شئ فى المجتمع من شأنه أن يسهم فى الإبقاء على المجتمع ودعمه . ومؤدى ذلك أن علماء الاجتماع الذين يسلمون بهذا المعنى يرون أن سائر العناصر المكونة لكل نسق فرعى يتكون منه المجتمع تؤدى وظيفة من أجل استمرار الوحدة الأكبر ، أى المجتمع . وقد ذهب " اوجست كونت " إلى أن أجزاء المجتمع المختلفة تعمل وظيفيا على نحو تناغمى فيما بينها ، وإذا ما فقد هذا التناغم سوف يتعرض المجتمع للتغير حتى يستعيد المجتمع التوازن .

ونظرة على مجمل منظرى الوظيفية بدءا من كونت وسبنسر ودوركايم وتالكوت بارسونز وروبرت ميرتون يتضح أنهم اشتغلوا بقضية التوازن والاتساق باعتبارهما مطلبين وظيفيين حيويين للمجتمع يستطيع البقاء والاستمرار . ومن ثم يقوم المجتمع بإنتاج أنماط من الوسائل (أبنية) لتحقيق حاجته (الوظائف) للاستمرار . ومن هنا يستمد المنظور الوظيفى معناه وأهميته . وفى هذا الصدد ذهب بارسونز إلى أن كلا من المجتمع والفرد يكملان بعضهما البعض ويتساندان . فكل منهم يسعى إلى تحقيق حاجات الآخر ، ومن ثم فإن ما هو جيد للمجتمع يكون جيدا أيضا للفرد والعكس صحيح . ويعد تخوف الوظيفيين من التغير تخوفا من أن يصيب المجتمع حالة من التفكك مما يؤثر على تماسكه ووحدته واستقراره ولا

يتحقق ذلك إلا باستعادة المجتمع لحالة التوازن بين عناصره ، أى لحالة التناغم والتساند . وتعد الثورات وصور العنف والصراع مؤشراً لافتقاد التوازن . فالمجتمع ـ كما يذهب ماركس ـ مقومه الأساسى هو الاستقرار وأن التغير أمر استثنائى وليس بالقاعدة التى تحكم المجتمع .

وما يؤخذ على المنظور الوظيفى من وجهة نظر علم الاجتماع الإنسانى أن هذا المنظور انشغل بقضية الاستقرار حيث كانت الشغل الشاغل لمنظريه والمحور الذى انطلقت منه مختلف اتجاهاتهم التنظيرية فى الوقت الذى لم يظهر فيه أى توجه وظيفى انشغالاً بقضية الحرية الإنسانية فى الوقت الذى انشغلوا فيه بقضايا مثل شرعية السلطة والضبط الاجتماعى والتنشئة أو الإعداد لممارسة أدوار معينة ، وهى قضايا تعنى بمسألة الاستقرار والتماسك والتوحد أو التمثل . وعليه ، لم تقدم الوظيفية أى إسهام ملحوظ لعلم الاجتماع الإنسانى .

وإذا كان بارسونز تحدث عن الطوعية Voluntarism أو الاختيار من جانب الأفراد خلال سعيهم لتحقيق الأهداف ، فإن السؤال الذى يطرح فى هذه الحالة هو أية أهداف أو غايات تلك التى يناضلون من أجلها أو يسعون لتحقيقها وهو سؤال لم يطرحه بارسونز على نفسه ليجيب عليه . وقد ذهب الفن جولدنر فى هذا الصدد إلى القول بأن بارسونز لم يسأل إن كان الأفراد يناضلون من أجل تحقيق غايات هم الذين قاموا بوضعها واختيارها ، أم أنه سعى إلى الأدوات التى عرفها من أجل تحقيق غايات قام آخرون ببرمجتهم لإنجازها . كما لم يسأل بارسونز أبداً تحت أية ظروف أو وضعيات يمكن للمرء أن يختار أو يحدد أهدافه ، بل وتحت أية وضعيات يقومون بطريقة " عمائية " بتنفيذ أهداف وضعت لهم من قبل الآخرين ؟ فلم يرى بارسونز أبدا الفرق الكبير بين فشل الإنسان فى

تحقيق أهدافه والفشل فى إنجاز أهداف فرضها الآخرون عليه . لقـــد فشـل بارسونز فى أن يرى أن الاغتراب الحقيقى لا يتجلى فـــى أن نفشـل فيمـا نحاوله ، إنما فى تحقيق ما ليس لنا . إن الاغتراب الحقيقى أو النـــهائى هـو أننا نعيش حياتنا كأدوات وأننا لا نعيش من أجل أنفسنا .

وتشير مواقف كل من النظريـــة الوظيفيـة والتبادليـــة والصراعيـة والتفاعلية الرّمزية إلى أن إسهاماتهم فى إطار التوجه الإنســـانى فـى علـم الاجتماع تكاد تكون معدومة أو نادرة ، فكل منها طبعت بطابع جعلها تبعـــد عن المبدأ الذى يقوم عليه التوجه الإنسانى فى علم الاجتماع فبدت الوظيفيـــة ليست لها علاقة بقضية الحرية الإنسانية ، والتبادلية بـــدت كنظريـــة تقـول بالحتمية ، وتعاملت النظرية الصراعية مع البشر ككائنات بلاســـتيكية تقـوم بتقبل المجتمع خشية العقاب . ورغم ذلك بـــدت نظريـــة الصـــراع كعتبـة لبروز التوجه أو المنظور الإنسانى فى علم الاجتمـــاع . وقدمـــت التفاعليـة الرمزية رؤية ديناميكية للكائن البشرى الحر ، بحيث إذا جمعنا بيـــن رؤيـة التفاعلية الرمزية والنظرية الصراعية يكون قيام علـــم الاجتمـــاع الإنســـانى أمراً ممكناً . وقد حاول رايت ميلز أن يحقق هذا الهدف حيـــث ســعى إلـى التوفيق بين مقولات نظرية الصراع ومقولات التفاعلية الرمزية [١] .

ثالثاً : توظيف وتقييم النظرية الاجتماعية :

توظيف النظرية الاجتماعية :

نقدم فى هذا الإطار الدور الذى لعبه التنظير الاجتماعى فـــى مجـال

---

(١) Joseph A Scimecca Society and Freedom, An Introduction to Humanist Sociology, Martin's Press Inc N Y . 1981, pp 1-21

إحدى الظاهرات الاجتماعية وهى التربية ، باعتبارها نسقاً فرعياً أساسياً من الأنساق التى يتألف منها بناء أى مجتمع من المجتمعات ، ونستهدف من هذا الطرح بيان الدور الذى تلعبه النظرية الاجتماعية فى فهم قضايا المجتمع المعاصر والتى تأتى على رأسها قضية العلاقة بين التربية والتنمية ، خاصة إذا اعتبرنا التربية منظومة بنائية كبرى تحدد هوية المجتمع وملامحه فى الحاضر والمستقبل معاً .

فمن الثابت أن التنمية ــ بحق ــ الشغل الشاغل لكل شعوب الأرض ومنها الشعوب النامية على وجه الخصوص ، ولا سبيل إلى تحقيق مستهدفاتها من الوصول إلى أفضل مستوى للمعيشة اقتصادياً واجتماعياً ، إلا أن تركز التنمية على الموارد البشرية ورعاية القيم والاتجاهات الإيجابية التى تخدم احتياجاتها وأهدافها من تعزيز لقيمة العمل والإنتاج ومسئولية الفرد ووعيه بدوره فى بناء مجتمعه .

ويتعاظم الشعور بأهمية الدور الذى يمارسه التعليم فى تحقيق التنمية باعتبارها المدخل الحتمى لتقدم شعوب العالم ونهضتها وصولاً إلى أعلى قدر ممكن من الرفاهية لمواطنيها الذين على جهودهم يقوم صرح التنمية وإليهم تعود ثمارها .

فقد أخذ مفهوم التنمية يفرض نفسه على غيره من المفاهيم الأخرى كالتطور والتقدم والنمو ، ونظراً لظهور تحولات جذرية أخذت تضرب بكل المداخل والتصورات التقليدية لمفهوم التنمية محاولة تحريره من الارتباط بدائرة نموذج محدد من النماذج التى تربط مفهوم التنمية بمعانى التغيير والتخطيط وبخاصة فيما يتصل بالعلاقة العضوية بين التنمية والتربية ، حيث تغدو خطة التعليم جزءاً لا يتجزأ من خطط التنمية الشاملة

فى الدولة ، وقد بات من المؤكد أنه لإصلاح التعليم من أجل التنمية لابد أن تنظر إلى التنمية كعملية تترابط فيها الجوانب الاقتصادية والاجتماعية من منطلق فهم شمولي لها .

وانطلاقا من هذا التصور يتحدد مفهوم التنمية على النحو التالى :

" العملية التى يتم بمقتضاها إحداث تغييرات فى بنية المجتمع ووظائفه بما يحقق تبدلا فى حجم تكامل وقدرة المجتمع وكفايته أو بمعنى أدق تحولا فى درجة نضوجه أو بلوغه ويرتبط ذلك بعملية التعليم المستمر سواء كانت هذه العملية مخططة (منظمة) أو غير ذلك ، ويعمل هذا التعليم على إجراء تحول كمى ونوعى فى مخرجاته " .

ويشير التعليم كمفهوم " العملية التى يتم بها إكساب (المتعلم) المعارف والمهارات والاتجاهات التى تفيده ، بحيث يغدو قادرا على التعبير عن ذاته من خلال ما تعلمه ، وقادرا على تطبيق ما اكتسبه ويتواءم معه بمرونة. ولا تتأتى هذه العملية كنتيجة حتمية لعملية التدريس، هذا كما يمكن أن يستخدم مفهوم التعليم للدلالة على ناتج هذه العملية التى سبقت الإشارة إليها الناشئة عن النسق الدراسى الأكاديمى ومخرجاته .

وقد عرفت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بعصر التعليم ، فقد أخذت الشعوب تبذل قصارى جهدها طامحة إلى إعادة بناء الإنسان على أرضها ، والإسراع بالتالى إلى دفع كل ما من شأنه أن يعجل بعمليات النمو والتطور الاقتصادى والاجتماعى تعويضا عما أصابها من جراء الحرب العالمية الثانية من دمار لقواها البشرية والمادية ، مستندة فى مسعاها ذلك إلى استحداث نظم جديدة للتعليم .

ولقد ثار فى هذه المرحلة تساؤل عن الدور الـذى يمكـن أن يلعبـه التعليم فى إحداث التنمية والنهوض بها ؟ فبرزت اتجاهات نظريـة متعـددة حاولت كل منها الإسهام فى الإجابة عن هذا التساؤل ، ومن أهمها :

أولا : النظرية البنائية الوظيفية :

تنطلق النظرية البنائية الوظيفية فى تناولـها لقضيـة التربيـة فـى المجتمع من مسلمة تتلخص فى أن الأسـرة تعـد الأداة المحوريـة لعمليـة التنشئة . ففى الأسرة يتعلم الطفل الثقافة وقيمـها ومعاييرهـا واللغـة ، أى يتعلم كيف يكون كائنا اجتماعيا . وتبدأ الشخصية الاجتماعيـة للطفـل فـى التبلور والتميز عن أقرانه مع بلوغه سـن الخامسـة أو السادسـة . يتعلـم الطفل داخل أسرته (المتماسكة) كيف يتكيف مع النظـام وقواعـد ومعـايير النظام المدرسى . والسؤال هنا كيف تختلف تربية الطفل فى المدرسـة عـن تلك التى يتلقها فى أسرته .

الوظائف الظاهرة للتربية :

تتعدد أهداف الوظائف الظاهرة للنسـق الـتربوى (التعليمـى) تبعـا للرؤية البنائية الوظيفية . ومن بين تلك الوظائف :

الوظيفة الأولى :

مساندة ودعم ما تقوم به الأسرة مـن دور فـى عمليـة التنشـئة ، وتستعين المدرسة إنجازا لذلك الدور بخـبراء (بـاحثين) مختصيـن بتعليـم الأبناء المعارف والمهارات والقيم الضرورية للتفـاعل النـاجح مـع العـالم القائم خارج محيط أسرهم . وتحرص المدرسة أساسا ومنـذ البدايـة علـى

تعليم الأبناء المهارات الأساسية التى تعدهم للحياة ، ومن ذلك تعلم القراءة والكتابة والحساب . ويعهد بتعليم تلك المهارات إلى أساتذة وخبراء مدربون.

ولا يقف اهتمام المدرسة عند تعليم المهارات الأساسية للأبناء ، إذ تقوم بمدهم بالمعارف والمعلومات التى تعينهم على فهم العالم الأوسع من حولهم من خلال مناهج التاريخ والجغرافيا والعلوم . كما تقوم المدارس ، فضلا عن ذلك ، بتلقينهم قيم مجتمعهم الأكبر والهيئات والمنظمات الدولية. وكذا تعليمهم كيف يحترمون الوقت ويحرصون عليه ، وكيف يكونوا منضبطون متعاونون مع الآخرين لمساعدة الجماعة على تحقيق أهدافها . وكيف يطيعون القواعد الضرورية اللازمة لتحقيق المؤسسات مهامها على نحو من السلاسة والسرعة والتدفق .

الوظيفة الثانية :

تتمثل الوظائف الأخرى للتربية فى المساعدة على التعرف على مستويات وقدرات الأبناء ، ومن ثم تربيتهم والتمييز بين إمكانياتهم وتطويرها فى نفس الوقت مطبقة فى ذلك وسائل التقويم والاختبارات المختلفة، ومنها مقاييس الذكاء والاختبارات النفسية . ويساعد ذلك الدور الفرد على اختيار الأفراد لنوع الدراسة والنشاط الذى يلتقى مع قدراته واستعداداته وميوله الأكاديمية والمهنية والفنية . فهناك من تؤهله قدراته ومستوياته التحصيلية على مواصلة تعليمه الأكاديمى ، وهناك من يقف عند مستوى معين أو نوع معين من التعليم ويتجه إلى ميدان العمل أو التأهيل المهنى من مؤسسات متخصصة فى برامج التأهيل والتدريب .

الوظيفة الثالثة :

نقل وتنمية المهارات والسلوكيات والأفكار الجديدة والاكتشافات التى تتوصل إليها الأبحاث العلمية . ومن ذلك الاهتمام بربط الدارسين بشبكات المعلومات المتطورة وتدريبهم على استخدامات الحاسوب .

ويعد المساعدة على إنتاج المعارف الجديدة وتنميتها وتطويرها وظيفة جديدة للتربية ، وبخاصة فى ميدان تكنولوجيا الطب . وتبذل اليوم جهودا فى ميدان توظيف التعليم للحد من الفقر . ويستطيع الفرد من خلال البرامج التعليمية أن يكتسب المهارات التى تعينه على كسب قوته والارتقاء بوضعه المادى وتحسينه . كذلك وضعت برامج تربوية وتعليمية خاصة لمساعدة المعوز على كيفية التخلص من الفقر وإدارة حياته واستثمارها على النحو الذى يحقق مصالحه والنهوض بأوضاعه . وتفيد مثل تلك البرامج الكثير من الأبناء المعوزين الذين يعانون من عدم القدرة على مشاركة الآخرين الحياة التى يعيشونها .

الوظائف الكامنة للتربية :

. رغم جلاء الوظائف الظاهرة للتربية وتعددها ، فإن لها وظائف أخرى غير ظاهرة أو كما يسميها البعض وظائف غير مقصودة لها أهمية وفاعلية فى محيط المجتمع . ومن هذه الوظائف وظيفتان غير ظاهرتان للتربية تتصلان بطول فترة المراهقة والثانية بسن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى Age segresarion كالانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ . ففى ليبيريا بغرب أفريقيا يجرى الفصل بين مرحلتين عمريتين من خلال احتفالات طقوسية تقام يعتبر بعدها الابن رجلا يتحمل

مسئوليات الآخرين من الرجال فى قبيلته . ويحتاج الطفل فـــى المجتمعـــات المعاصرة كى يعهد إليه بأدوار ومســئوليات البــالغين زمنــا طويـــلا ممـــا يفرض حضور أجهزة التربية التى تمتد علاقة الطفل بـــها حتـــى السادســـة عشرة من عمره أو الثامنة عشرة وأحيانا يقضى سنوات أكثر من ذلك .

فمن الثابت أن كثيرا من الوظائف والمهن تتطلب الحصـــــول علـــى درجاتَ علمية لا يحصل عليها الفرد إلا بعـــــد ســنوات دراســية طــوال . ويزداد هذا الأمر إلحاحا كلما ازداد أعداد المتعطليـــن عـــن العمـــل وقلـــت فرص العمل المتاحة . وفى هذه الحالة يظل الوالدين يدعمان أبنائهم فـــترات طويلة كى يتحصلوا على المؤهلات التـــى تجعلــهم أحــق بفــرص العمـــل المتاحة والنادرة فى أحيان كثيرة وتطول فترة الطفولة والمراهقة فى بعـــض المجتمعات ، حيث تمتد إلى أكثر من عقدين من الزمـــــان . ويتضـــح ذلـــك بجلاء لدى أبناء الطبقات العليا والمتوسطة .

ويؤدى طول الفترة التى يقضيها الطـــالب بالنســق التعليمـــى إلـــى معايشته المناخ المدرسى ومخالطته للعديد من أقرانه يرتدى الجميـــع نفـــس الزى ويأكلون نفس الأكل ويتصرفون نفس التصرف وتنمو فيما بينهم ثقافـــة فرعية وقيم خاصة بهم . بيد أنهم يجـــدون بعـــد ذلـــك المجتمـــع يطالبـــهم بالامتثال لقيم غير قيمهم الخاصة . فسوق العمـــل ومطالبـــه يعتمـــد فيـــهم نزعاتهم للحرية والمساواة ، ومن ثم ينشأ الصراع .

وقد اقتضى النظام التربوى ظهور أدوار ومـــهام جديـــدة للمســـاعدة على إنجاز هذا النظام . ومن تلك الأدوار دور جليسة أو حاضنـــة الأطفـــال Baby sitting ، وأنشطة ما بعد اليوم المدرسى لمســـاعدة الآبـــاء الذيـــن تفرض عليهم ظروف عملهم ومواعيد انتهاء دوامـــهم الحضـــور متـــأخرين

لاستلام أبنائهم من المدارس ، الأمر الذى أدى إلى ظهور أنشطة اجتماعية رعائية للطلاب بمدارسهم بعد انتهاء اليوم الدراسى .

وعليه ، يمكن القول أن النظرية البنائية الوظيفية ترى أن النسق التربوى يحقق أدوارا ووظائف بعضها ظاهر والآخر غير ظاهر . ويدعم هذا النسق عملية التنشئة التى تبدأ بالأسرة ، وفضلا عن ذلك كله فإن هذا النسق يهيئ الأبناء للعمل فى ظل المنظومة المعاصرة المركبة ويرشدهم للمهن الأكثر ملائمة لقدراتهم ولحاجات مجتمعهم .

ولما كانت النظرية الوظيفية تستند أساسا إلى مفهوم العلاقة التبادلية المتوازنة بين مختلف النظم التى يتألف منها المجتمع ، كان من المتوقع أن يعمل التعليم كنظام على تحقيق التوازن بين النظم الاجتماعية.

وانطلاقا من هذا الأساس ترى هذه النظرية أن بطئ حركة التنمية فى بعض المجتمعات لا يرجع بالضرورة إلى تدنى إنتاجيتها الاقتصادية بقدر ما يرجع إلى العجز فى رأس المال البشرى كما وكيفا . ويفترض استخدام رأس المال البشرى فى هذه النظرية أن هيكل العمالة يتخذ مسار متوالية مستقيمة تبدأ من العمالة غير الماهرة إلى العمالة الإدارية والمهنية العالية ، كما تفرزها مؤسسات التعليم .

ويرى الوظيفيون أن معيار التفرقة بين الدول هو مقدار ما يتوافر لديها من قوى بشرية معدة ومؤهلة أفرزتها مؤسسات التعليم والتدريب المختلفة فيها ، ومن ثم يرون أنه إذا نجحت الدول الأقل حظا من النمو فى إكساب أبنائها المهارات والقدرات والمعارف الحديثة لأمكنها أن تضيق الفجوة بينها وبين غيرها من الشعوب التى يتهيأ لها حظ أكثر من النمو.

وعليه ، يحاولون أن يقدموا منظورا يرون من خلاله تقديم حلول منطقية لمشكلات التنمية عن طريق استثمار التعليم فى تحسين صفات رأس المال البشرى ، ويتمثل هذا المنظور فى إعداد الناشئة للقيم بالأدوار التى يقوم بها الكبار والعمل على تغذيتهم بالقيم التى تساعد المجتمع على الاستمرار والنمو .

ثانيا : نظرية الصراع :

يذهب أنصار نظريات الصراع إلى أن النسق التربوى توظفه جماعة الصفوة القائمة لتحقيق مصالحها . ويقصد بالصفوة Elite فى إطار هذه النظرية جماعة تسيطر على الثروة والقوة وتتملكها ، وهى بالتالى تتيح الفرصة فقط أمام من يتملكون الثروة والقوة والمكانة فى المجتمع لشغل وظائف بعينها .

ولما كانت تلك الوظائف نادرة بطبيعتها ويتهافت عليها العديدون ويتنافسون فيما بينهم عليها ، فإن الفرصة تكون سانحة أمام أبناء الصفوة الذين تتيسر لهم الأمور لشغلها بحكم أوضاعهم . ومن ثم يتحكم فى سوق العمل من يتحكمون فى النسق التعليمى ويحددون أهدافه فى المجتمع ، أى أصحاب القوة الذين يستغلون مكاناتهم وقوتهم فى إتاحة الفرصة أمام أبناء طبقة الصفوة لشغل الوظائف الصفوية .

المنهج المستتر أو الخفى :

وتسعى الصفوة إلى توجيه الطلاب إلى تعلم كيف يتصرفون بدقة وأن ينتقوا من التعليم ما يحقق ويلائم مكانا ووضعا متميزا لهم ويتلاءم

معه. ومن الثابت أن هذا النوع من التعلم غير معلن عنه في المنهج التعليمي القائم ، كما هو الحال بالنسبة لتعلم القراءة والكتابة والحساب . ويتعلم الدارسون من خلال هذا المنهج قيما وسلوكيات كالطاعة والميل إلى المنافسة والخضوع . ومن ثم فإن على الطلاب إدراك قيمة الطاعة والامتثال لنسق القيم الحاكمة وأن ينفذوا ما تأمرهم به وأن يبذلوا أقصى جهد وأن يتعلموا الولاء لمن يديرون الأعمال ويشرفون عليها ، سواء كانوا أفرادا ، أم منظمات ، أم دولة . وعليه ، تغدو القيم التي تتمثلها الصفوات ومعاييرها جانبا من المنهج المستتر في المؤسسات التعليمية .

قيم التعليم :

وتذهب نظريات الصراع إلى إثارة بعد آخر من أبعاد العلاقة بين القوة أو السلطة والنظام التربوي في مجتمع من المجتمعات . ويتمثل هذا البعد في أن المدارس في المجتمعات الصناعية الرأسمالية تلقن الطلاب — بصورة مباشرة وأحيانا غير مباشرة — قيم جماعة القوة في المجتمع فعلى الدارس أن يتعلم يمين الولاء والطاعة لتاريخ هذه الجماعة باعتبارها المالكة الحقيقية للمجتمع المسيطرة الفعلية عليه . فالطالب في الولايات المتحدة مثلا عليه أن يتعلم أنه مواطن في أمة كبرى أسسها قواد عظام يؤمنون بالحرية للجميع ، وأن يتعلم كذلك أسس وقواعد النظام الديمقراطي (الذي تراه الحكومة وتحدده في ظل مصالحها وفرض التبعية والامتثال على غيرها) والتعامل مع ممثلي النظام باعتبارهم أخوة له عليه إعطائهم صوته في الانتخابات .

ويعني ما تقدم ، أن على الطلاب أن يتعلموا ويمارسوا قيم النظام الرأسمالي الذي يصبح لكل فرد فيه الحق في اكتناز الثروات وتكوينها

وتوريث تلك الثروة لمن يراه من أفراد

ولا يتلقى جميع الدارسين تلك القيم بمستوى واحد . فالطلاب الذين ينتسبون لمدارس الطبقات العليا يهتم بتلقينهم قيم تلك الطبقات من أهمية السيطرة المدنية والمشاركة فى الأمور السياسية وضرورة التدخل لحسم الصراع الاجتماعى بما يحقق مصالح الطبقات العاملة (الدنيا) الذين يسرب إليهم ما للحكومة من يد طولى خفية كما لا يوجهون إلى ما للسلطة وجماعات الصراع السياسى من أهمية . ولا يدرس لطلاب الطبقات الدنيا شيئا عن الفلاسفة الذين تعرضوا بالنقد للنظم السياسية والاقتصادية للمجتمعات الرأسمالية . ولا يقفون على الممارسات القهرية والاستغلالية والاستعلائية لتلك النظم التى عانت منها حتى اليوم الكثير من المجتمعات .

تعلم المعايير :

تسهم المعايير التى يتلقها الأبناء خلال عمليات التعلم فى تعميق حدة صراعهم مع الأوضاع التى يعايشونها ، وبالتالى الاصطدام بالأنساق المحيطة بهم التى تنسج لهم هذه المعايير . وتسهم المعايير فضلا عما تقدم فى تعميق الإحساس أو الشعور بالهوة أو المسافة الاجتماعية والتباين الاجتماعى بين الطلاب .

ويتلقى الطلاب فى مدارس الطبقات المتوسطة والعليا معايير محددة تولد لديهم الاتجاه إلى الامتثال . وكلما أظهر الطالب نجاحا فى الامتثال للمعايير التى يتلقاها وتصرف تبعا لقواعدها كلما استحوذ على اهتمام ومكانة أعلى من غيره وعليه ، يصبح تلقين المعايير مدخلا لشحذ الرغبة فى التنافس والميل إلى الصراع من أجل التميز والتفرد . وتتباين

المعايير التى يلتف حولها أبناء الطبقات الفقيرة والبيئات الداخليــة والبعيــدة. فعلى حين يلتف أدباء الطبقات المتوسطة والعليـــا حــول معــايير المكانــة والتنافس والتميز ، يلتف أبناء الطبقات الفقيرة الدنيا حول معــايير التخلــص من أسباب الحرمان . فالفقر يعد المحرك للبحث عن أنمـــاط مــن التــأهيل والتدريب المهنى من أجل الحصول على مصدر للقــوت أساســا لا البحــث عن التنافس والتميز . وعليه ، فإن الأنساق التعليمية تبعــا لرؤيــة نظريــة الصراع بدعمها لمعايير التنافس إنما تساعد على بقاء الفقير فقيرا .

الدرجـــات العلميــة :

تذهب نظريات الصراع ، فضلا عمـــا تقــدم ، إلــى أن الدرجــات العلمية والدبلومات التى تمنحها المؤسسات التعليمية تمثل بـــالضرورة نمــط التعليم الذى يجب تقديمه للدارسين للانخراط فـــى ســوق العمــل بكفـــاءة . وتتباين قيم الدرجات العلمية بتباين الوظائف التى تدفع أجرا أفضـــل بغــض النظر عما إذا كانت المهارات التى يتحصل عليها المتعلم خلال الفترة التـــى يقضيها للحصول علـــى الدرجــة العلميــة أساســية وهامـــة بالنســبة لأداء الأعمال.

وتصبح الأعمال أو الوظائف المتمـــيزة ــ فـــى ضـــوء الوضعيــة السابقة ــ من نصيب من يقدر على الاستمرار فى التعليم لســنوات طــوال ، أى الأقدر على الدفع ، وهو ما لا يتوفر إلا لأبناء الطبقات القــادرة بطبيعــة الحال . ولقد أدركت بعض المجتمعات النامية آثار افتقاد العدالـــة فــى ظــل هذا الوضع الذى تشجع عليـــه المجتمعــات الرأســمالية فقــامت بـــاختزال السنوات اللازمة لوصول الطالب إلى مســتوى التدريــب والكفـــاءة اللائقــة لشغل وظيفة من الوظائف . ولا يضع التعليم فـــى هــده المجتمعــات فـــى

اعتباره الوضع أو المركز الذى تمثله الوظيفة للفرد أو للطبقة التى ينتمى إليها، بقدر ما يضع الحاجات الحيوية والأساسية للمجتمع .

ويسهم نسق التعليم الذى ينظر إلى المؤهل كمؤشر للمكانة أو المركز وبالتالى للقوة فى المجتمع ، فى إنتاج ثقافة فرعية خاصة بأصحاب الوظائف والمهن النخبوية . وتنمو تلك الثقافة لدى من يشغلون هذه الوظائف نتيجة لما ترسبه فيهم القيم والتصورات المشتركة التى تلقوها خلال مرحلة التعليم وأصبحت تشكل مقوما رئيسيا من مقومات شخصيتهم فى المجتمع .

وعليه ، يصبح التعليم لا من أجل المهارة الواجبة للحصول على بعض الوظائف ، إنما من أجل أعمال محددة تتطلب معايير ثقافية بعينها . فأصحاب ومدراء الأعمال بالمجتمع باهتمامهم بتلك الفئة التى تشبعت بمعايير ثقافية تحقق لهم الفئوية والوضع والقوة .

وخلاصة القول : أن نظريات الصراع تذهب إلى أن الأنساق التعليمية فى المجتمع يسيطر عليها ويديرها أصحاب القوة والنفوذ ، وهى توظف تلك الأنساق لإضفاء الصفة الشرعية على أوضاعها ومكانتها . إنهم يعلمون القيم والمعايير التى تساعدهم على الإبقاء على أوضاعهم والإمعان فى تطبيق نسق غير عادل من التنافس لتبرر لنفسها نجاحها وقوتها .

ثالثا : نظرية التطبيع :

وتذهب نظرية التطبيع بدورها إلى أن التعليم يؤثر على كل من الفرد والمجتمع بما يكسبه من قيم واتجاهات ومهارات من خلال الحياة

المدرسية ، الأمر الذى يمكنه بالتالى من القيام بكفاءة عالية بأدوار اجتماعية متعددة تسهم فى المشاركة الإنتاجية فى هيكل العمل الحديث .

وتقدم النظرية شواهد تجريبية تدعم من خلالها الغرض القائل بوجود علاقة وثيقة بين عدد سنوات الدراسة واكتساب القدرة على المشاركة الاجتماعية والاقتصادية ، فقد تبين أن من يرتفع مستواه الدراسى يشارك بفاعلية عالية فى هذه المجالات على النقيض ممن لم يشارك فى الحياة المدرسية أو لم يدخلها إطلاقا .

ومن ثم ترى هذه النظرية أن تأثير المدرسة فى عملية التطبيع يرجع إلى خصائصها الداخلية (الكفاءة الداخلية) كالطرق التربوية وأنماط التفاعل بين المتعلم والبيئة المدرسية والمناهج وأشكال التنظيم والإدارة المدرسية وغيرها .

وترى جدوى التطبيع الذى تقوم به المدرسة من خلال ثلاث مسلمات أساسية هى :

المسلمة الأولى :

يعمل التعليم كعملية تطبيعية على إكساب المتعلم مستوى عاليا من الكفاءة ويؤكد الواقع التجريبى صحة هذه المسألة ، ذلك أن الحياة المدرسية بما توفره من كفاءة داخلية تمنح المتعلم المهارات والمعارف التى تمكنه من المشاركة الإيجابية فى مجالات العمل المختلفة ، وترتبط قدرته على هذه المشاركة بعدد السنوات الدراسية التى يقضيها فى المدرسة .

ورغم أن الواقع التجريبى يقدم الدلائل على صدق هذه المسلمة ،

إلا أن هناك من الأبحاث ما يشير إلى أن هـذه العلاقـة لا تكفـى لتفسـير مخرجات التطبيع الاجتماعى داخل المدرسـة ، حيـث أن هنـاك عوامـل أخرى تشارك فى عملية التطبيع من بينها علاقة المدرسة بالبيئـة الخارجيـة المحيطة بدليل أن المدارس المتماثلة فى خصائصها الداخلية لا تخـرج فـى الغالب مخرجات طبيعية متماثلة .

المسلمة الثانية :

أن كل كفاءة جديدة تكتسب أثناء عملية التطبيـع المدرسـى تعمـل على تحسين مستوى الأداء لدى المتعلم ، ولا يؤيد الواقـع التجريبـى هـذه المسلمة فى معظم الأحيان ، ذلك أن أثر التطبيع فى هذا المجال ينتهى بعـد تخرج المتعلم من الوسط المدرسى فيواجه الحيـاة العمليـة ، وقـد فرغـت جعبته من تأثير عملية التطبيع المدرسى . وقد توصل " راندال كوليـنز R. Collins " من خلال بعض الدراسات التى قام بها لاستكشاف العلاقـة بيـن المدرسة وعملية التطبيع للتحقق من هذه المسلمة إلى أن ما تتركه المدرسـة من أثر فى المتعلم فى بعض المجتمعات النامية لا يلاحق المتطلبـات الفنيـة فى سوق العمل الذى يجعل عملية التطبيع المدرسى فى حالـة تخلـف عـن المتطلبات والمستجدات المتنامية فى هيكل العمالة اللازم لعملية التنمية .

وقد دعمت صدق ما توصل إليـه " رانـدال " بعـض الدراسـات الأخرى عن المجتمع الماليزى ، إذ بينـت أن تـأثير التطبيـع المدرسـى لا يدوم طويلا بعد أن يترك المتعلم المدرسة ممـا يجعلـه غـير قـادر علـى الاستجابة بكفاءة لمطالب الحياة العملية .

المسلمة الثالثة :

كلما تزايدت الكفاءات بين عدد كبير مـن الشـباب تحقـق تحسـن

نوعى فى المجتمع ككل ، وتؤكد جل نظريات التغير الاجتماعى صدق هـــذه المسلمة ، فقد ثبت أن ارتفاع مستوى الكفاءات بين عدد كبير مـــن الأفـــراد يولد صفات نفسية إيجابية تساعد على رفـــع الصفـــات النوعيـــة للمجتمـــع وتحسينها . ورغم أن الشواهد التجريبية العديدة تؤكد صدق هذه المســـلمة ، إلا أنه فى رأى هذه النظرية ليس من المتوقع أن تحقق مثل هـــذه التغـــيرات فى الأفراد تغيرا اجتماعيا شاملا دائما .

رابعا : نظرية الاستخدام :

تعد هذه النظرية أقرب النظريات إلى النظرية الوظيفية ، حيث أنـــها ترى أن دور التعليم يتجلى أساسا فى توجيه المتعلم تبعـــا لأســـس ومعـــايير محددة إلى المهنة الأكثر ملاءمة لقدراته واســـتعداداته ، وذلـــك فـــى إطـــار تصنيف مسبق لأنواع العمل .

ومؤدى هذه النظرية تبعا لما يذهب إليه " ماير Mayer " أن النـــاس فى المجتمعات الحديثة تتحدد أدوارهم تبعا لســـنوات الدراســـة وأنماطـــها ، وذلك بصرف النظر عن أية اعتبارات أخـــرى يكونـــون قـــد تلقوهـــا فـــى المدرسة أو اكتسبوها خارجها ، فالتعليم على هذا النحو يمثـــل عـــاملا فـــى الانتقاء والفرز والاستخدام أولا وليس لهدف التطبيع الاجتماعى .

وتدل الشواهد التجريبية فى نظر أصحاب هـــذه النظريـــة علـــى أن هناك علاقة مباشرة بين التحصيل التعليمى فى سنوات الدراســـة وتحصيـــل العمل. وعليه ، فإن التعليم فى نظرها يخضع لخطط التنمية من حيـــث أنـــه يضع القوى العاملة فى إطار مواصفات مسبقة بحيـــث تغـــدو هـــذه القـــوى أنسب العناصر لشغل مجالات العمل فى خطط التنمية .

خامسا : نظرية التشريع :

ترى نظرية التشريع أن دور التعليم يتجلى أساسا فى إنجازه للأهداف والسياسات التى نصت عليها التشريعات التربوية باعتبارها جزءا لا يتجزأ من النسق العام للتشريعات الاجتماعية الأخرى فى المجالات المختلفة باعتبار أن مصدر التشريع يكمن فى ضمير المجتمع وينبثق عنه.

ومن ثم فقد اعتبرت هذه النظرية التعليم أحد النظم الاجتماعية التى تتألف منها المنظومة الاجتماعية الكبرى للمجتمع ، لا ينحصر دوره فى كونه مجرد وسيلة للتطبيع الاجتماعى ، كما ذهبت إلى ذلك نظرية التطبيع، وكذلك لا ينحصر فى أنه أداة لإفراز الأفراد تبعا لمواصفات محددة يجرى استخدامهم فى إطارها وتعيين أوضاعهم الاجتماعية تبعا لذلك. ولذا ، فإن التعليم الحديث يصبح تعبيرا وتجسيدا للمعانى الجديدة والقيم التى يرتضيها المجتمع ويسعى إليها ، كما عبرت عنها روح الجماعة مسجدة فى سننها المكتسبة والموضوعة ، وعلى ذلك تبنت نظرية التشريع ثلاث مسلمات أساسية هى :

١ــ يقوم التعليم بتطبيع مستوى أعلى من الكفاءات الحالية .

٢ــ تسهم هذه الكفاءات المكتسبة فى تحسين الأداء عند الأفراد .

٣ــ تعمل الكفاءات المتنامية بين الأفراد إلى إحداث تحسين نوعى فى إطار المجتمع كله .

يسعى التعليم فى سبيل تحقيق مستويات الكفاءة العالية والأداء الحسن للأفراد ، وتحسين نوعية المجتمع بالتالى إلى نقل المعارف الحديثة

مستعينا بأحدث الأساليب والطرائق لتجسيدها لدى المتعلمين . وتعنى الشهادة التى تمنحها المدرسة بالضرورة وصول الخريج إلى مستوى الكفاءة المطلوبة والقدرة على المشاركة العامة فى المجتمع .

ولا يهدف التعليم إذن إلى تسكين الأفراد فى مراكز عليا أو دنيا، إنما هو كنظام شرعى يحاول أن يصل بالأفراد إلى مواقع العمل تبعا لسياسات وبرامج تعليمية محددة وبالتالى يكتسب الصفة السياسية حيث توجهه قيم المجتمع وليست القيم الفئوية أو الطبقية الجامدة .

تعقيب ومناقشة للاتجاهات النظرية السابقة :

يمكن للمتأمل النظريات السابقة أن يقف على عدد من الاتجاهات أو الركائز الفكرية الأساسية فيما طرحته كل نظرية ، ونحاول فى إطار هذا الجزء استعراض ما يمكن أن تفرزه كل نظرية على حدة من خيوط محورية تمكننا من استكشاف معالم التفاعل بين اتجاهاتها النظرية ، وما يمكن أن تسفر عنه من مواقف نظرية متكاملة يتسنى استثمارها وتوظيفها فى رصد واقع العلاقة بين التعليم والتدريب من ناحية والتنمية من ناحية أخرى .

فالنظرية الوظيفية وقد سعت إلى الربط بين دور التعليم والتدريب فى تحسين رأس المال البشرى وتأهيله وتحقيق التوازن بين العناصر الأساسية للبناء الاجتماعى (إمكانيات رأس المال البشرى وطاقاته ومستهدفات المجتمع وقيمه العامة) ، إنما تدعو فى حقيقة الأمر إلى أن تستند جهود التعليم والتدريب الرامية إلى تحقيق التوازن لما يحقق فاعلية وكفاءة دور التعليم فى المجتمع .

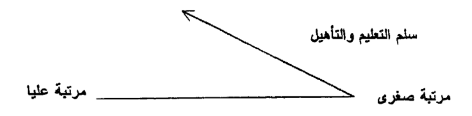
وترتيبا على هذا المنطلق أرست النظرية بعض الأسس التى رأت ضرورة مراعاتها تحقيقا للتوازن الذى ينشده التعليم والتدريب فى تحسينه وتأهيله لرأس المال البشرى بحيث ينبغى مراعاة ما يأتى :

١ـ ضرورة تنوع التعليم لمقابلة تنوع مطالب تقسيم العمل .

٢ـ ألا ترتبط خطط التنمية فى علاقاتها بالتعليم باستراتيجية الدفعة الواحدة أو السريعة لما يحدثه ذلك من صدع فى البناء الاجتماعى .

٣ـ ألا تنفصل برامج وخطط الإصلاح والتطوير التعليمى عن خطط وسياسات التنمية فى مجالات العمل المختلفة .

٤ـ أن تتجه برامج الإصلاح والتطوير التعليمى إلى إعداد الفرد بالدرجة الأولى ، ومن ثم فإن الفرد بما يتيسر له من فرص للتعليم والتأهيل يصبح مسئولا عن وضعه فى مصفوفة الحراك الاجتماعى فى مجتمعه الأفقى والرأسى بصفة خاصة كما يبدو فى شكل (١) .



شكل رقم (١)
مصفوفة الحراك الاجتماعى

وتبعا لهذا الشكل ، يحتل الفرد المرتبة الصغرى كلما كان حظه متدنيا من التعليم والتأهيل ، بينما يحتل المرتبة العليا ما كان حظه منهما

أكبر ، وإذا كان قرار الفرد بشأن مستقبله المهنى والعملى يلعب دورا حيويا فى نظره على مصفوفة الحراك الاجتماعى ، فإنه مما لاجدال فيه يتأثر هذا القرار إلى حد بعيد بما تتصف به أحيانا قرارات صانعى السياسات والمخططين فى مجالى التعليم والتنمية من تناقض مع الواقع القائم من حيث سوء استخدام وتوزيع واستثمار ما هو متاح من رأس مال بشرى .

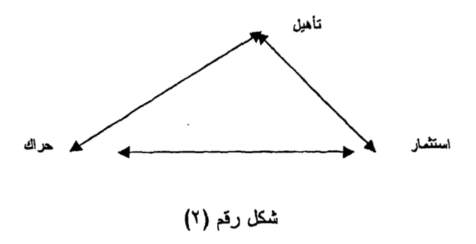
وسعيا إلى تعديل مسار ما قد تفرزه الاعتبارات السابقة من نتائج سلبية ، وبخاصة فيما يتعلق بتحسين رأس المال البشرى طرحت النظرية عددا من المنطلقات نذكر منها :

١ـ أن يسعى التعليم إلى تحريك الحافز لدى الفرد لتحسين وضعه على مصفوفة الحراك الاجتماعى .

٢ـ أن يعمل التعليم على مساعدة الفرد على أن يكون عنصرا استثماريا فعالا فى تحديث مجتمعه فى إطار ما تسمح به قيمه ومستهدفاته فى تحقيق التوازن الاجتماعى والاقتصادى .

٣ـ أن يستهدف التعليم أساسا رفع مستوى كفاءة الفرد وأدائه .

من مجمل هذه المنطلقات يتسنى القول أن هذه النظرية تؤكد على ثلاثة أبعاد متصلة فى العملية التعليمية والتدريبية فى علاقتها بهدف التنمية فى المجتمع . ويوضح شكل (٢) هذه الأبعاد .



شكل رقم (٢)

وتحمل هذه النظرية المدرسة كمؤسسة تعليمية مسئولية تحقيق هذه الأبعاد ، حيث أنها ربطت هدف تحقيق التوازن فى العلاقة بين التنمية والتعليم فى المجتمع بمدى كفاءتها الداخلية وانعكاسات هذه الكفاءة على مخرجاتها فى سوق العمل .

ويمكن القول أنه إذا كان الهدف المعلن لهذه النظرية هو تحسين رأس المال البشرى عن طريق التعليم وتحديثه بحيث يتسنى له تلبية حاجات سوق العمل القائم ، فإن هدفها الضمنى الذى يمكن استقراؤه من توجهاتها العامة يتجلى فى تحقيق مستوى من تطبيق للفرد على نسق من الكفاءات والمهارات والقيم تمكن المجتمع من تحقيق توازنه واستقراره فى مسيرته التنموية ، وإذا كانت النظرية الوظيفية أكدت على الكفاءة الداخلية للمدرسة بعناصرها المختلفة في تأهيل الفرد على نسق معين من المهارات والكفاءات والقيم ، فإن نظرية التطبيع ربطت فى واقع الأمر بين التنمية وبين الدور الذى تلعبه المدرسة كمؤسسة تعليمية وغيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى العاملة فى المجتمع .

وقد انطلقت فى تأكيدها ذلك من منظور أن التعليم لا يقف تأثيره

عند مجرد تطبيع الفرد كوحدة كما ذهبت الوظيفية إنما تمتد أساسا لتشمل المجتمع لما يسهم به التعليم كعملية تطبيعية فى الأساس من تنمية وإكساب للمهارات والاتجاهات والقيم التى تخدم مباشرة مستهدف التنمية والتحديث.

وترتيبا على ذلك يمكن إكساب المهارات وتعديل الاتجاهات والقيم بما يرفع من منسوب الكفاءة لدى الأفراد ويمكنهم من المشاركة الإيجابية اجتماعيا وإنتاجيا فى نظام هيكل العمل الحديث .

ويمكن تصور ذلك على النحو التالى :

عملية التطبيع (مهارات واتجاهات وقيم ← رفع مستوى كفاءة الفرد ← رفع مستوى المشاركة الاجتماعية والإنتاجية ← تنمية المجتمع)، ومن ثم فإن التطبيع من وجهة نظر هذه النظرية ، يتم وفق خطة تعليمية تنجز من خلال عدد من السنوات الدراسية ومن خلال منهج تربوى شامل يجمع بين الجانب الإنسانى الحضارى من المعرفة وجانب التطبيق للمعرفة التعليمية ، أى ينبغى أن تتكامل الخبرة التطبيقية بحيث يلتقى فى إطار عنصر الأصالة والتحديث . وعليه ، تكون حصيلة هذا التفاعل شخصية متكاملة قادرة على المشاركة والإسهام الإيجابى فى مجتمع متعدد الأدوار

ولقد أثارت هذه النظرية ، فضلا عما تقدم ، شرطا أساسيا لنجاح عملية التطبيع على النحو المرسوم ، ألا وهو ضرورة أن يسمح شكل التعليم المدرسى بتحقيق مستوى من التفاعل بين المتعلم وبيئته المدرسية ، ويقتضى ذلك مراعاة الاعتبارات الآتية :

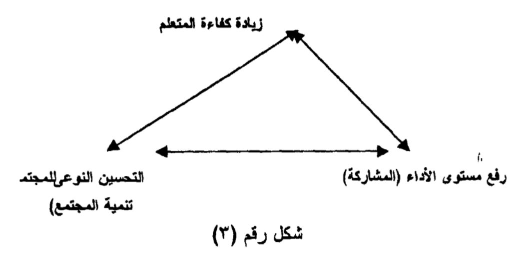
١ـ اعادة التطبيع الاجتماعى للمعلمين بتدريبهم على المستجدات التربوية فى مجال التعليم واتجاهات التحديث والمعاصرة فيه

٢ـ تطوير المناهج الدراسية وتنميتها وربطها بحاجات العصر وتوجهاته.

٣ـ زيادة الإشراف الحكومى على التعليم فنيا وإداريا بما يزيد من الالتصاق بمستهدفاته التنموية فى مجالات العمل والحياة المختلفة .

٤ـ تطوير البرامج المدرسية بما يعين المدرسة على مزيد من التفاعل المستمر بينها وبين مجتمعها .

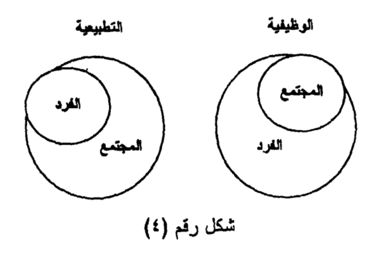
ومن ثم فإن العملية التطبيعية لدى هذه النظرية ترمى إلى إنجاز أبعاد ثلاثة أساسية ، كما هو الحال بالنسبة للنظرية الوظيفية . ويوضح شكل (٣) تلك الأبعاد :



شكل رقم (٣)

ويتضح من الشكل أن هدف العملية التعليمية (التطبيعية) لا يقتصر على التأهيل والإعداد كما ذهبت الوظيفية فى تركيزها على تأهيل وإعداد رأس المال البشرى ، إنما هو زيادة الكفاءة ورفع مستوى الأداء بما يسهم فى تحقيق التحسين النوعى للمجتمع . فلا يكون محور التعليم الاهتمام بالفرد ، بل الاهتمام أساسا بمستهدف عام وهو تحقيق التحسين النوعى للمجتمع من خلال الفرد كأداة ، ومن ثم إذا كان الفرد هو المتغير الرئيسى

فى الوظيفية ، فإن المجتمع هو المحور الرئيسى لدى التطبيعية ، وإذا كان المجتمع متغيرا تابعا لدى الوظيفية ، فإن الفرد هو المتغير التابع لدى التطبيعية . ويمكن أن نوضح ذلك فى الشكل رقم (٤) .



شكل رقم (٤)

وانطلاقا من الواقع الاستقرائى لهذه النظرية ، كما كشفت عنه التجارب من أن فاعلية العملية التطبيعية تضعف لدى المتعلم إثر تخرجه بسنوات قليلة ، فقد اعتبرت التدريب ركنا جوهريا من عملية التطبيع وجرت تخليصه من التصورات التى ربطت بين جهود التدريب وبين استيعاب المتسربين والراسبين من برامج التعليم العام ، وفى ذلك دعوة إلى الأخذ بالتعليم المستمر عن طريق التدريب لتمكين المتعلم من الوقوف على أحدث المستجدات المعرفية فى مجال تخصصه لرفع مستوى الأداء والمشاركة الإيجابية .

وإذا انتقلنا إلى نظرية الاستخدام التى تعنى بتوجيه التعليم فى المجال الأول إلى تجهيز المتعلم بالمهارات التى تتطلبها منظومة العمل القائمة فى المجتمع ، يتبين أن كفاءة العناصر الداخلية للمدرسة تتجلى عندما تغدو المدرسة ورشة لصنع القوى العاملة اللازمة للتنمية طبقا

لمعايير محددة .

ومن هذا المنطلق يفتقد مفهوم التنميـــة بمعناهـــا الشـــامل ، حيـــث انحصر دور العملية التعليمية فى قطاع واحد فقط ، وهو تجـــهيز الكفـــاءات العملية التى يتطلبها سوق العمل .

وتفترق هذه النظرية بطبيعة الحال عن كل من النظريـــة الوظيفيـــة ونظرية التطبيع ، من حيث أنها لم تقرر مجالا للإنسانيات فى خطط التعليـــم وبرامجه واهتمت بجانب الكفاءة التى يصنعها كـــل مـــن التعليـــم النظـــامى الصفى والتدريب معا . وعليه ، فقد برز دور التدريب كعنصر أساسى فـــى بناء العملية التعليمية لدى هذه النظرية ، ولعل ذلك ما حدا بها إلـــى التـــأكيد على أن مقدار ما يتاح للفرد من مشاركة فى عملية الإنتاج يتعين أن يرتبـــط قبل أى شئ بعدد سنوات التجهيز التى يمر بـــها وبنمـــط تجـــهيزه ومـــدى استمرار تدريبه .

ورغم هذه المحكات والمتغيرات المنطقية لعملية المشاركة المنتجـــة، فإنه يجب التنويه بأن هذه المشاركة تتـــأثر بمتغـــيرات اجتماعيـــة وثقافيـــة واقتصادية . ولاشك أنها تحول دون استثمار التعليم فى عمليـــة الاســـتخدام باعتبار أن المدرسة أحد عناصر النسق الاجتماعى العام الذى يوفر للمتعلـــم الشروط اللازمة لشغل مكان فى سوق العمل ، الأمر الـــذى يعـــزز فاعليـــة نظم الاستخدام ويوثق الصلة بينهما .

ويمكن القول من منطوق هذا المدخل المتقدم أن الهدف المعلن لـــهذه النظرية توجيه التعليم لتجهيز القوى البشرية اللازمة لاحتياجـــات منظومـــة سوق العمل ، أما الهدف الضمنى فهو التأكيد على أن الفـــرد ليـــس إلا أداة ،

فهدفه الإسهام فى رفع مستوى الناتج القومى الإجمالى للمجتمع .

∴ والمستقرئ للنظرية الأخيرة (التشريع) يلحظ أنها قدمت نسقا فكريا جمعت فى إطاره بشكل متكامل بين المحاور الأساسية التى انطوت عليها كل نظرية من النظريات السابقة ، فإذا كانت الوظيفية قد وقفت أساسا عند حدود الفرد فى عملية الإعداد والتأهيل ، وتخطت النظرية التطبيعية الفرد إلى المجتمع ، وإذا كانت نظرية الاستخدام قد رجعت إلى الوظيفية عندما وقفت عند حدود الفرد وافترقت عنها حين نظرت إليه كقوة إنتاجية ينحصر دورها فى رفع مستوى الناتج الاقتصادى والإجمالى للمجتمع ، فإن النظرية التشريعية التى اعتبرت التعليم وسيلة لإعطاء الصفة الشرعية للمستهدفات الاجتماعية والاقتصادية القائمة فى المجتمع سعيا للانسجام معها من خلال نسق تعليمى لا يسعى إلى الثبات بقدر ما يرمى إلى تغيير وتحديث بنية المجتمع تكون قد التقت مع الفرد كرأسمال بشرى ومعه كعضو اجتماعى يرتبط به ويتكامل معه كطاقة إنتاجية اقتصادية .

ولما كان التعليم حقا شرعيا مقررا للفرد ، كإنسان ، فإن على المجتمع أن ينهض به ويطوره بالصورة التى تدم هذا الإنسان ووجوده المتفاعل مع بيئته ، وتدعم فى نفس الوقت سعى المجتمع من خلال جهوده المختلفة للارتباط بهذا الإنسان واحتضانه وتنميته باعتباره حائزا على مقومات التقدم والازدهار .

ولقد كان من الطبيعى اتساقا مع هذا المنظور أن تناهض هذه النظرية كل ما من شأنه أن يعوق تحقيق منظومتها التكاملية ، وأن تدعم كل ما يسهم فى تعديل الاتجاهات وتنميتها للارتباط بقيم العصر ومستحدثاته والأخذ بالتجريب والتخصص العلمى والعمل التطبيقى والدعوة

إلى تكافؤ الفرص ، وليس بخاف أن النظرية قد بنــت هــذا المنطلــق فــى ضوء حتمية تواجد نوع من الاعتراف الضمنى المتبادل بين الفرد والدولـــة، فعلى الدولة وهى تتطلع إلى ولاء الفرد لها أن تمنحه مقابل ذلـــك امتيـــازات وحقوق المواطنة كحق التعليم وفق مبدأ تكافؤ الفرص فى إطار ديمقراطى.

ومن ثم يصبح التعليم مدخلا نيل ما هو متـــاح فـــى المجتمـــع مـــن خدمات ، وعلى ذلك تبرز الحاجة إلى وجود ضوابط تقنـــن منـــح الشـــهادة باعتبارها اعترافا بشرعية حصول المتعلـــم علـــى امتيازاتـــها الاقتصاديـــة والاجتماعية .

الموقف النظرى المستخلص من تحليل الاتجاهات النظرية :

من التحليل المتقدم لمجمل النظريات تتبين درجة عالية من التفـــاعل والاتصال فيما بينها ، وقد تجلى هذا التفـــاعل فـــى عـــدد مـــن العنـــاصر المشتركة هى :

١ـ التأكيد على أهمية الدور الذى يلعبه التعليم بصوره المتعددة فى إحـــداث التنمية ، وذلك على خلاف ما ذهبت إليه بعض الاتجاهات من محاولـــة التشكيك فى العلاقة الوثيقة بين التعليم والتنمية .

٢ـ الالتقاء حول تصـــور للتعليـــم كعمليـــة للتطبيـــع الاجتمـــاعى تتبـــاين مستوياتها بمستوى الطرح داخل كل نظرية .

٣ـ الالتقاء حول وجود علاقة عضوية بين عملية التطبيع ورفـــع مســـتوى الأداء لدى الأفراد وهو ما يسهم بـــدوره فـــى زيـــادة النـــاتج القومـــى والتحسين النوعى للمجتمع .

٤ـ الالتقاء حول دور التعليم فى إعداد الأطر المؤهلة والمدربة اللازمة لإشباع حاجات منظومة هيكل العمل .

٥ـ التركيز على أهمية الكفاءة الداخلية للمدرسة فى توفير مخرجات متسقة ومنسجمة مع مستهدفات التنمية فى المجتمع .

من مجمل عناصر الالتقاء المتقدمة بين النظريات السابقة يتسنى القول أنها تناولت أهم الأبعاد المؤلفة لدور التعليم فى إنجاز أهداف التنمية بمفهومها الشامل وهى تلك الأبعاد التى لقيت اهتماما بالغا فى إطار الجانب الأعظم من التراث الذى تناول هذه القضية .

من منظومة الالتقاء المتقدمة بين هذه العناصر يتوجب استثمار المحاور الأساسية داخل كل نظرية ، بحيث تشكل هذه المحاور مجتمعة إطارا نظريا متكاملا يمكننا من تحليل واقع العلاقة بين دور التعليم والتدريب فى تحقيق مستهدفات التنمية فى مجتمعاتنا العربية .

ويتمثل المحور الأساسى فى النظرية الوظيفية فى توجيه التعليم والتدريب أساسا نحو توفير رأس المال البشرى الذى يضطلع بإنجاز مستهدفات التنمية فى المجتمع، أما المحور الأساسى فى النظرية التطبيعية، فيتمثل بدوره فى إسهام كل من التعليم والتدريب فى بناء الشخصية المتوافقة والمتكاملة مع مستهدفات مجتمعها وبيئتها وما تنشده من تحديث لعملية التنمية فيها .

أما المحور الأساسى فى نظرية الاستخدام فيقوم فى تجهيز الأفراد تبعا لمقاييس محددة تقتضيها منظومة سوق العمل ، وينحصر المحور الأساسى فى بناء نظرية التشريع بدورها فى تحقيق كل من التعليم

والتدريب مستهدفات وقيم منظومة التشريعات داخل المجتمع باعتبارها نسقا متكاملا يرتبط بالمستهدفات التنموية العامة القائمة [١] .

تقييم النظرية الاجتماعية [٢] :

رغم أن الواقع الاجتماعى الذى يتناوله علم الاجتماع له وجود موضوعى مستقل عن العالم ، نجد لعلم الاجتماع نظريات عامة متعددة ، كل منها يقدم تصويرا لهذا الواقع يخالف ذلك الذى تقدمه غيرها . وبالتالى يتوقع وجود تفسيرات مختلفة لنفس الظاهرة الاجتماعية الواحدة . وهنا يواجه أى دارس لهذه النظريات بموقف حتمى يتعين عليه فيه أن يقارن بين هذه النظريات المختلفة ويختار من بينها ما يرى أنها الأصلح أو أنها الأكثر إقناعا . إلا أن عملية المقارنة هذه تتطلب بالضرورة تقييما لكل منها على حدة ، فعلى أى أساس يتم هذا التقييم ؟

ويلاحظ أن دارسو النظريات الاجتماعية يلجأون إلى تقييم هذه النظريات والمفاضلة بينها على أسس غير علمية ، بل ويتعاملون معها كما لو كانت سلعا أو أشياء مما تقابلهم فى حياتهم اليومية ، ومن ثم يعتمد اختيارهم لأحدها .

وعلى ذلك فإن تقييمنا لأى نظرية اجتماعية عامة يجب أن يتحدد

---

(١) أحمد النكلاوى : " التعليم والتنمية فى المجتمع العربى " ، دراسة تم إنجازها بتكليف من المكتب العربى للتربية لدول الخليج ، الرياض ، ١٩٨٤ .

(٢) تم الاعتماد فيما يقدمه هذا القسم من الفصل على ما قدمه سمير نعيم فى مؤلفه " النظرية الاجتماعية " ، وقد سبق الإشارة إليه ، وذلك فى تناونه لأسس تقييم النظرية الاجتماعية ، صفحات ٥٥-٧٧ .

على أسس علمية وموضوعية لا على أساس الأهواء الشخصية أو الأفكار غير العلمية كما أن قبولنا أو رفضنا لأى من هذه النظريات لابد أن يكون بناء على دراسة مستفيضة لها ثم تطبيق الأسس العلمية للتقييم عليها.

وعليه ، تصبح أول مهمة عند دراسة أى نظرية اجتماعية هى أن نتعرف عليها ونستخلص المبادئ العامة أو الافتراضات أو المسلمات الأساسية التى تدور حولها هذه النظرية . يلى ذلك إخضاع هذه المبادئ أو المسلمات للفحص الدقيق ومناقشة مدى صدقها والتساؤل عن الأدلة التى تؤكدها أو تنفيها .

الوقوف على الافتراضات :

ونعنى بالافتراضات أو المسلمات تلك الأفكار التى تعتبر محورا أساسيا تدور حوله النظرية ، وقد يخضعها صاحب النظرية للمناقشة ويقدم أدلة عليها ، أو قد يقدمها على أنها مسلمات لا تقبل الشك ، وقد تكون هذه الأفكار المحورية ظاهرة ومعبرا عنها بوضوح فى النظرية وبالتالى يسهل مناقشتها أو قد تكون كامنة أو خافية ، وبالتالى يصبح علينا أن نبذل جهدا فى استنتاجها من خلال النظرية وإخضاعها للمناقشة . وقد أطلق " الفن جولدنر " على هذه الإفتراضات تسمية " الافتراضات الخلفية " ، بينما أسماها " جدعون جوبرج " " الافتراضات الرئيسية " ، وعادة ما تعكس هذه الافتراضات التوجيه الأيديولوجى لصاحب النظرية وانحيازاته الاجتماعية.

ولما كان أى باحث فى ميدان الظاهرات الاجتماعية يتبع بالضرورة نظرية ما حتى ولو عن غير وعى ، فإن هذه النظرية بما

تتضمه من افتراضات أساسية تؤثر عليه فى جميع خطوات بحثـه ، ابتـداء من اختياره للمشكلة موضوع البحث واختياره لأدوات جمع البيانـات حتـى تفسيره للمادة التى سيجمعها مهما كان مجال دراسته .

افتراضات خاصة بطبيعة الواقع الاجتماعى :

تعتبر هذه الافتراضات من أهم موجـهات النظريـة الاجتماعيـة . ويمكن مناقشة هذه الافتراضات على أساس عدة أبعاد فرعية :

١ـ التغير أو الثبات فى الواقع الاجتماعى .

٢ـ التكامل أو الصراع .

٣ـ المادية أو المثالية .

٤ـ وحدة الملاحظة والتحليل الأساسية (الفرد أو الجماعة) .

افتراضات خاصة بطبيعة الإنسان وقدراته :

يرتبط هذا الافتراض الأساسى ارتباطا وثيقـا بـالافتراض الخـاص بطبيعة الواقع الاجتماعى .

فهناك من العلماء الاجتماعيين من افترض أن الإنسان وأفعاله غـير منطقية ، فالذين يتبعون الفكر الفرويدى مثلا يعتقدون أن الإنسان قـد خلـق مجتمعا يعمل دائما على كبت حوافزه البيولوجية .

وهناك فريق آخر يرفض التسليم بهذه الفكرة الفرويديـة ويـرى أن الإنسان كائن عقلانى . وقد سلم " تالكوت بارسونز " بذلك فى كتابـه " بنـاء الفعل الاجتماعى " ولكنه عاد فتأثر بفكر فرويد عـن الطبيعـة اللاعقلانيـة

للإنسان فى كتاباته اللاحقة .

كما أن هناك من بين العلماء الاجتماعيين من يسلمون بفكرة "توماس هوبر " التى مؤداها أن الإنسان شرير بطبعه وأنه يهدف دائما إلى تحقيق مصلحته على حساب الآخرين ، بينما يسلم غيرهم أن الإنسان يرغب دائما فى التضحية بمصالحه من أجل الصالح العام (مثل سوروكين).

افتراضات خاصة بعلاقات العالم بالظاهرات الاجتماعية :

يضع كل عالم اجتماعى بعض الافتراضات التى تكون عادة ضمنية فيما يتعلق بعلاقة الباحث بالواقع الاجتماعى . فهناك فريق من علماء الاجتماع يفترضون أن القائم بالملاحظة قادر على أن يعزل نفسه عما يلاحظه ، وأنه يستطيع أن يجرى ملاحظاته مستقلا عن الواقع الذى يدرسه . وهناك من يرى أن القائم بالملاحظة يؤثر فى الواقع الاجتماعى ويتأثر به بدوره . كما يرى بعض آخر أن القائم بالملاحظة (أى الباحث) يؤثر ويتأثر بالنظام الاجتماعى الذى يدرسه ، ولكنه يستطيع عن طريق جعل هذه العلاقة المتبادلة تتخذ طابعا موضوعيا أن يمارس درجة من السيطرة على هده العلاقة ، وبالتالى يستطيع أن يحقق درجة عالية من الموضوعية .

افتراضات متعلقة بمستوى النظرية :

يرتبط مستوى النظرية الذى يستخدمه العالم بتصوره لنمو المعرفة الإنسانية ، فالباحثون الذين يتبعون الاتجاه الامبيريقى المحدود يعتبرون المعرفة شيئا يتراكم جزءا فوق جزء ، وأن عناصر هذه المعرفة سوف تتجمع على المدى البعيد فوق بعضها البعض لكى تكون النظرية . وفى

مقابل ذلك الاتجاه نرى علماء آخرين مثل " سوروكن " يقـــرر أن المعرفــة لا يمكن أن تتجمع إلا عن طريق إطار نظرى كبير ومن خلال هذا الإطـــار تمتزج عناصر المعرفة مع بعضها البعض فى كل متكامل له معنى .

ويختلف الماركسيون فى وجهة نظرهم عن طبيعة المعرفـــة ، فـــهم يرون أن الخبرة الحسية هى أساس المعرفــة بـــالواقع ، وأن الإنســـان مـــن تحليله لخبرته تحليلا عقليا يستطيع أن يصل إلى جوهـــر وحقيقـــة الأشـــياء التى يلاحظها . ويرى الماركسيون أن النظريـــة العلميـــة عـــن المجتمـــع لا يجب أن تكون مادية فحسب ولكن لابد أن تكون تاريخية أيضا .

افتراضات متعلقة بالمتغيرات السببية أو التفسيرية :

تعكس طبيعة المتغيرات التـــى يســـتخدمها البـــاحث فـــى تفســـيره للظاهرات التى يدرسها افتراضاته الأساسية عن طبيعة الواقـــع الاجتمـــاعى ومستوى التنظير له . وتعتمـــد صياغـــة البـــاحث للمتغـــير أو المتغـــيرات التفسيرية على ميدان بحثه .

ويستخدم علماء الاجتماع واحدا أو أكـــثر مـــن المتغـــيرات الآتيـــة كمتغيرات (تفسيرية) :

١ ـ المتغير التاريخى :

يفـــترض كثـــير مـــن العلمـــاء الاجتمـــاعيين وخاصـــة علمـــــاء الأنثروبولوجيا أن كل ثقافة لها قوانينها الخاصة ، وعلى ذلك فإنه لا يمكننـــا فهم أنماط الأنساق الثقافية إلا إذا اعبرناها وحدة كلية لها امتدادها الزمنـــى ويفرض ذلك على الباحث الأسلوب التاريخى فى البحث ، وإلـــى حـــد مـــا

يفرض عليه أيضا أن يتبنى إطارا نظريا تطوريا لكى يفهم الحاضر ويتنبأ بالمستقبل .

٢ـ المتغير الاقتصادى أو التكنولوجى :

يفترض كثير من العلماء الاجتماعيين أن العوامل الاقتصادية هى التى تحدد كافة الظاهرات الاجتماعية ، ولذلك فإننا نرى كثيرا منهم يتخذون من الثورة الصناعية متغيرا أساسيا يفسرون به التغير المستمر فى أبنية المجتمعات . ويعتقد بعض الكتاب أن العامل الاقتصادى متمايز من الناحية التحليلية عن العامل التكنولوجى ويؤكد بعضهم على متغير و آخر من الاثنين .

٣ـ متغير القيم الثقافية :

يميل معظم العلماء الاجتماعيين إلى افتراض أن متغير القيم الثقافية أهم المتغيرات التى يمكن بواسطته تفسير الفروق بين المجتمعات ، فقد اعتمد ماكس فيبر على نسق القيم والمعتقدات بوصفه نسقا تفسيريا فى تفسيره للعلاقات بين الدين والنسق الاقتصادى فى مختلف قطاعات العالم الاجتماعى.

٤ـ متغير القوة الاجتماعية :

يعتقد كثير من العلماء الاجتماعيين أن القوة الاجتماعية يمكن أن تستخدم كمتغير يفسر التغييرات البنائية التى تطرأ على الأنساق ، وقد استخدم ماركس القوة كمتغير تفسيرى لكى يدعم به وجهة نظره عن أهمية وسائل الإنتاج .

الوقوف على المضمون الأيديولوجى للنظرية :

لا تخلو نظرية اجتماعية من مضمون أيديولوجى ، فكل الافتراضات السابق الإشارة إليها ذات بعد أيديولوجى . وهنا يتعين الإجابة على الأسئلة التالية فى رصدنا لنظرية من النظريات :

١- ما المجموعات الاجتماعية التى يدافع صاحب النظرية بطريقة صريحة أو ضمنية عن مصالحها ؟

٢- ما المجموعات التى يؤكد صاحب النظرية أنها صاحبة الحق فى السيطرة على المجتمع ؟

٣- أى نظام اجتماعى - اقتصادى يصوره صاحب النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية ؟

٤- ما الجوانب التى يركز عليها صاحب النظرية اهتمامه ويبرزها ، وما الجوانب التى يتغافل عنها أو يتجاهلها فى الحياة الاجتماعية ؟ ولمصلحة من فى المجتمع يتم هذا الإبراز أو التجاهل ؟

الوقوف على الأدلة الواقعية على صدق الاستنتاجات النظرية :

من الثابت أن النظرية التى لا تستند على وقائع أو أدلة مستمدة من الواقع لا تزيد عن كونها مجرد تأملات غير علمية ، ولذلك فإن أى أحكام أو استنتاجات تتضمنها النظرية يجب لكى نقبلها أن تكون مدعمة بالأدلة.

ومما تقدم نستطيع أن نحدد الأسس التالية التى يتعين علينا الالتزام بها عند دراستنا للنظرية الاجتماعية بهدف تقييمها

أولا : قراءة وفهم واستيعاب هذه النظرية بكافة أبعادها .

ثانيا : استخلاص المسلمات الأساسية التـــى ترتكــز عليـــها كــل تفــاصيل النظرية.

ثالثا : الإجابة على التساؤلات التالية :

١ـــ كيف تصور النظرية الواقع الاجتماعى بشكل عام ؟

٢ـــ كيف تصور النظرية طبيعة الإنسان ؟

٣ـــ كيف تصور النظرية علاقة العالم بالظاهرات الاجتماعيـــة التـــى يدرسها؟

٤ـــ ما مدى الشمول فى النظرية ؟

٥ـــ ما هى نوعية المتغيرات التى تعتمد عليها النظريـــة فـــى تفســير الظاهرات الاجتماعية المختلفة ؟

٦ـــ هل تميز النظرية بين القوانين العامة (أو الأحكام العامـــة) التـــى تنطبق على المجتمع الإنسانى ككل وبين القوانين النوعيـــة التـــى تنطبق على كل نوع من أنواع المجتمعـــات وكـــل مرحلـــة مـــن مراحل تطورها ، أم تقوم بالتعميم من نوع واحد على الإنســـانية ككل ؟

٧ـــ ما المضمون الأيديولوجى للنظرية ؟

٨ـــ ما الأدلة الواقعية على صـــدق المســلمات والاســتنتاجات التـــى تتضمنها النظرية؟

٩ـــ ما الإجراءات العملية التى تشير إليها النظرية إذا استرشـــدنا بـــها

فى التطبيق أو فى رسم السياسات الاجتماعية ؟ هل تشير علينا بالحفاظ على الوضع القائم فى المجتمع وعلى نوعية العلاقات القائمة بين المجموعات الاجتماعية فى المجتمع الواحد وبين المجتمعات (المتقدمة والمتخلفة مثلا) دون إحداث تغييرات فى البناء الاجتماعى أم تدعونا إلى تغيير هذا الواقع وتطويره ؟ هل تدعونا إلى أن نرسم سياساتنا الاجتماعية بحيث نعمل على جعل الإنسان يتكيف ويتلاءم مع الواقع الذى تصوره على أنه ثابت ، أم تدعونا إلى تغيير الواقع ليتلاءم وحاجات الإنسان .

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة